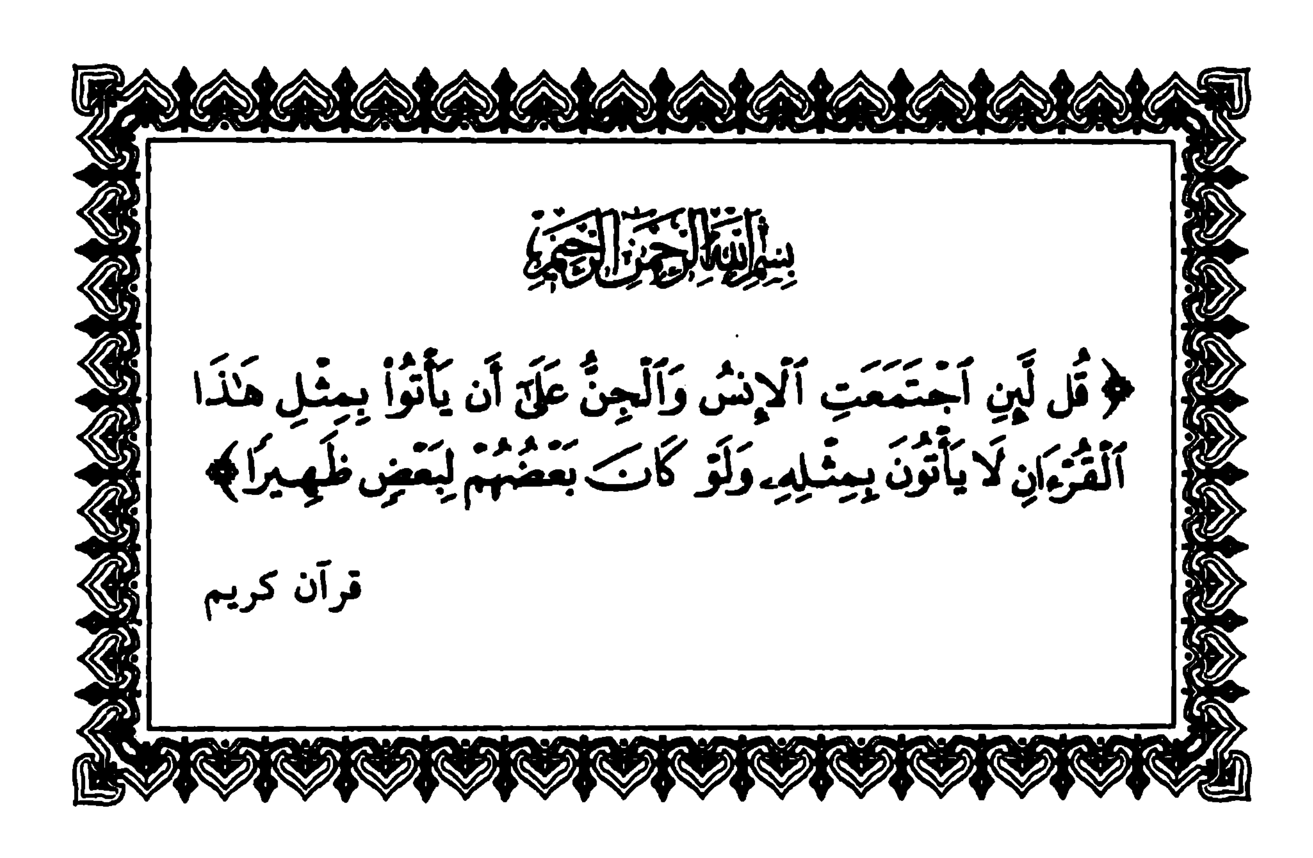

فاضل صالح السامرائي
التعبير
القرآني



الدكتور فاضل صالح السامرائي
أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

قرآن كريم

«إن هذا القرآن مأدبةُ اللهِ فاقبلوا مأدبتَه ما استطعتم. إن هذا القرآن حبلُ اللهِ والنورُ والشفاءُ النافعُ. عصمةٌ لمن تمسَّك به ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوجّ فيقوَّم، ولا تنقضي عجائبهُ ولا يَخلقُ من كَثرة الردّ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كلَّ حرف عشر حسنات. أما إني لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

حديث شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه والداعين بدعوته وبعد:

فقـد كنت أسمع من يقـول: إن القـرآن معجـز وإنه أعلـى كلام وإنه لا يمكن مجاراته أو مداناته وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا. وقد قـرأت في كثير من الكتب نحواً من هذا القول. وكنت أرى فـي هذا غلـواً ومبالغـة، دفع القائليـن بـه حماسُهـم الدينـي وتعصبهـم للعقيـدة التي يحملونهـا. وكنت أقـرأ كثيـراً من التعليلات التي يستدل بهـا أصحابها على سمو هذا التعبير كارتباط الآيات ببعضهـا وارتبـاط فواتح السور بخواتيمها وارتباط السور بعضهـا ببعض واختيـار الألفـاظ دون مرادفاتهـا ونحـو ذلك فلا أراهـا علميـة وأجد كثيـــراً منهـا متكلفـاً، وكنت أقول: إنه لو كان التعبير على غير ذلك لعلَّلوه أيضاً فإن الانسان لا يعدم تعليلاً لما يريد، إلا أنه بمرور الزمن وبعد اطلاعي على مؤلفات أحسبهـا غير قليلة في كُتب اللغة والتفسير والإعجـاز والبلاغـة ونحوها ـ وذلك بحكم اختصاصي ـ بدأت أميل إلى تصديق هذه المقولة، فقد اتضح لي أن قسماً غير قليل مما كُتبَ كُتبَ بروحٍ علمية عالية وأن كثيراً مما كتب لا أزال أراه الآن كما كنت أراه من قبل.

ثم قررت أن أدرس النص القرآني بنفسي فبدأت أُجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنوية وأفحصها فحصاً دقيقاً فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة. وجدتُ تعبيـراً فنياً مقصـوداً حُسِبَ لكل كلمـة فيـه حسابُها بل لكل حرف بل لكل حركة.

وكلمـا أمعنت النظـر والتدقيق والموازنـة ازددتُ بذاك يقيناً وبصيرة. وانتهيت إلى حقيقـة مسلّمـة بالنسبـة إليّ وهي أن هذا القـرآن لا يمكـن أن

يكـون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وآخـرهم لـو اجتمعـوا على أن يفعلـوا مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا.

وأنا لا أطلب من القارىء أن يسلّم بهذه الحقيقة فإن هذا طلب لا مطمع منه لمجرد القول والادعاء، وإنما الذي أطلبه منه أن يخلع عنهُ جلباب العصبية وينظر بروح علمية مجردة. وأنا لا أشك في أنه سيصل إلى ما وصلت إليه.

صحيح أن كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلّمات اللغوية وليس لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها ومن الصعب أن يهتديَ هؤلاء إلى أمثال هذه المواطن من غير دليل يأخذ بأيديهم يدلّهم على مواطن الفن والجمال ويُبصّرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يعونها ويفهمونها. وهذا الكتاب أحسبه من هذا النمط فما هو إلا دليل يشير إلى شيء من مواطن الفن والجمال ويبصّر بقسم من أسرار التعبير.

أنا لا أقول إني وضعت الكتاب بعيداً من العصبية والهوى وإن كان يخيّل إليّ أني فعلت ذاك، ولا أفترض أن القارىء سيسلّم بكل ما يجده فيه ولا أطلب منه ذاك ولكني أدعو القارىء أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقظان وأن يصبر على ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يَعِيهَا وذلك ليس بأمر عسير.

وأظنه متى فعل ذاك سيبصر ما أبصرناه وينتهي إلى ما انتهينا إليه.

نسأله تعالى أن يلهمنا الرشد ويجنبنا الزلل إنه سميع مجيب.

فاضل السامرائي.

التعبير القرآني

لاخلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه. وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تَحدَّاهم أكثر من مرة.

لقد تحدى القرآنُ العرب ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[هود].

فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورةٍ من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا أيضاً وقامت الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة].

وأكد التحدي بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء].

دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها فهو تَحدَّاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذاك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن.

ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس. سعوا إلى أن لا يصل الى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحْدِثُ في النفس دَوِيّاً هائلاً وهزَّة عنيفة وقد حكى الله

عنهم هذا الأسلوب فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[فصلت].

وكان صناديد قريش وَأعتاهم محاربة للرسول وأشدهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه، فقد كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس ابن شريق يأخذ نفسه خلسة لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[(١)]. وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾[الإسراء].

وما قول الوليد بن المغيرة بِسِرٍّ. فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليُجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. فكان يرد هذه الأقوال ويفندها ثم قال:

« والله إنَّ لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يعلى عليه »[(٢)].

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِعَ وضعاً فنياً مقصوداً، ولم تُراعَ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعيَ في هذا الوضع التعبير القرآني كله.

---

(١) تفيسر ابن كثير ٣/ ٤٤، سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٢-٤٤٣ سيرة ابن هشام ١/ ١٧٤-١٧٥.

لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافيّة ترددت في سورة (ق) كثيراً والكلمات الصاديّة ترددت في سورة (ص) كثيراً وهكذا[1] .

جاء في (ملاك التأويل) في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة: «إن هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثر تَردادُهُ فيما تركب من كلمها. ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت في سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت الحرف المفتتحَ بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها»[2] .

واستندوا إلى الإحصاء، جاء في (ملاك التأويل) عن سبب بدء سورة (لقمان) بـ (ألم) وسورة يونس بـ (ألر): «أنه تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها. وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهي أطول منها. والوارد فيها مما تركب على الراء من كلمها مائتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها»[3] .

وانتبهوا إلى شيء آخر وهو أن عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفاً أي بمقدار نصف حروف المعجم ترددت في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر حرفاً وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. وبيان ذلك أن فيها من الحروف المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن المطبقة نصفها، ومن المنفتحة نصفها، ومن المستعلية نصفها، ومن المنخفضة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها، وقد ذكر من هذه الأنصاف ما هو كثير الدوران في الكلام، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته[4] .

---

(١) انظر البرهان ١/ ١٦٩.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٣٠.

(٣) ملاك التأويل ١/ ٤٨٣ وانظر ٢/ ٥٤٨.

(٤) انظر الكشاف ١/ ٧٨-٧٩.

وليس هذا كل شيء في الإحصاء بل هناك شيء آخر وربما أشياء. أفلم تقرأ الإحصاءات الأخرى في كتاب الله العزيز لترى العجب؟

لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً و لا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق دقيق.

لقد تبين :

أن (الدنيا) تكررت في القرآن الكريم بقدر (الآخرة) فقد تكرر كل منهما ١١٥ مرة.

وأن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكرر كل منهما ٨٨ مرة.

وأن (الموت) ومشتقاته تكرر بقدر (الحياة) فقد تكرر كل منهما ١٤٥ مرة. وهل الموت إلا للأحياء؟

وأن (الصيف) والحر تكررا بقدر لفظ (الشتاء) والبرد فقد تكرر كل منهما خمس مرات.

وأن لفظ (السيئات) ومشتقاتها تكرر بقدر لفظ (الصالحات) ومشتقاتها فقد تكرر كل منهما ١٦٧ مرة.

وأن لفظ (الكفر) تكرر بقدر لفظ (الإيمان) فقد تكرر كل منهما ١٧ مرة.

وتكرر لفظ (كفراً) بقدر لفظ (إيماناً) فقد تكرر كل منهما ثماني مرات[1].

وأنه تكرر ذكر (إبليس) بقدر لفظ الاستعاذة فقد تكرر كل منهما ١١ مرة.

وأن ذكر (الكافرين) تكرر بنفس عدد النار. وهل النار إلا للكافرين؟

وأن ذكر (الحرب) تكرر بعدد الأسرى(٢). وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب.

وأن لفظ (قالوا) تكرر ٣٣٢ مرة «ومن عجبٍ أن يتساوى هذا مع لفظ (قل) الذي هو أمرٌ من الله إلى خلقه، فسبحان من قال (قل)، ٣٣٢ مرة فكان القول ٣٣٢ مرة».

---

(١) انظر الإعجاز العددي للقرآن الكريم ج ١/ ١٥، ٢١، ٣٥، ٥٨، ٧٠، ١٢٤، ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٥، ٤٩.

وأن لفظ (الشهر) تكرر ١٢ مرة بعدد شهور السنة.

وأن لفظ (اليوم) تكرر ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة[1].

وأن لفظ (الأيام) تكرر ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر[2].

وقد تقول : ولِمَ لم يعكس فيذكر اليوم ثلاثين مرة بقدر أيام الشهر و(الأيام) ٣٦٥ مرة بقدر أيام السنة؟

والجواب أن العرب تستعمل الجمع تمييزاً لأقل العدد وهو من ثلاثة إلى عشرة فإذا زاد على العشرة جاءت بالمفرد فتقول : ثلاثة رجال، وأربعة رجال. وعشرة رجال. فإن زاد على العشرة وصار كثرة جاءت بالمفرد فتقول: عشرون رجلاً. ومائة رجل، وألف رجل. فالجمع يوقعونه تمييزاً للقلة والمفرد يوقعونه تمييزاً للكثرة.

وكثيراً ما يوقعون المفرد للكثرة بخلاف الجمع من ذلك الوصف بالمفرد والوصف بالجمع.

فالوصف بالمفرد يدل على الكثرة، والوصف بالجمع يدل على القلة فقولك (أشجار مثمرات) يدل على أن عدد الشجرات قليل بخلاف ما لو قلت (أشجار مثمرة) فإنه يدل على أن الأشجار كثيرة.

ويوقعون ضمير المفرد للكثرة وضمير الجمع للقلة. ألا ترى أن قولك: «الرماح تكسّرن» يعني أن الرماح قليلة وذلك لمجيء نون النسوة بخلاف قولك: «الرماح تكسّرتْ» فإنها تعني أن الرماح كثيرة. والنون في الأصل للجمع والتاء للمفرد.

ألا ترى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

كيف لما قال: (إثنا عشر شهراً) قال: (منها). ولما قال: (أربعة) قال: (فيهن) فاستعمال المفرد (منها) للكثرة والجمع (فيهن) للقلة. وغير ذلك.

فهو جرى على سنن كلام العرب في التعبير. والقرآن أُنزل بلسان عربي مبين وغير ذلك وغيره. فأي إعجاز هذا أيها الناس! أي إعجاز هذا أيها العلماء! أي إعجاز هذا أيها المفتونون بالعلم!

ومن يدري ماذا سيجدُ بعد في دراسات القرآن الكريم وماذا سيرى الناس من عجائبه؛ فإن هذا الكتاب كما قال رسول الله ﷺ: «لا تنقضي عجائبه ولا يَخلَقُ من كثرة الرد».

ثم إن القرآن له خصوصيات في استعمال الألفاظ: فقد اختص كثيراً من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير فمن ذلك أنه:

استعمل (الرياح) حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة واستعمل (الريح) في الشر والعقوبات[1] قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۝٥٧﴾[الأعراف] وانظر الفرقان ٤٨ والنمل ٦٣.

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ۝٤٦﴾[الروم].

في حين قال﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۝١١٧﴾[آل عمران].

وقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤﴾[الأحقاف]. وقال ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾[الحاقة]. وغير ذلك وغيره.

ولم يستعمل الريح في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ۝٢٢﴾[يونس] وهي خاتمة غير حميدة.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٠.

ومن ذلك ذكر المطر فإنك «لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام»[1] بخلاف الغيث الذي يذكره القرآن في الخير. قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[النمل] وانظر الشعراء ٧٣. وقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأعراف] . وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴿٤٠﴾ ﴾[الفرقان].

في حين قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾[الشورى]. وقال: ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[يوسف].

ومن ذلك ما اختص به القرآن الكريم في استعمال العيون والأعين. فلم يستعمل العيون إلا لعيون الماء. وقد وردت كلمة (العيون) في القرآن الكريم في عشرة مواطن كلها بمعنى عيون الماء من مثل قوله تعالى: ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[الحجر] وقوله : ﴿ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾[المرسلات].

في حين جمع العين الباصرة على أعين[2] مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴿١٠١﴾ ﴾[الكهف] وقوله : ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴿١١٦﴾ ﴾[الأعراف] وقوله : ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴿٨٣﴾ ﴾[المائدة].

ومن ذلك استعمال (وصى) و(أوصى) فكل ما ورد فيه من (وصّى) بالتشديد فهو في الدين والأمور المعنوية وكل ما ورد من (أوصى) فهو في الأمور المادية.

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى] وقال ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء] في حين قال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ

(١) انظر البرهان ٤/٩-١٠.

(٢) انظر دراسات في اللغة لإبراهيم السامرائي٩١.

﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۝١١﴾[النساء] وهو في المواريث. وقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۝١١﴾[النساء].

وهي كما ترى كلها في الأمور المادية.

ولم ترد (أوصى) في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترنت فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾[مريم] فإنه قال (أوصاني) لما اقترنت الصلاة بالزكاة والزكاة أمر مادي يتعلق بالأموال كما هو معلوم.

ومن ذلك قوله تعالى: (يشاقّ) و (يشاقق) وهما لغتان: الفك لغة الحجاز والإدغام لغة تميم، ولكن القرآن استعملهما استعمالاً خاصاً فحيث ورد ذكر الرسول فك الإدغام. وحيث لم يرد ذكر الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدغم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣﴾[الأنفال].

وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ۝١١٥﴾[النساء] في حين قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾[الحشر].

ولعله وحّد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده وفكّهما وأظهرهما لأنه ذكر الله والرسول فكانا اثنين.

وخصوصيات الاستعمال القرآني كثيرة لا نريد أن نستقصيها الآن ولكن أردنا فقط أن نضرب أمثلة على ذلك لنتبين (القصد) والدقة في اختيار ألفاظ القرآن.

ومع هذا الاستعمال الرياضي الإحصائي العجيب للألفاظ فالتعبير القرآني هو في قمة الأدب والفن.

فإنك إذا نظرت إلى أي ضرب من ضروب التعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نبوٌّ ولا اختلاف. فإذا نظرت إلى التوكيد مثلاً وجدته على تباعد مواطنه وتفرقها في القرآن وحدة فنية متكاملة متناسباً في كل موطن

مع السياق الذي ورد فيه منسقاً معه ومنسقاً مع كل المواطن الأخرى التي ورد فيها التوكيد.

فالقرآن قد يؤكد بـ (إنّ) وحدها مثلاً أو قد يؤكد باللام أو يجمع بينهما، ولو أنعمت النظر لوجدت أن كل موضع يقتضي التعبير الذي عبر به فلا يصح أن تزاد اللام في الموضع المنزوع منه ولاتحذف في موطن الذكر أينما وردت في القرآن وكذلك (أنّ) ونحوها.

فهو يقول مثلاً: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بإن وحدها في مواطن عديدة من القرآن.

ويقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾[الرعد] مؤكداً بإن واللام.

ويقول: ﴿والله شديد العقاب﴾ بلا توكيد.

ويقول: ﴿والله غفور رحيم﴾ بلا توكيد في مواضع متعددة تبلغ ثلاثة عشر موضعاً.

ويقول: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ مؤكداً بإن في أكثر من عشرين موضعاً.

ويؤكد بإن واللام في مواضع أخرى متعددة.

ويحذف ويؤكد في تعبيرات أخرى تبلغ المئات وهو يراعي في كل ذلك الدقة في التعبير ووضع كل لفظ في مكانه حسبما يقتضيه السياق بحيث لا يصح وضع تعبير مؤكد في مكان غير مؤكد ولا ما أكد بأكثر من مؤكد في موطن أكد بمؤكد واحد.

وكذا الأمر في غير (إنّ) فهو يقول مثلاً: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾[هود] بلا توكيد.

ويقول مرة أخرى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾[الأعراف] بتوكيد الجواب.

ويقول مرة ثالثة: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾[الأعراف] بتوكيد الجواب وبذكر اللام الموطئة قبل الشرط، كل ذلك حسبما يقتضيه الموطن والسياق، ولا يصح البتة وضع آية من هذه الآيات في غير سياقها وموطنها كما سنبين ذاك.

فلو نظرت إلى التوكيد في القرآن لوجدته لوحة فنية عالية متناسقة على سعة التوكيد واختلاف المؤكدات وتنوعها.

وقُلْ مثل ذلك عن الاستفهام. فهو قد يستفهم مرة بالهمزة ومرة بـ (هل) فهو مرة يقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

ومرة يقول: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج].

ومرة يستفهم بـ(ما) ومرة بـ (ماذا) والقصة واحدة. فيقول مرة في إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء].

ويقول مرة أخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الصافات] وغير ذلك وغيره.

وقُلْ مثل ذلك عن التقديم والتأخير. فهو قد يقدم كلمة في مكان ويؤخرها في مكان. أو يقدم عبارة في مكان ويؤخرها في مكان فهو يقدم (السماء) على (الأرض) مرة، ومرة يقدم (الأرض) على (السماء)، ومرة يقدم (الإنس) على (الجن)، ومرة يقدم (الجن) على (الإنس). ومرة يقدم (الركوع) على (السجود) ومرة يقدم (السجود) على (الركوع) فهو مرة يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج] ومرة أخرى يقول: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران].

ويقول مرة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم].

ويقول مرة أخرى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

وهو قد يذكر كلمة أو عبارة في موطن لايذكرها في موطن آخر يبدو شبيهاً به فهو يقول مثلاً في موطن: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة] ويقول في موطن آخر ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران] فيزيد عبارة (ولا ينظر إليهم). وغير ذلك وغيره.

كل ذلك يضعه وضعاً فنياً في غاية الروعة والجمال.

ثم هو يجمع بين ضروب القول المختلفة ويؤلف بينها في حشد فني عجيب لا يملك العارف بشيء من أسرار التركيب إلا أن يسجد لصاحب هذا الكلام إجلالاً وخشوعاً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[الزمر].

لقد دُرِسَ التعبيرُ القرآني دراساتٍ مستفيضة وأُولِيَ من النظر مالم يَنَلْهُ نصٌّ آخر في الدنيا.

فقد دُرِسَ من حيث تصويره الفني فكان أجمل تصوير وأبرع لوحة فنية[1]. ودرس من حيث نظمه وموسيقاه فكان أروع عقد منظوم وأعذب قطعة فنية موسيقية. وهل يشك أحد في فخامة نظمه وحلاوة موسيقاه وعذوبة جرسه وحسن اختيار ألفاظه وجمال وقع آياته؟!

ودُرِسَ تناسبُ سورهِ سورةً سورة وتناسب آياته آية آية وتناسب فواتح السور وخواتمها، فكان قطعة فنية واحدة محكمة الربط فخمة النسج، وكان كما قال الفخر الرازي: إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض[2] بل هو كالآية الواحدة[3]

ودرس من حيث إعجازه فكانت جوانب إعجازه لا تحصى. أَهُوَ في أسلوبه وتعبيره. أم هو في تشريعه وفقهه، أم في معالجته جوانب الحياة المختلفة على أكمل وجه وأبهى صورة، أم هو في إخباره عن الأمم الماضية والأقوام البائدة[4]. أم هو في إخباره عما سيقع[5]. أم هو فيما قرره من حقائق علمية وكونية يكتشف الناس على مدى الدهر قسماً منها، أم هو فيما وضعه من

---

(1) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.
(2) التفسير الكبير ٣٠/ ٢١٤ وانظر ٣١٩.
(3) التفسير الكبير ٣٢/ ١٠٤.
(4) انظر كتابنا: نبوة محمد من الشك الى اليقين.
(5) انظر المصدر السابق.

قواعد وأصول التربية ومعرفته بأدواء القلوب والنفوس. أم هو فيما ذكره من سنن التاريخ والخلق أو فيما ذكره من أصول علم الاجتماع أو غير ذلك وغيره. أم هو في كل ذلك وأشياء أخرى فوق ذلك؟!

أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟!

عجيب أمر هذا الكتاب!

يراه الأديبُ معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء النفس والمَعْنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخٍ في علمه معجزاً.

لقد كشف لهم وهم يبحثون في وجوه إعجازه عن بحار ليس لها ساحل، وغاصوا في لجج ليس لها قعر، وكُلٌّ عاد بلؤلؤةٍ كريمة أو عقد نظيم وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر لم يَلِجها الوالجون وكنوز لا يطيقها إحصاء، لم تمتد إليها الأيدي، تفنى الدنيا ولا تفنى، ويبلى كل جديد ولا تبلى. فيها من عجائب صنع الله ما لو اطَّلعتَ عليه لم تعرف كيف تصنع ولاسْتَبَدَّ بكَ عجب لا ينتهي وتمكن منك انبهار لا ينقضي. ومفتاح ذلك تدبره والنظر فيه.

فامنحه شيئاً من التدبر والنظر يمنحك من أسراره ما لم يكن منك ببال. إنه يعطيك أضعاف ما تعطيه.

إن هذا الكتاب يمنحُ مَنْ نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من ألطافه ما يجلّ عن الوصف فلا تُضيِّع هذه الصفقة الرابحة وإلا فأنت والله مغبون.

أأدركت الآن سر قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

أمَا أنهم لو تدبروه لفتحت أقفال القلوب ولان ما كان عصيّاً من الأفئدة ، ولأوقدت مصابيح عهدُها بالنور بعيد، وأشرقت دروب لم يسقط عليها فيما مضى نور، ولحييّت نفوس ما عرفت قبل ذلك حياة.

ألم يسمه الله نوراً فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾[النساء].

أولم يسمه الله روحاً فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[الشورى] ؟

فهو روح ونور ــ وهل بعد ذلك شيء ! وهل قبله شيء !

ليت شعري هل يفقه الناس؟

ألا ليت الناس يفقهون.

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال:

١ـ فمن ذلك استعمال الفعل والاسم. فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت[1] تقول: هو يتعلم وهو متعلم. فـ (يتعلم) يدل على الحدوث والتجدد أي: هو آخذٌ في سبيل التعلم بخلاف: (متعلم) فإنه يدل على أن الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها. ومثله: هو يحفظ وهو حافظ. فـ (يحفظ) يدل على الحدوث والتجدد و(حافظ) يدل على ثبات الأمر واستقراره في صاحبه ومثله: هو يجتهد ومجتهد.

وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك: أتراه سيفشل في مهمته؟ فتقول: هو فاشل وذلك لوثوقك بما قررته أي: كأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾[البقرة]. فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت. ومثله قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[هود] فلم يقل: سأغرقهم أو إنهم سيغرقون. ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: كأن الأمر استقر وانتهى. ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ﴿٣١﴾﴾[العنكبوت] ولم يقولوا: سنُهلك. فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي: كأن الأمر انتهى وثبت.

فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار. وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.

---

(١) انظر كتابنا: (معاني الأبنية في العربية) باب: (الاسم والفعل).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾[الأنعام] فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرج).واستعمل الاسم مع الميت فقال: (مخرج) وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ (٩٥)﴾[الأنعام].

وقد تقول: ولماذا قال في سورة آل عمران ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ (٢٧)﴾ بالصيغة الدالّة على التجدد في الموطنين؟

فنقول: إنَّ السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء أو ينزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران].

في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)﴾[الأنعام].

فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مسندها اسماً أيضاً ثم جاء بعده باسمين آخرين هما (مخرج الميت) و (فالق الإصباح) ثم ذكر أنه (يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغير والحركة. فالسياق مختلف ولذا تتوالى الأفعال في هذه الآية. فوضع كل صيغة في المكان اللائق بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾[الأعراف].

«فَفَرَّقَ بين طرفي التسوية فقال: (أدعوتموهم) بالفعل ثم قال: (أم أنتم صامتون) بالاسم ولم يسوِّ بينهما فلم يقل: أدعوتموهم أم صمتّم بالفعلية. أو: أأنتم داعوهم أم صامتون.

وذلك أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له. ولو رأيت إنساناً يكلم نفسه لاتَّهمته في عقله. فالكلام طارىء يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسوِّ بينهما بل جاء للدلالة غلى الحالة الثابتة بالاسم: (صامتون) وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل: (دعوتموهم) أي: أأحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت»[1]. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «إن قيل: هلا قيل: أم صَمَتُّم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حَزَبَهم أمر دعوا الله دون أصنامهم... فكانت حالتهم أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم[2]».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾[الأنعام].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[هود].

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (ليهلك) وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة

---

(١) معاني الأبنية ١١-١٢.
(٢) الكشاف ١/ ٥٩٢.

عمّا كان في الدنيا قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾[الأنعام].

فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يُكلّفوا ولم يأتهم رسل ينذرونهم. فالذين لم ينذروا غافلون قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾[يس]. فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنة الله في الأمم قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[هود].

فهو - كما ترى - في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا. فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك). ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على المضي (ذلك أن لم يكن ربك) لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة الى الآخرة. وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾[هود].

أما ما ختم به كل آية من الآيتين فله مكان آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنفال].

فقد جاء في صدر الآية بالفعل: (ليعذبهم) وجاء بعده بالاسم: (معذبهم) وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول بينهم فإنه ـ أي العذاب ـ موقوت ببقائه بينهم. فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الإسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[القصص] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات. ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارىء عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيء.

فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الاسمية(ظالمون). فانظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه.

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[البقرة].

«فقد فرق بين قولهم للمؤمنين وقولهم لأصحابهم فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث (آمنا)، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام (إنّا معكم) ولم يسوِّ بينهما فلم يقولوا: (إنا مؤمنون) كما قالوا: (إنا معكم) وذلك إمّا لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة... وأما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة

ووفور نشاط وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنّة للتحقيق ومئنة للتوكيد»[1] .

ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[غافر].

فاستعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا فيه) ومع النهار الاسم (مبصراً) ولم يسوّ بينهما فلم يقل: ساكناً ومبصراً ولا لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو: (لتبصروا فيه).

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾[يونس]. ولو قال: «هو الذي جعل لكم الليل ساكناً» لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت (لكم) هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ (لكم) وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا. وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكناً) لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساجٍ، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولَمَّا تقررت دلالة النعمة في صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذاك كسباً فنياً .

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال: ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً. ولو قال: «لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه» لفات التعبير الفني الجميل تعبير المجاز. ولو قال: «ساكناً ومبصراً» لفاتت الدلالة على النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية. ولو قال: «ساكناً ولتبصروا فيه» لفات المجاز في التعبيرين ولكان التعبير سمجاً لا معنى تحته كما أوضحنا قبل قليل.

---

(1) انظر الأبنية ١٢-١٣، والكشاف ١/١٤٢.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فني جميل من أخصر طريق وأيسره. فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى هذا المؤدى. هذا علاوة على ما في جعلِ النهار مبصراً من جمالٍ وزيادة في المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين:

الأول: أننا نبصر فيه كما قيل: ليل نائم والمقصود: نائم أهله.

والمعنى الآخر: أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا بالخير والشر فكأن له عينين تبصران. فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: لِمَ قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال؟ وهَلَّا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟

قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: «لتبصروا فيه» فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي. ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز»[1].

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة (الكافرون) وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

فأنت ترى أن الرسول نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين: الفعلية والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (ولا أنا عابد ما عبدتم) وبالفعلين: المضارع والماضي (تعبدون) و (عبدتم). ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة تين هي الصيغة الاسمية: (ولا أنتم عابدون ما أعبد).

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال. إذ لو اقتصر على الفعلِ لقيل: إن هذا أمر

---

(١) الكشاف ٣/٥٨.

حادث قد يزول. ولو اقتصر على الاسم لقيل: صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحياناً، بل معناه أن هذا وصفه في غالب أحواله، فالحليم قد يغضب ويعاقب، والجواد قد يأتيه وقت لا يجود فيه إذ هو ليس في حالة جُودٍ مستمر لا ينقطع، والرحيم قد يأتيه وقت يغضب فلا يرحم. ولئلا يُظن ذاك في الرسول أعلن براءته من معبوداتهم بالصيغتين الفعلية والاسمية: الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات ليعلم براءته منها في كل حالة. ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط. فإصراره هو على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم والنفي عنه أدوم و أبقى من النفي عنهم.

ثم انظر كيف أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلاً: (قل يا أيها الكافرون) نفى عنهم العبادة الحقة بالصورة الاسمية أيضاً فقال: (ولا أنتم عابدون ما أعبد). فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً. وهو تناظر جميل. ومن جميل استعمال القرآن للفعل والاسم أنه يستعملهما استعمالاً مناسباً مع وقوع الحدث في الحياة فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد استعمله بالصورة الفعلية وإذا لم يكن كذلك استعمله بالصورة الاسمية.

فمن ذلك مثلاً استعمال القرآن للفعل (ينفق) فإنه يستعمله بالصيغة الفعلية لأن الإنفاق أمر يتكرر ويحدث باستمرار قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾[البقرة] فاستعمل الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث لأن الإنفاق أمر يتجدد. ونحوه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ﴿٣٨﴾ ﴾[النساء].

ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ

﴿بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[آل عمران] وهو في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾[السجدة]. وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[طه] وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الروم]. وغيرها وغيرها.

كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴿١٠٩﴾﴾[الأنعام] فجاء به بالصيغة الفعلية لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴿١٣﴾﴾[البقرة] وغير ذلك وغيره. جاء في (البرهان): «ومن هذا يعرف لم قيل: (الذين ينفقون) ولمَ يقل: (المنفقين) في غير موضع؟

وقيل كثيراً: المؤمنون والمتقون، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والضلال والعمى والبصر فمعناها أو معنى وصف الجارحة؛ كل هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين إلا أن لكل محل ما يليق به. فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال. وحيث يراد الاتصاف بها فالأسماء»[1].

ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الإنفاق قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿٧﴾﴾[غافر].

---

(١) البرهان ٤/٦٧.

وقال : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۝ ﴾ [الشورى].

ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة هي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧ ﴾[آل عمران] أي أصحاب هذه الصفات.

ومثل ذلك التسبيح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦ ﴾[الأعراف]. و ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۝١ ﴾[الجمعة] .

ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين : إحداهما: في وصف نبي الله يونس عليه السلام قال: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ ﴾[الصافات]. بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت. فنجا لأنه كان من أصحاب هذا الوصف. والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلّص من الكروب والمكاره، وأن يونس إنما نجا من هذه الشدة بمداومة التسبيح.

والثانية: في صفة الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ ﴾ [الصافات] أي هذه صفتهم الثابتة. وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾[الأنبياء] إذن فالتسبيح وصف ثابت فيهم.

«وانظر هنا الى لطيفة وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الاتصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٧ ﴾[إبراهيم] وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۝٥٤ ﴾[الحج] ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ﴾[الرعد].

ومنه قوله تعالى: ﴿ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ ﴾ [الأعرف] لأن البصر صفة لازمة للمتّقي، وعين الشيطان ربما حجبت فإذا تذكر

رأى المذكور ولو قيل: (يبصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عَود صفة»[1].

ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا أمر طارىء يفعله من يستحقه ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[غافر] وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[غافر] وقال: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[البقرة].

في حين وصف الشيطان بذاك فقال: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[القصص] فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال: ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾[الحج] وقال الشيطان عن نفسه: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴿١١٩﴾ ﴾[النساء] .

فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العليّة الثابت والمتجدد الهداية فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴿٥٤﴾ ﴾[الحج].

وقال: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[الفرقان] وقال: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴿١٦﴾ ﴾[المائدة] وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس] فشتان ما بين الوصفين.

ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الذاريات] .

«ففرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثاني بالرفع ولم يسوِّ بينهما، وذلك لأن قوله: (سلاماً) بالنصب تقديره: نُسَلِّمُ سلاماً أي بتقدير فعل. وقوله: (سلام) تقديره: (سلام عليكم) أي: بتقدير اسمية الجملة. والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حيا الملائكة

---

(1) البرهان ٤/٦٨.

بخير من تحيتهم»[1]. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾[النساء] فرد التحية بخير منها.

وجاء في «التفسير الكبير» أن « إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار»[2].

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] فجاء بالصبر مرفوعاً أي: بتقدير الجملة الإسمية لأنه وَطَّنَ نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل: (فصبراً) بالنصب بتقدير الفعل أي: لأصبر صبراً، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت. فثمة فرق بين الاستعمالين والمعنيين.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴿٢٢٩﴾ ﴾[البقرة] فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع، وذلك لأنها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، إمّا الإمساك بالمعروف أو التسريح الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأن النصب موقوت. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴿٤﴾ ﴾[محمد] كيف جاء بـ (ضرب) منصوباً وذلك على تقدير الفعل أي: فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائماً.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾[الهمزة] فانظر كيف قال: (ويل) بالرفع ولم يقل: (ويلاً) بالنصب وذلك لأنه بالرفع جملة إسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به. ولو قال: (ويلاً) بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم. ثم انظر كيف قال

---

(١) معاني الأبنية ١٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٨/٢١٢ وانظر الكشاف ١/٣٨-٣٩، ٣/١٦٩، بدائع الفوائد ٢/١٥٧.

في آخر السورة: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ فأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تنفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل.

فانظر هذا التناسق الجميل في التعبير والمعنى بين المفتتح والختام. وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء فإن الاستقصاء يطول.

٢ ـ وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعلٍ آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾[المزمل] فإنه جاء بالفعل (تبتّل) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتّل) وذلك أن مصدر تبتل هو (التبتُّل) فإن مصدر (تفعّل) يكون على (التَّفَعُّل) كتعلّم تعلُّماً وتقدّم تقدّماً. وأما (التبتيل) فهو مصدر بَتَّلَ لا تَبَتّل فإن (التفعيل) هو مصدر (فعّل) كعلّم تعليماً وعظّم تعظيماً. وكان المتوقَّع أن يقول (وتبتل إليه تبتلاً) غير أنه لم يقل ذاك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين مَعْنَيي التبتل والتبتيل، وذلك أن تبتّل على وزن تفعّل و (تَفَعَّلَ): يفيد التدرج والتكلف مثل: تجسس وتحسس وتبصّر وتدرّج وتمشّى وَغَيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرّجاً وتكلفاً. ألا ترى أنّ في (تبصّر) من التدرج وإعادة النظر والتكلّف ما ليس في (بصر)، وفي (تمشّى) من التدرج ماليس في (مشى)؟

وأما (فعّل) فيفيد التكثير والمبالغة وذلك نحو: كسر وكسّر، فإن في كسّر المضاعف من المبالغة والتكثير ماليس في كَسَرَ الثلاثي فقولك: (كسّرت القلم) يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كَسَرْتُ القَلَمَ) فإنه يفيد أنك كسرته مرة واحدة. وكذلك قولك: (قطّعت اللحم) فإنه يفيد أنك جَعلته قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت: (قطعت اللحم) بلا تضعيف فإنه يفيد أنك قطعته مرة واحدة. وتقول: (موّتت الإبل) إذا كثر فيها الموت ولا يقال:

(موّت البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير. فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل (تبتّل) فقال: (وتبتل إليه تبتُّلاً) لم يفد غير التدرج وكذلك لو قال (وبتّل نفسك إليه تبتيلا) لم يفد غير التكثير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول: (وتبتَّلْ إليه تَبَتُّلاً وبَتِّلْ نفسَكَ إليه تبتيلاً) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف جليل.

جاء في (التفسير القيم) : «ومصدر تبتل إليه: (تبتُّل) كالتعلُّم والتفهم ولكن جاء على (التفعيل) مصدر (فعّل) لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعلّم والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل : بتّل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتل إليه تبتُّلاً، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره.

وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز»[1].

وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع الى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج في العبادة وانته بالكثرة. وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له. فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً .

---

(١) التفسير القيم ٥٠١-٥٠٢.

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجيباً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد فقال: (وتبتل) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[النساء] والقياس أن يقول: (أن يُضلهم إضلالاً بعيداً) ؛ لأن مصدر (أضلّ): الإضلال أما الضلال فهو مصدر ضلّ، قال تعالى ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[النساء] والمعنى أن يُضلهم فيَضلّوا ضلالاً بعيداً، وقد جمع المعنيين: الإضلال والضلال في آن واحد.

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضلهم ثم يريد بعد ذلك أن يَضلّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتمّونها. فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو»[1].

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين. والمعنيان مرادان والله أعلم.

وقد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة، فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾[ق] .

---

(١) معاني النحو ٢/ ٥٨٩.

وقوله: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢﴾[هود].

وقوله في مكان آخر: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾[صٓ].

فأنت ترى أنه قال في سورة قٓ: (هذا شيء عجيب) وفي هود: (إنّ هذا لشيء عجيب) وفي سورة صٓ: (إنّ هذا لشيء عجاب) فعدل من عجيب إلى عجاب، وذلك أنه تدرج في العجب بحسب قوته ففي آية (ق) ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذر منهم فقالوا: (هذا شيء عجيب).

وفي سورة هود كان العجب أكبر لأنه من خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم (انظر سورة الذاريات ٢٩) وبعلها شيخ إذ كل ذلك يدعو الى الغرابة والعجب فالعجوز لا تلد، فإذا كانت عقيماً كانت عن الولادة أبعد إذ يستحيل على العقيم أن تلد. فإذا اجتمع إلى كل ذلك أن بعلها شيخ كان أبعد وأبعد ولذا أكد العجب بأنّ واللام فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢﴾[هود] بخلاف سورة (ق) فإنه لم يؤكد العجب.

وأما في سورة (ص) فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحدانية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه؟ بل إن الإسلام جاء أول ما جاء ليردعهم عن الشرك ويردهم إلى التوحيد، وحسبك أن كلمة الإسلام الأولى هي: (لا إله إلا الله) وقد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلنوا الحرب الطويلة على أن يقروا بهذه الكلمة، فالقتل أيسر عندهم من النطق بكلمة التوحيد، ولذا كان العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بأن واللام وعدل من (عَجِيب) الى (عُجَاب) وذلك أن (فُعَالاً) أبلغ من (فَعِيل) عند العرب فـ (طُوال) أبلغ من (طويل) فإذا قلت: (هو رجل طويل) فهو الطول يكون مثله، فإذا زاد عن المعتاد قلت: هو طُوال ونحوه: كريم وكُرام، وشجيع وشُجاع.

فانظر كيف عدل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام، وانظر كيف يراعي دقة التعبير في كل موضع، وكيف يلحظ كل كلمة ويضعها في المكان المناسب على تباعد الأمكنة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[الأنعام].

وقوله في مكان آخر على لسانه أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الزخرف].

فانظر كيف عدل من (بريء) إلى (براء) من الصفة المُشَبّهة إلى المصدر «وأنت ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربه على وجه التحقيق، فقد ظن أن الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك.

أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلاً من ربه أعلن حربه على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين»[1].

ولذا قال في الآية الأولى: (بريء) وفي الثانية: (براء) وذلك أن (براء) أقوى من بريء فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك: (هو رجل عدل) أبلغ من قولك (هو رجل عادل) وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي: لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه. وقولك: (هو رجلٌ سوءٌ) أبلغ من قولك: (هو رجل سيّء) فمعنى رجل سيِّء أنه اتصف بالسوء ومعنى (رجل سوء) أنه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء، ومثله قوله تعالى في ابن نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود] ولم يقل إنّه عامل غير صالح، والمعنى أن ابنك تحوّل الى عمل غير صالح ولم يبق فيه من عنصر الذات شيء، أي: تحول إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسّد لكان ابنك. فالبراءة في آية الزخرف أشد.

ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون ـ أعني نون الوقاية ـ في آية الزخرف زيادة في التوكيد فقال: (إنني براء) ولم يأت بها في آية الأنعام بل قال: (إني بريء) وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد[2].

---

(١) معاني النحو. ١/٣٨٨.

(٢) انظر معاني النحو. ١/٣٨٨.

فانظر كيف أكد براءته في آية الأنعام بالنون وبتحويل الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر في آيات العجب السابقة. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أن القرآن كاللوحة الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كل جزئية من جزئياتها واعتني بكل لمسة من لمساتها، وصدق الإمام الرازي إذ قال: القرآن كالسورة الواحدة بل كالآية الواحدة.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى: (الرحمن الرحيم) فإنّ (الرحمن) على وزن فَعْلان و (الرحيم) على وزن فعيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو: عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في: عطشان، ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول وكذلك جوعان وغضبان، بخلاف: (فعيل) فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو: كريم وبخيل وطويل وجميل فإن هذه صفات ثابتة فليس (طويل) مثل: (عطشان) في الوصف ولا (قبيح) مثل (جوعان). «ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة تقول: (هو ضعفان) إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت قلت: (هو ضعيف)، وكذلك سمنان وسمين: ألا ترى أنك تقول لصاحبك: أنت ضعفان، فيرد عليك: أنا منذ نشأتي ضعيف. وتقول له: أراك طولان. فيقول: أنا طويل منذ الصغر.

وهذا من أبرز ما يميز صيغة (فعلان) عن (فعيل)... فإن صيغة (فعلان) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فعيل) تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين. إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على (رحيم) لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به

الوهم بأن رحمته تعرض ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه ـ فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه»[1].

ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾[البقرة].

وقوله﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴿٤٣﴾ ﴾[يوسف].

فأنت ترى أن العدد في الآيتين واحد هو سبع، ولكن استعمل معه: (سنبلات) مرة ومرة أخرى: (سنابل) وسر ذلك أن سنابل جمع كثرة وسنبلات جمع قلة، وقد سيقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور فجيء بها على (سنابل) لبيان التكثير.

وأما قوله: (سبع سنبلات) فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولامقتضى للتكثير[2]. فجاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.

ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾[النحل].

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان].

فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعُم) وجمعها في لقمان جمع كثرة (نِعمَه) وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطيق الانسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال: إنه شاكر لأنعمه،

---

(١) معاني الأبنية ٩١ - ٩٢.

(٢) التفسير القيم ١٥٤ - ١٥٥، البرهان ٤/٢٢.

ولم يقل: لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴿١٨﴾﴾[النحل]. وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴿٢٠﴾﴾[لقمان]. فذكرها بزنة جمع الكثرة.

وقد ذكرت في كتابي «معاني الأبنية في العربية» أمثلة أخرى لاستعمال صيغ الجموع المختلفة. وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين يبدوان متشابهين فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴿٨٠﴾﴾[البقرة].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴿٢٤﴾﴾[آل عمران].

فقال مرة: (معدودة) ومرة أخرى: (معدودات) مع أن القصة واحدة.

والحقيقة أن السياق في الموضعين مختلف. وإيضاح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دل على أن الموصوف أكثر منه، إذا كانت صفته جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقة) دل ذلك على أن عندكم جبالاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقات) فإنه يدل على القلة. والأنهار في قولك: (أنهار جارية) أكثر منها في: (أنهار جاريات) وعلى هذا فالأيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.

أما الأولى فالكلام فيها على بني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة فذكر أنهم يُحَرِّفُونَ كلام الله وهم يعلمون. قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾[البقرة].

فهم يعرفون جُرْمهم ويُقرُّون به ويعملون به عن قصد وإصرار وقد تَوعَّدهم الله بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[البقرة].

إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشتروا به ثمناً قليلاً. وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: (إلا أياماً معدودة) فجاء بصيغة الكثرة.

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران فقد قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرقٌ كبير بين المقامين. فجاء بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال: (معدودات) بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴿٤﴾﴾[الأنبياء]. وقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴿٦﴾﴾[الفرقان].

فقال في آية الأنبياء: (السماء) وفي آية الفرقان: (السماوات) وسبب ذلك أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول: قلت في نفسي كذا وكذا؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾[المجادلة].

جاء في (الكشاف) أن «القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نحو أهم»[1] .

والسماء هنا أعم من السماوات وذلك أن (السماء) في القرآن تستعمل على معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٢١ وانظر تفسير البيضاوي ٤٢٦.

ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴿٥﴾ ﴾[المُلك] وقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجر].

وإما أن تكون لكل ما عَلاكَ فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره قال تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾[نوح] والسماء هنا بمعنى المطر.

وقال: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴿١٧﴾ ﴾[الرعد] والسماء هنا بمعنى السحاب.

وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[الأنعام] والسماء هنا بمعنى الجو.

والمعنى أن الضالَّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في الجو لأن المرتَفِعَ في الجو يضيقُ صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم. وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العلمية قبل اختراع المنطادات والطائرات بِدُهور.

وقال: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾[الحج].

والسماء هنا بمعنى السقف، أي: مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ثم ليخنق نفسه به لأن محمداً منتصرٌ لا محالة. وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك.

ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماواتِ وغيرها مما علا وارتفع. فجاء به (القول) الذي هو أعم من (السر) مع السماء التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع العام والخاص مع الخاص.

ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[آل عمران].

وقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾[الحديد].

فلما جاء بالسماوات قال: (عرضها السماوات والأرض)، ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال: (عرضها كعرض السماء والأرض) فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.

ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كُلٍّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال: (أعدت للمتقين) وفي آية السماء قال: (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة (كعرض السماء) وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قبلهم وهم المتقون بلفظ: (السماوات) التي هي أقل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد.

ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾[الحديد]. وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسَّعَ دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال: (سابقوا) وفي الآية الأخرى قال: (سارعوا) وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المُسَارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر (السماء) وهي تشمل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة. وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة. فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجلّت حكمة الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء].

فقال في أصحاب الجنة: (خالدين فيها) بالجمع وفي أصحاب النار: (خالداً فيها) بالإفراد وقالوا: إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المستلزم لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تُطاق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار، والوحدة جاء في (حاشية يس على التصريح) في هاتين الآيتين: «ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الإفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره المولى أبو السعود.

وقيل: إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال: (يدخله) والضمير المنصوب في (يدخله) وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء (خالدين) لرفع هذا الإبهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً.

أما الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في (خالداً)[1].

ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأعراف].

وقوله في قصة شعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾[الأعراف].

فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال: (رسالات) قالوا: وذلك أن شعيباً بُعث إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وصالحاً بعث إلى أمة واحدة، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف].

(١) حاشية يس على التصريح ١/ ١٤٠.

وقـال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الشعراء].

ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال: (أخوهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل: (أخوهم). قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الأعراف، هود ٨٤، المؤمنون٣٦].

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيه: (أخوهم) إلا أصحاب الأيكة.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[الشعراء].

وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[الشعراء].

وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾[الشعراء].

ثم قال بعد ذلك: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[الشعراء].

فانظر كيف قال: (أخوهم) مع الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم ولم يقل ذلك فيمن أرسل إلى غير قومه.

فشعيب أرسل إلى أمتين ولذلك جمع الرسالة فقال: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴿٩٣﴾ ﴾[الأعراف]. وقال صالح: ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴿٧٩﴾ ﴾[الأعراف].

ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح.

قال تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الشعراء].

وقال على لسان شعيب: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[الشعراء].

فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[الأعراف].

وقوله: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[هود].

وقوله: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[هود].

فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة، وحّد الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وحّد مع الرجفة وجمع مع الصيحة[١].

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴿٤٢﴾ ﴾[يونس].

وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴿٤٣﴾ ﴾[يونس].

فقال: (يستمعون) بلفظ الجمع وقال بعده: (ينظر) بلفظ المفرد وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائين على وجه العموم، ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ (من) يحتمل الجمع والمفرد. وذكر الكرماني أنما فرّق بينهما « لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة، فجمع ليطابق اللفظ المعنى.

---

(١) انظر البرهان للكرماني ١٨٤، ٢٣٩.

ووحّد (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم»[1].

وربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوحّد النظر لأن رؤيته ﷺ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائين. وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لآخر. فالكلام تختلف مواقعه من مستمع لآخر، ولذلك وحّد الرائين لأنهم يرون شيئاً واحداً وجمع المستمعين لأن أثر ذلك مختلف عندهم.

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ ﴾[الشعراء] فجمع الشافع ووحد الصديق: « فإن قلت: لِمَ جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق»[2] « ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء»[3] وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أندر.

وقريب من ذا قوله تعالى﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾[الحج].

فجمع أولاً فقال: (ترونها) ثم وَحّد فقال: (وترى الناس) جاء في (الكشاف): « فإن قلت: لِمَ قيل أولاً: (ترون)، ثم قيل: (ترى) على الإفراد؟

قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها. وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم»[4] وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

---

(١) البرهان ٢٢٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٣٠.
(٣) تفسير البيضاوي ٤٩١.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٤١.

التقديم والتأخير

يمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير على قسمين:

الأول : تقديم اللفظ على عامله نحو: (خالداً أعطيت) و: (بمحمد اقتديت).

الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ ١٧٣﴾[البقرة] وقوله : ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ٣﴾[المائدة] ومثل: (أعرت خالداً كتابي) و: (أعرت كتابي خالداً).

١ـ تقديم اللفظ على عامله

ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك. وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص فقولك: (أنجدت خالداً) يفيد أنك أنجدت خالداً ولا يفيد أنك خصصت خالداً بالنجدة بل يجوز أنك أنجدت غيره أو لم تنجد أحداً معه. فإذا قلت: (خالداً أنجدت) أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنك لم تنجد أحداً آخر.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾[الفاتحة] فقد قدم المفعول به (إياك) على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال في الأولين؛ وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾[الزمر] وقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾[البقرة] فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا﴾[الأعراف] وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[هود] فقدم الجار والمجرور للدلالة على

الاختصاص وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يقدم مفعول الهداية على فعله فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال: (إياك نعبد) وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن تقول: اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً غيري أو خصّني بالهداية من دون الناس. وهو كما تقول: اللهم ارزقني واشفني وعافني. فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه.

ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴿٢٩﴾ ﴾[المُلك] فقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وأخر (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) وذلك أن «الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه»[1].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الشورى] «لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره. ونحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾»[2][الغاشية]. فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾[الرعد] وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾[القيامة] فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب

---

(١) البرهان ٢/ ٤١٢ وانظر التفسير الكبير ٣٠/ ٧٦.

(٢) الطراز ٢/ ٧٠-٧١.

بعضهم[1] بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۝٤﴾[يونس] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۝١٢٣﴾[هود] وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۝٩٣﴾[الأنبياء] وغير ذلك من الآيات.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۝٤٧﴾[فصلت] فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ۝٣٤﴾[لقمان] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۝٥٩﴾[الأنعام] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتح الغَيْب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغَيْب ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال: (لا يعلمها إلاّ هو)؟

وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أن يفيد الاختصاص. ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۝٨٤﴾[الأنعام] فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء. ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾[الضحى] إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

٢ـ تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والعناية باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة

---

(١) انظر الطراز ٢/ ٧١.

معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال. ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك. والقرآن أعلى مثل في ذلك فإنا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام. فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء، ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير.

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبيين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.

فإذا قيل لك مثلاً : لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟

قلت: لأن الاهتمام بالسماء أكبر.

ثم إذا قيل لك : ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟

قلت : لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر.

فإذا قيل لك : ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين الموطنين، بحيث تُبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديمُ السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً. وكذلك بقية المواطن الأخرى. أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام. والاكتفاءُ بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذ كل واحد يقول لك: إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن ـ كما في غيره ـ الذروة في وضع الكلمات الوضعَ الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة. وسنوضح هذا القول المجمل ببيان شاف.

إن القرآن ـ كما ذكرت ـ يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام ـ مثلاً ـ متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات] فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[الحجر] فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾﴾[البقرة] لأن السِّنة وهي النعاس تسبق النوم[١] فبدأ بالسنة ثم النوم.

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود[٢] قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴿٣٨﴾﴾[العنكبوت] فإن عاداً أسبق من ثمود.

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ـ باب العطف.
(٢) الإتقان ٢/ ١٥.

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور[1] قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۝٣٣﴾[الأنبياء] فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة وقدم الشمس على القمرلأنها قبله في الوجود. وقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٤٤﴾[النور] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۝١﴾[الأنعام] وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا: ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحرر] قالوا: لأنه عز فحكم[2].

ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعزّ أي غلب فالقوة أول قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج ٤٠، ٧٤] وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾ [الأحزاب].

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف، منه تقديم الله سبحانه في الذكر[3] كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾[النساء].

فقدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدَهم بحسب تفاضلهم. كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصدّيقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فهو تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل. ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلَّ صنفهم.

(١) الإتقان ٢/ ١٥.
(٢) الإتقان ٢/ ١٤.
(٣) الإتقان ٢/ ١٤.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾[الأحزاب] فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم[١] .

وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[الشورى، وانظر غافر ٢٠] وقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[الإسراء، غافر ٥٦].

وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان]

فقدم السمع على البصر.

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] .

فقدم الصُمّ وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر. قالوا: لأن السمع أفضل[٢]. قالوا: والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أصم، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمي لفقد ولده.

والظاهر أن السَمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

ويمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى، ولذا حين قال موسى في فرعون: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[طه] قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[طه]

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٣١.

(٢) انظر البرهان ٣/ ٢٥٤.

فقدم السمع لأنه يوحي بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يندّ عن سمعه شيء.

وقد يكون التقديم بحسب الرتبة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾[القلم] «فإن الهمّاز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النميمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص[1]».

فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله: (أثيم) وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً. جاء في (بدائع الفوائد): «وأما تقدم (هماز) على (مشاء بنميم) فالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان. والهماز هو العياب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميم. وأما تقدم (مناع للخير) على (معتد) فبالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره»[2].

وجعلوا منه تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾[البقرة] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾[الأنفال] وذلك أنه «خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخفيّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم وإن كان علمه تعالىمتعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن. ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم»[3].

ويمكن أن يُقال: إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه.

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٢.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٦٢.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ٧٤، البرهان ٣/ ٢٤٩.

وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[البقرة] في آيات كثيرة وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾[النساء] قالوا: وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن « المغفرةسلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[سبأ] فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً. والعموم قبل الخصوص بالرتبة»[1].

وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم. وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم.

ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكنز الذهب والفضة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴿٣٥﴾﴾[التوبة] فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهور « قيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازورّوا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم»[2]. فتدرج بحسب الرتبة.

وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[البقرة] فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتدرّج من القلة إلى الكثرة. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلاّ حول الكعبة. والعكوف يكون في المساجد عموماً. والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلاّ في المساجد. والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم أن كل راكع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر. فهو هنا تدرّج من القلة إلى الكثرة[3] .

---

(١) البرهان ٣/٢٤٩، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) الكشاف ٢/٣٨.

(٣) انظر بدائع الفوائد ١/ ٦٥ والبرهان ٣/ ٢٥٠ وانظر معاني النحو ـ باب العطف.

ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام. قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة] فالطائفون هم ألصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً، ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾[الحج] فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير.

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[آل عمران] فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ،ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع وهو أقل وأخص[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴿٢﴾﴾[التغابن] فبدأ بالكفار لأنهم أكثر(*) قال تعالى :﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

---

(١) بدائع الفوائد ١/٨.

(*) أو هو إشارة إلى أنه سيبدأ بذكر الكافرين ثم بذكر المؤمنين بعدهم فقد قال بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾

ثم قال بعد ذلك﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴿٩﴾﴾.

فقدم الكلام على الكافرين ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً. ولا يناقض هذا ما ذكرناه في تعليل التقديم ولا يخالفه من أن التقديم ههنا إنما جرى بحسب الكثرة والقلة إذ ربما كان أكثر من ملحظ للتقديم والتأخير. فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم. وهو تعاضد فني رفيع.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ (٣٢)﴾[فاطر] فقدم الظالم لكثرته ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله ثم السابقين وهم أقل[1]. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: ((فإن قلت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثر الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالاضافة إليهم والسابقون أقل من القليل))[2] .

ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤)﴾ [الواقعة] إشارة إلى ندرتهم وقلة وجودهم؟

قالوا: ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا (٣٨)﴾[المائدة] قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر. وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ (٢)﴾[النور] لأن الزنى فيهن أكثر[3] .

ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على «الكشاف» قوله: « وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام[4]، « ولأن مفسدته تتحقق بالاضافة إليها»[5].

وقد يكون التقديم لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في موضع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضي السياق.

فمن ذلك تقديم لفظ (الضرر) على (النفع) وبالعكس قالوا: إنه حيث تقدم النفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا

---

(١) انظر الاتقان ٢/ ١٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٨.

(٣) الاتقان ٢/ ١٥.

(٤) حاشية ابن المنير ٢/ ٣٧٣-٣٧٤.

(٥) تفسير البيضاوي ٤٦٢.

ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ ﴿١٨٨﴾﴾[الأعراف] فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾[الأعراف] فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك قال: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴿١٨٨﴾﴾[الأعراف] فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴿٤٩﴾﴾[يونس] فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴿١١﴾﴾[يونس] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴿١٢﴾﴾[يونس].

فقدم الضر على النفع في الآيتين. ويأتي بعد هذه الآية قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[يونس) فكان المناسب تقديم الضرر على النفع ههنا.

وقال: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿١٦﴾﴾[الرعد]. فقدَّم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿١٥﴾﴾[الرعد] فقدم الطوع على الكره.

وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿٤٢﴾﴾[سبأ] فقدم النفع على الضر، قالوا: وذلك لتقدم قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴿٣٩﴾﴾[سبأ] فقدم البسط.

وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظتين[1].

ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب. فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾[المائدة] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾[فُصّلت] وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴿٣﴾﴾[غافر].

---

(١) انظر البرهان ١/ ١٢٢، البرهان للكرماني ١٩٧ وما بعدها، ٣٤٩ درة التنزيل ٢٠٩.

وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي».

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً. من ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾ لأنها وردت في سياق ذكر قطاع الطرق والمحاربين والسراق فكان المناسب تقديم ذكر العذاب وذلك أنها وردت بعد قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ (٣٢) ﴾ [المائدة] فقدم القتل على الإحياء، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) ﴾[المائدة] ثم جاء بعدها: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾[المائدة]. ثم جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾[المائدة].

فأنت ترى أن المناسب ههنا تقديم العذاب على المغفرة. جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ إلى قوله ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾

« فإن قلت: لم قدم التعذيب عن المغفرة؟

قلت: لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة»(١).

ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾ وذلك لأنها في سياق إنذار إبراهيم لقومه ومخاطبة نمرود

---

(١) الكشاف ١/ ٤٦٠ وانظر ملاك التأويل ١/ ١٣٨ وما بعدها، ١/ ٢٥٢ وما بعدها.

وأصحابه وأن العذاب وقع بهم في الدنيا[1]. فقد أنذر إبراهيم قومه قائلاً: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت] ثم قال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾[العنكبوت] وهددهم بعد بقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[العنكبوت] فأنت ترى أن السياق يقتضي تقديم العذاب هنا.

وقد يكون التقديم والتأخير على نمط آخر غير الذي ذكرت من تقديم الضرر والنفع والعذاب والمغفرة وغيرها من الخطوط العامة. فقد يقدم لفظة في مكان ويؤخرها في مكان آخر حسبما يقتضيه السياق.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾[الأنبياء] .

وقوله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[نوح] فقدم الفجاج على السبل في الآية الأولى، وأخرها عنها في آية نوح وذلك أن الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك، بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكرٌ للجبال فأخرها.

فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[آل عمران] فقدم القتل على الموت في الآية الأولى، وقدم الموت في الآية التي تليها وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما ذكر في الآية الأولى (في سبيل الله) وهو الجهاد قدم القتل إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله: (لمغفرة من الله ورحمة) فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله.

---

(١) انظر البرهان ٤/٦٣-٦٤، البرهان للكرماني ١١١، ٣٧٠.

ولما لم يقل في الثانية: (في سبيل الله) قدم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله: (لإلى الله تحشرون) إذ الميت والمقتول كلاهما يحشرُهُ الله إليه. فشتان مابين الخاتمتين. فلم يزد في غير الشهيد ومن مات في سبيل الله على أن يقول: (لإلى الله تحشرون) وقال في خاتمة الشهيد: (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق.

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[السجدة] فقدم الأنعام على الناس.

وقال في مكان آخر: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[عبس] فقدم الناس على الأنعام وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام، بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾[عبس] إلى أن يقول: ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[عبس][1] الا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأبّ أي: التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثمَّ. فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿١٥١﴾ ﴾[الأنعام] .

وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء] فقدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأوجبت البلاغةُ تقديمَ عِدَتِهم بالرزق تكميل العِدَةِ برزق الأولاد.

---

(١) الإتقان ٢/ ١٤.

وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر[1]. فقال: لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم، أي أن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية] فقدم القلوب على السمع في البقرة، وقدم السمع على القلب في الجاثية وذلك لأنه في البقرة ذكر القلوب المريضة فقال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴿١٠﴾ ﴾[البقرة] فقدم القلوب لذلك.

وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ ﴿٨﴾ ﴾[الجاثية] فقدم السمع. فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها.

ثم إن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً ممن ذكرتهم آية الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[البقرة].

وجاء في الجاثية قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الجاثية] فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميؤوس من إيمانهم. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.

ثم كرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم فقال: ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ ﴿٧﴾ ﴾. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية،

---

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ٢٦٠-٢٦١، تحرير التحبير ٥٦١.

بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال: (وختم على سمعه وقلبه).

ثم قال في البقرة: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۝٧﴾ بالجملة الإسمية، والجملة الإسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخلقتهم فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام.

في حين قال في الجاثية: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ۝٢٣﴾ بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث. ومعلوم أن (جعل) فعل ماض، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۝٢٣﴾ مما يدل على أنه كان مبصراً قبل تردّيه. ثم ختم آية البقرة بقوله: ﴿وله عذاب عظيم﴾ ولم يقل مثل ذلك في الجاثية. فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم.

ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والضلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾[الحج].

وقال ﷺ : «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

فكان تقديم القلب في البقرة أولى وأنسب، كما أن تقديم السمع في الجاثية أنسب. ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾[النمل].

وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾[المؤمنون].

فقدم (هذا) في الآية الأولى وأخرها في آية (المؤمنون) وذلك « أن ما قبل الأولى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧﴾[النحل]، وما قبل الثانية: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾[المؤمنون] فالجهة المنظور فيها هناك كونهم أنفسهم وآباؤهم تراباً. والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً. ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد

البعث»[1] ذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد وذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم. وأما في الآية الثانية فالبلى أقل وذلك أنهم تراب وعظام فلم يصبهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدم (هذا) في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتبعيد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾[غافر].

فأنت ترى أنه قدم في آية الأنعام: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأخر: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفي غافر جاء بالعكس. وذلك أنه في سياق الإنكار على الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص ونفي الصاحبة والولد قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام].

فأنت ترى أن الكلام على التوحيد ونفي الشرك والشركاء والصاحبة والولد ولذا قدم كلمة التوحيد: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو المناسب للمقام.

ثم انظر كيف قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ فأخر الخلق بعد التوحيد، وهو نظير تأخيره بعد قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو تناظر جميل.

أما في (غافر) فليس السياق كذلك وإنما هو في سياق الخلق وتعداد النعم قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[غافر] إلى أن يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾﴾[غافر] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(1) الإيضاح ١١٦.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢﴾[غافر].

فالكلام كما ترى على الخلق وعلى نعم الله وفضله على الناس لا على التوحيد فقدم الخلق لذلك فوضع كل تعبير في موطنه اللائق حسب السياق.

جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه السورة. وفي المؤمن ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات، فدمغ قول قائله بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. وفي (المؤمن) قبله ذكر الخلق وهو ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ۝٥٧﴾ فخرج الكلام على إثبات خلق الناس لا على نفي الشريك فقدم في كل سورة ما يقتضيه قبله من الآيات»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۝٧٢﴾[الأنفال].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾[التوبة].

فقدم الأموال والأنفس على (في سبيل الله) في سورة الأنفال. وقدم (في سبيل الله) على الأموال والأنفس في سورة التوبة، وذلك لأنه في سورة الأنفال تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ۝٦٧﴾[الأنفال] وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال] أي: من الفداء، وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۝٦٩﴾[الأنفال] وغير ذلك فقدم المال ههنا، لأن المال كان مطلوباً لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتضحية به.

وأما في سورة التوبة فقد تقدم ذكر الجهاد في سبيل الله من مثل قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

---

(١) البرهان ١٦١-١٦٢، درة التنزيل ١٢٧، ملاك التأويل ٣٤١/١.

﴿مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾[التوبة] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[التوبة].

وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ﴿١٩﴾﴾[التوبة][1].

فقدم ذكر: (في سبيل الله) على الأموال والأنفس وهو المناسب ههنا للجهاد كما قدم الأموال والأنفس هناك لأنه المناسب للأموال.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴿١٤﴾﴾[النحل].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴿١٢﴾﴾[فاطر].

قدم (مواخر) على الجار والمجرور في النحل وقدم (فيه) على (مواخر) في فاطر. وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لتركبها وزينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾[النحل].

قدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل. وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾[فاطر] ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[فاطر].

فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المخر فقال: (وترى الفلك فيه مواخر).

---

(١) انظر البرهان للكرماني ٢٠٣، درة التنزيل ١٨٩-١٩٠.

فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك، ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾[الإسراء].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾[الكهف].

قدم (للناس) على (في هذا القرآن) في الإسراء وأخرها في (الكهف) وذلك لأنه تقدم الكلام في (الإسراء) على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به فقال: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء].

إلى أن يقول:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء].

فناسب ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء.

ولم يتقدم مثل ذلك في الكهف.

ثم انظر في افتتاح كل من السورتين فقد بدأ سورة الكهف بقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴿٢﴾ ﴾[الكهف].

فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب وهو القرآن ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وذكر موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس، فبدأ بذكر القرآن ثم ذكر الناس، فكان المناسب أن يتقدم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية كما في البدء.

وأما سورة الإسراء فقد بدئت بالكلام على الناس ثم القرآن. فقد بدئت بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ﴾[الإسراء].

ثم تكلم على بني إسرائيل. ثم قال بعد ذلك:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[الإسراء].

فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن في هذه الآية. وهذا تناسب عجيب بين الآية ومفتتح السورة في الموضعين.

ثم انظر خاتمة الآيتين، فقد ختم آية الاسراء بقوله: ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ والكُفُور: هو جحد النعم، فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل ألا ترى أن مقابل الشكر الكفران ومقابل الشاكر الكفور قال تعالى: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الإنسان] فكان ختام الآية مناسباً لما تقدم من السياق.

أما آية الكهف فقد ختمها بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمراء من مثل قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴿٣٤﴾ ﴾[الكهف].

وقوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[الكهف].

وبعدها: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴿٥٦﴾ ﴾[الكهف]

وذكر محاورة موسى والرجل الصالح ومجادلته فيما كان يفعل.

وقال: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الكهف].

ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها. فما ألطف هذا التناسق وأجمله وما أجل هذا الكلام!

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾[البقرة].

وقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾[إبراهيم].

فقال في آية البقرة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴿٢٦٤﴾﴾ فقدم الشيء وأخر الكسب.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿١٨﴾﴾ فقدّم الكسب وأخّر الشيء، وذلك أن آية البقرة في سياق الإنفاق والصدقة، والمنفق معطٍ وليس كاسباً، ولذلك آخر الكسب فقال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدم الكسب .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران] .

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال].

فقدم القلوب على الجار والمجرور في آل عمران فقال: (ولتطمئن قلوبكم به)، وأخرها عنه في الأنفال فقال: (ولتطمئن به قلوبكم) علماً بأن الكلام على معركة بدر في الموطنين غير أن الموقف مختلف.

ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران] إلى غير ذلك من آيات المواساة والتصبير فقال في هذا الموطن: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ ﴿١٢٦﴾﴾ فذكر أن البشرى (لهم)، وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة.

ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر في آل عمران فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

أقول لما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير.

أنه لما كان المقام في الأنفال مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني قدم (به) على القلوب والضمير يعود على الإمداد. ولما كان المقام في آل عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الإمداد فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وزاد كلمة (لكم) فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ زيادة في المواساة والمسح على القلوب فجعل كلاً في مقامه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة] وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام].

فقد قال في آية البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ فقدم (به) على (لغير الله). ومعنى: (ما أهل به): ما رفع الصوت بذبحه وهو البهيمة.

وقال في آيتي المائدة والأنعام: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فقدم (لغير الله) على (به) وذلك أن المقام في آية الأنعام هو في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس بإسم الله وهم يفترون عليه فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

﴿أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام].

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن ثمة ذوات غير الله تحلل وتحرم مفترية على الله، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تعبد معه ونصيبها أكبر من نصيب الله في العبادة، ولذا قدم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (به) فقال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

والكلام في المائدة أيضاً على التحليل والتحريم ومن بيده ذلك، ورفض أية جهة تحلل وتحرم من غير الله فإن الله هو يحكم ما يريد. قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ . . . ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ . . . ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ . . . ﴿٤﴾﴾ [المائدة].

فهو يجعل التحليل والتحريم بيده ويرفض أية جهة أخرى تقوم بذلك، لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام ولذا قدمه في البطلان فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. ثم إنه جاء في الموطنين بذكر اسم الله على الذبائح فذكر في آية الأنعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً فقال: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾. وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله.

وأما في البقرة فليس المقام كذلك فلم يذكر أن جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحريم وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]. وقال بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ . . . ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة].

فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات قدم (به). والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام[1] والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [المُلك] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام].

فقدم خسف الأرض على إرسال الحاصب في آية المُلك، وأخر عذاب الأرض عما يأتي من السماء في آية الأنعام.

وذلك أن آية الملك تقدمها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك] فكأن أنسب شيء في الموعظة تذكيره بخسفها من تحتهم. « أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام] فصرف هذا الخطاب تفكر النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنسب شيء ذكر منها القهر وكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية المُلك[2].

ومما زاد ذلك حسناً قوله تعالى: (ويرسل عليكم حَفَظَة) والحفظة: هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، وربنا يرسلهم من فوق فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة فإن فيها كفاية فيما أحسب فهي تدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود، كل لفظ فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً، وأنه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السياق. وقد روعي في ذلك التعبير القرآني كله ونظر إليه نظرة واحدة شاملة.

وأظن أن ما مر من الأمثلة تريك شيئاً من فخامة التعبير القرآني وعلوه وأن مثل هذا النظم لا يمكن أن يكون في طوق بشر فسبحان الله رب العالمين .

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٠٧-١٠٨.

(٢) ملاك التأويل ٢/٩٠٨.

الذكر والحذف

يدخل في هذا الموضوع ما حذف وأصله أن يذكر، كحذف حرف أو فعل أو اسم مما أصله أن يذكر.

كما يدخل فيه في ما ذكر في موطن، ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به لأن الموطن اقتضاه.

القسم الأول :

قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفاً أو يذكره أو يجتزىء بالحركة للدلالة على المحذوف، كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف].

وهذه الآية قالها ربنا في السد الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المذاب. قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف].

فقال: (فما اسطاعوا أن يظهروه) أي: يصعدوا عليه، فحذف التاء، والأصل: (استطاعوا)، ثم قال: (وما استطاعوا له نقباً) بإبقاء التاء. وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً، خفف الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال: (فما اسطاعوا أن يظهروه) وطوّل الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال: (وما استطاعوا له نقباً) فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب[1] .

---

(١) كنت أقول بهذا التعليل منذ وقت طويل ولم أكن أعلم أن أحداً قد ذكره حتى وقع في يدي كتاب (ملاك التأويل) فوجدته قد ذكره في ج٢/ ٦٥٥.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[آل عمران] .

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[المائدة].

فحذفت النون من (أنّا) في آية آل عمران، وثبتت في آية المائدة فقيل: (إننا) وسبب ذلك والله أعلم «أن آية المائدة لما ورد فيها من التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله: (أن آمنوا بي وبرسولي) فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاها ناسب ذلك (أننا) على أوفى الحالين وهو الورود على الأصل. ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في سورة آل عمران حين قال تعالى: (قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله)، فلم يقع هنا: (وبرسوله) إيجازاً للعلم به وشهادة السياق ناسب هذا الإيجازُ الإيجازَ، كما ناسب الإتمامُ في آية المائدة الإتمامَ، فقيل هنا: (واشهد بأنّا مسلمون) وجاء كل على ما يجب، ولو قدّر ورود العكس لما ناسب»[1].

يضاف إلى ذلك أنه قال في المائدة :(وإذ أوحيت إلى الحواريين) أي، أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبتهم، فناسب ذلك زيادة النون تأكيداً لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد[2].

ولم يرد مثل ذلك في آية آل عمران فناسب كل في موضعه.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[النحل].

وقوله في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل] فحذف نون (تكن) في آية النحل، وأبقاها في آية النمل.

---

(١) ملاك التأويل١/ ١٦٥-١٦٦.

(٢) انظر كتابنا: معاني النحو ١/ ٣٨٨.

وذلك أن السياق مختلف في السورتين، فالآية الأولى نزلت حين مثل المشركون بالمسلمين يوم أحد: « بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك». فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾[النحل] فكفر عن يمينه وكف عما أراده»[1].

فقد أوصاه ربنا بالصبر ثم نهاه أن يكون في ضيق من مكرهم فقال له: ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ أي: لا يكن في صدرك ضيق مهما قلّ. فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً.

وهذا تطييب مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتخفيف لأمر الحدث وتهوينه على المخاطب، فخفف الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النفس.

أما الآيات الثانية فهي في سياق المحاجّة في المعاد، وهو مما لا يحتاج إلى مثل هذا التصبير قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾[النمل].

جاء في (البرهان) للكرماني: إنما خصت سورة النحل بحذف النون موافقة لما قبلها وهو قوله: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾[النحل] .

والثاني: « أن هذه الآية نزلت تسلية للنبي ﷺ حين قُتل عمه حمزة ومُثِّلَ به فقال عليه الصلاة والسلام: «لأفعلن بهم ولأصنعن».

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٢.

فأنزل الله تعالى: ﴿... وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[النحل] ليكون ذلك مبالغة في التسلّي، وجاء في النمل على القياس لأن الحزن هناك دون الحزن هنا والله أعلم»[1].

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿... فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ... ﴿١٧﴾﴾[هود].

وقوله ﴿... فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ... ﴿٢٣﴾﴾[السجدة].

فقال في الآية الأولى: (فلا تك في مرية) بحذف نون تكن. وقال في الثانية: (فلا تكن في مرية) بذكرها وذلك أن السياق في الآيتين مختلف، فقد قال في الآية الأولى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾[هود].

وقال في الثانية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة].

فإن الآية الأولى تثبيت للرسول ونهي له عن الريب والمرية، فقد بدأ الكلام بقوله: إنه كان على بينة من ربه، ثم يتلوه شاهد منه، ثم قبله كتاب موسى، وختمه بقوله: (إنه الحق من ربك) فناسب ذلك أن يقال: (فلا تك في مرية منه) بخلاف الآية الأخرى فإنها ليس فيها مثل هذه الدواعي كما ترى.

ثم إن الكلام في الآية الأولى على القرآن الكريم وعلى قوم الرسول وتهديد من يكفر به، والكلام في الثانية على التوراة وبني إسرائيل.

فناسب الحذف في الآية الأولى دون الثانية تثبيتاً للرسول ونهياً له عن الريبة فيه، وذلك أنه طلب منه أن لا يكون في شيء من المرية أصلاً. فلما كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف هاهنا دون الثانية.

---

(١) البرهان ٢٨١-٢٨٣.

وجاء في (البرهان) للزركشي أن حذف النون في نحو هذا قد يكون «تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾[القيامة] حذفت النون تنبيهاً على مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[يس] فهو حين كان نطفة كان ناقص الكون...

وكذلك ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[النساء] حذفت النون تنبيهاً على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها، ومثلها: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[لقمان] وكذلك ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾[غافر] جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه، وهو الحس إلى العقل إلى الذكر، ورقُّوهم من أخفض رتبة وهي الجهل إلى أرفع درجة في العلم وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[المؤمنون] فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه وتم. وكذلك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[النساء] هذا قد تم تكوينه... وكذلك ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾[غافر] انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله ما انتفى أصله»[1].

ومن ذلك ذكر ياء المتكلم أو حذفها والاجتزاء بالكسرة، وإن لم تكن ياء المتكلم من الحروف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[هود]

فقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة في الأعراف فقال: (ثم كيدون) وذكرها في هود فقال: (فكيدوني).

---

(١) البرهان ١/٤٠٧ - ٤٠٨.

ويمكن هنا أن نذكر أصلاً عاماً في ذكر الياء وحذفها وهو:

أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء يختلف عن ذكر الياء في كل ما ورد في القرآن الكريم عدا خواتم الآي والنداء، ولها في كل ذلك خط عام إضافة إلى السياق الخاص، ففي كل موطن ذكر الياء فيه يكون المقام مقامَ إطالة وتفصيل في الكلام، بخلاف الاجتزاء بالكسرة فإن فيه اجتزاء في الكلام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الياء تتردد مظهرة في المواطن التي تذكر فيها الياء أكثر من المواطن التي يجتزأ بالكسرة عنها.

وقد تتردد الكلمة ذات الياء المظهرة في السورة أكثر من تردد الكلمة ذات الياء المجتزأة في موطنها.

هذا علاوة على السياق الخاص الذي يقتضي الذكر والحذف كما سنبين، ونعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما، فإن المقام في هود مقام تحدٍّ كبير ومواجهة، فأظهر نفسه زيادة في التحدي، إذ المتحدي وطالب المواجهة لا بد أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه ليس فيها هذا التحدي، يدل على ذلك سياق كل من الآيتين فقد قال في الأعراف:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الأعراف].

وأما هود فالمقام فيها مختلف فقد دعاهم هود إلى عبادة الله وحده وترك ما عداه فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[هود] ونصح لهم بالتوبة والاستغفار ليرضى عنهم خالقهم ويزيدهم من فضله فرفضوا قوله وردّوا عليه قائلين: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾[هود].

فهم لم يكتفوا بردّ دعوته وعدم التصديق به، بل قالوا له: إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء مما جعله يتحداهم ويتحدى آلهتهم، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، ثم دعاهم جميعاً إلى كيدهم له ثم لا يمهلونه إن استطاعوا. فزاد كلمة: (جميعاً) زيادة في التحدي رداً على قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴿٥٤﴾﴾[هود].

إنهم قالوا له: ان أحد آلهتهم اعتراه بسوء، فتحدى الجميع ثم أظهر نفسه، فذكر الياء زيادة في التحدي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن التحدي والمواجهة في هود أطول وأكثر مما في الأعراف (انظر الآيات ٥٠-٥٨) فذكر الياء في هود لأن الياء أطول من الكسرة. وحذف الضمير واجتزأ بالكسرة في الأعراف، فناسب بين طول الكلمة والسياق، فجعل الكلمة الطويلة للسياق الطويل والكلمة المجتزأة للسياق المجتزأ. ومن ناحية أخرى نرى أنه قد تردد ذكر ياء الضمير في هود في هذا الموطن مرات عديدة وليس الأمر كذلك في الأعراف فقد قال: (إني أشهد الله) و (اشهدوا أني بريء) (فكيدوني جميعاً) (إني توكلت على الله ربي وربكم) (إن ربي على صراط مستقيم) و (يستخلف ربي قوماً غيركم) (إن ربي على كل شيء حفيظ).

وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه لم يظهر الياء في السياق إلا مرة واحدة وهو قوله: (إن وليي الله).

فناسب ذكر الياء ما ورد في هود، وناسب الاجتزاء بالكسرة سياق ما ورد في الأعراف.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال في آية الأعراف: (ثم كيدون فلا تنظرون) فأدخل (ثم) على الكيد والفاء على الإنظار. وفي هود بالعكس أدخل الفاء على الكيد و (ثم) على الإنظار. والفاء تفيد التعقيب أما (ثم) فتفيد التراخي. فقد طلب منهم في الأعراف عدم المهلة في الإنظار. وعدم الإنظار هو المناسب لسياق الأعراف، فقد ذكر في هذه السورة تعجيل العقوبات لمستحقيها في الدنيا، بخلاف سورة هود فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات.

فقد بدأت الأعراف بقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾[الأعراف] فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم، في حين قال في هود: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾[هود] فذكر التمتع والإمهال.

وقال في هود أيضاً: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴿٨﴾﴾[هود] فذكر تأخير العذاب إلى أجل وهو الإمهال.

وقال في الأعراف: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[الأعراف] فقال: (فأخذناهم بغتة) بعد قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة)، وهو نظير قوله: (ثم كيدون فلا تنظرون). فالاستدراج المذكور في الآية وهو قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة...) نظير الكيد في قوله: (ثم كيدون) معنى واستعمالاً فكلاهما بثم وكلاهما إمهال.

وقوله: (فأخذناهم بغتة) نظير قوله: (فلا تنظرون) فكلاهما بالفاء وكلاهما عدم إنظار.

فانظر إلى التناظر الجميل بين الآيتين.

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ ﴿فأخذناهم بغتة﴾.

﴿ثم كيدون﴾ ﴿فلا تنظرون﴾.

ثم انظر إلى القصص في السورتين ترَ الفرق واضحاً بين السياقين. فانظر إلى قصة نوح في الأعراف فهيَ موجزة، وظاهر فيها عدم الإمهال فقد قال لهم نبيهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾[الأعراف] وبعدها قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[الأعراف].

فجاء بالفاء دالاً على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار (فكذبوه فأنجيناه).

أما في هود فالكلام طويل وهناك مهلة حتى استبطؤوا ما وعدهم به: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[هود].

وكذلك قصة عاد فقد قال في خاتمتها في الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[الأعراف].

وقال في هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[هود].

فانظر كيف عجّل العقوبة لهم في الأعراف فجاء بالفاء الدالة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود.

وكذا قصة صالح ؑ فقد قال في نهايتها في الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[الأعراف].

وقال في هود: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[هود].

فذكر إنزال العقوبة بالفاء في الأعراف: (فأخذتهم الرجفة) وقال في هود: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة).

وهكذا، فأنت ترى أن سياق الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار: بخلاف السياق في سورة هود. ولذا كان الأليق أن يأتي بالفاء مع عدم الإنظار في الأعراف فيقول: (فلا تنظرون) وأن يأتي بـ(ثم) معه في هود فيقول: (ثم لا تنظرون).

وهنالك أمر فني آخر، وهو أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في الأعراف قدم (ثم) على الفاء، ومنها الآية المذكورة وفي هود بالعكس. فقد قال في الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا (١٠٣) ﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) ﴾ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) ﴾

وقال: ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ (٦١) ﴾

فما أجمل هذا التناسق وما أجلَّ هذا الكلام!

ومن ذلك: أي ذكر ياء المتكلم أو حذفها قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص].

فإنه حذف ياء الضمير واجتزأ بالكسرة في (الكهف) فقال: (يهدين)، وأبرز الضمير في القصص فقال: (يهديني) وذلك أن المقام يستدعي إبراز ياء المتكلم، لأنه مقام التجاء وخوف وخشية. والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يلتجىء إلى من ينصره ويأخذ بيده بكل أحاسيسه ومشاعره إلتجاءً كاملاً، وهذا هو الموقف الأول، فقد خرج موسى خائفاً يترقب فاراً من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوجل طالباً منه أن يهديه سواء السبيل، ولذا أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء وإلقاء النفس كلها أمام خالقه، بخلاف ما في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف].

فالفرق كبير بين المقامين، فمقام موسى في القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه وخالقه. ولما كان الخائف الضعيف يطلب أولاً من يحميه ويلتجىء إليه قدم (الرب) على فعل الهداية لأنه هو الملجأ فقال ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص].

بخلاف ما في الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تباينت فيه الآراء، وهذا أمر يحتاج إلى الهداية والرشد، فقدم الهداية وهذا من دقيق الاستعمال.

ثم لننظر من ناحية أخرى فإن ياء الضمير تكرر في (القصص) أكثر مما في الكهف فناسب ذكر الياء في القصص.

ثم إن لفظ الهداية تكرر في القصص اثنتي عشرة مرة. أما في الكهف فقد تردد خمس مرات، فزاد اللفظ في القصص لما زاد تردده. وهذا الأمر مراعى في القرآن الكريم كما ذكرت. ألا ترى كيف قال الله تعالى في سورة الأعراف ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴿١٧٨﴾﴾ بإثبات الياء، في حين قال في سورة الإسراء: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴿٩٧﴾﴾ وفي سورة الكهف: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴿١٧﴾﴾. بالاجتزاء بالكسرة فيهما، وذلك أن لفظ الهداية تردد في سورة الأعراف أكثر مما تردد في سورتي الإسراء والكهف مجتمعتين. فقد ورد في الأعراف سبع عشرة مرة، في حين ورد في الإسراء ثماني مرات وفي الكهف ست مرات، فلما زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ: (المهتدي) على ما في السورتين.

وقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦٢﴾﴾[الإسراء] بالاجتزاء بالكسرة.

وقال: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿١٠﴾﴾[المنافقون]، فذكر الياء. وذلك أنه تردد فعل التأخير مرتين في سورة (المنافقون) في حين ذكر مرة واحدة في سورة (الإسراء) فزاد في موطن الزيادة وحذف في موطن الاجتزاء.

ونعود إلى آيتي الهداية في القصص والكهف، فنقول علاوة على ما مر: إن مقام التبسط والتطويل في (القصص) في قصة موسى أكثر بكثير مما ورد في (الكهف)، فإن المقام في (الكهف) مقام إيجاز جاء عرضاً في أثناء قصة أصحاب الكهف. فلما طوّل الكلام وتبسط طوّل الفعل بذكر الضمير في (القصص)، ولما اجتزأ القول في (الكهف) اجتزأ بذكر الكسرة عن الضمير، وهو نظير ما سبق ذكره في الآيتين السابقتين.

ومما حسّن الحذف في الكهف علاوة على ما ذكرنا حذفه الياء من لفظ الهداية في موضع آخر من السورة، واجتزاؤه بالكسرة، وذلك هو قوله تعالى:

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[الكهف] هذا علاوة على حذف الياء في مواطن أخرى متعددة من هذه السورة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾[االكهف] بحذف الياء من (ترني)

وقوله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الكهف] بحذف الياء من (يؤتيني)

وقوله: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾[الكهف] بحذف الياء من (تعلمني)

وقوله: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴿٦٤﴾ ﴾[الكهف] بحذف الياء من (نبغي).

فانظر كيف تعاضد المعنى والسياق والألفاظ والإحصاء على وضع كل لفظة في موضعها. ومن هذا النوع من الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴿١٥٠﴾ ﴾[البقرة]

وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة]

وقوله: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴿٤٤﴾ ﴾[المائدة].

فذكر الياء في (اخشوني) في آية البقرة، وحذفها واجتزأ بالكسرة في آيتي المائدة، وذلك أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم، كما يستدعي توجيههم إلى مراقبة الله تعالى وخشيته أكثر بكثير مما في الموطنين الآخرين، وذلك أن السياق في البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغيير وأكثروا القول فيه، فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله أو خشيتهم، وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده فأبرز الضمير العائد على الله فقال: (فلا تخشوهم واخشوني). فقد بدأت الآيات بقوله: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[البقرة].

إلى أن يقول:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ

﴿شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾[البقرة].

في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك، فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴿٣﴾﴾[المائدة] ثم قال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴿٣﴾﴾[المائدة] فالكفار يائسون من محاربة الإسلام بعد أن أظهره الله وأعلى كلمته.

فالمحاربة في الموقف الأول ومظنة خشية الناس أكبر، بخلاف آية المائدة التي أنزلت بعدما أظهر الله دينه.

وكذا الأمر في الآية الأخرى وهي الآية ٤٤ من سورة المائدة، فإنه ليس فيها ما يستدعي الخشية من الناس، وليس فيها إرجاف ولا محاربة. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ ﴿٤٤﴾﴾[المائدة].

فأنت ترى أن سياق آية البقرة وما فيها من خصومة ومحاجّة ومحاربة يستدعي جانباً كبيراً من الخشية، فأظهر الله نفسه طلباً لمراقبته وخشيته وعدم الاكتراث بأقوال المرجفين، بخلاف ما في الآيتين الأخريين.

ثم انظر طول السياق وتكراره في سورة البقرة فقد بدأ بقوله:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴿١٤٢﴾﴾[البقرة]

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ ﴿١٤٣﴾﴾[البقرة]

فذكر أن تغيير القبلة كبير عند الناس.

ثم ذكر بعدها : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾ ﴾[البقرة]

ثم أخبر أن الذين أوتوا الكتاب لا يتبعون قبلة الرسول مهما جاءهم بالبينات فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴿١٤٥﴾ ﴾[البقرة] وهكـذا.

فأنت ترى أنه أطال القول ههنا، فكان المناسب أن يطيل بذكر الضمير أيضاً. وهو المناسب لإطالة السياق بخلاف ما في الآيتين الأخريين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه أبرز الضمير (الياء) في سياق آية البقرة أكثر مما في الموطنين الآخرين من مثل قوله: (واخشوني) و: (ولأتم نعمتي) (فاذكروني) (واشكروا لي) وغيرها.

فناسب كل ذلك ذكر الياء في آية البقرة بخلاف آيتي المائدة.

وهذا كما ترى نظير ما مر من ذكر الياء وحذفها آنفاً.

وشبيه بهذا الذكر والحذف وليس منه قوله تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأنعام].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[الأعراف].

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[هـود]

فحـذف اليـاء مـن (يـأت)، واجتزأ بـالكسـرة في آيـة هـود دون الآيتيـن السابقتين. ولهذا الحذف سببه. فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين

كفروا للعذاب. كما تردد الوعد بقرب نزوله فقد قال: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴿٨﴾ ﴾[هود].

وقال قوم نوح: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[هود].

وقال صالح لقومه: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[هود].

وقال في قوم لوط: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾[هود].

وقال في موطن آخر: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[هود].

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آتٍ وأنه سيحل فيه عقاب الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة، وإن هو إلا أجل معدود فيحل. فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان، وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى.

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعاً وعشرين مرة وفي (هود) ثلاث عشرة مرة، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثّر البناء، ولمّا قلّ تردده في هود قلل من البناء. وهو نظير ما في (المهتد) و (المهتدي) وغيرها مما سبق ذكره.

ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه، حذف من الكلام فحذف الياء من (يأتي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال: (تكلّمُ) ولم يقل: (تتكلم) إشعاراً بقلة الكلام في ذلك الوقت. وهذا مما يدعو إلى العجب.

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[الأعراف].

فقال في أصحاب الجنة: (ما وعدنا ربنا حقاً) وقال في الكافرين: (ما وعد ربكم حقاً) ولم يقل: (ما وعدكم) وذلك أن الكافرين كانوا منكرين لأصل الوعد والوعيد، وليسوا منكرين لما وعدهم به فقط، فكأنه قال: هل وجدتم وعد ربكم حقاً ؟بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة فقال: (وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً).جاء في (الكشاف) في هذه الآية: « فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة (وعدنا) عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم، فأطلق لذلك»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الصافات] فذكر الضمير في: (أبصرهم) الأولى وحذفه من الثانية فقال: (وأبصر).

قالوا: وسبب ذلك أن الأولى كانت بسبب نزول العذاب بهم يوم بدر وما حلّ بهم من قتل وأسر، فَلما تضمنت المعركة ما تضمنت من قتل صناديد قريش وأسرهم وشفاء صدور المؤمنين قال: (وأبصرهم).

وأما الثانية فكانت في يوم فتح مكة وليس فيه قتل ولا أسر وإنما هو هداية ورحمة، ثم إن فتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب ولذا أطلق فقال: (وأبصر) لأنه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر. فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل

---

(١) الكشاف ١/٥٤٩.

مكة وقد حل عليهم العذاب وحدهم قال: (أبصرهم)، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: (وأبصر). جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين: «ومن فوائد قوله تعالى في الأوليين: (وأبصرهم) وفي هاتين: (فأبصر) أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمة ورعباً. فلما تضمنت التشفي بهم قيل له: (أبصرهم).

وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في إستسلامهم لعينه قرة ولقلبه مسرة فقيل له: (أبصر)»[1].

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۝١٠١﴾[الأعراف].

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۝٧٤﴾[يونس].

فحذف (به) من آية الأعراف، بخلاف آية يونس، وذلك أن الإطلاق هو سياق الأعراف، والتخصيص هو سياق سورة يونس، فقد جاء قبل آية الأعراف قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾[الأعراف].

فأطلق التكذيب ولم يذكر بما كذبوا، وهو نظير الإطلاق في الآية التي بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ولم يذكر بماذا كذبوا.

في حين أن السياق في يونس سياق الذكر لا الإطلاق، فقد جاء قبل الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۝٧٣﴾[يونس] وهو نظير الذكر في الآية التي بعدها (بما كذبوا به).

فانظر كيف قال في الأعراف: (ولكن كذبوا فأخذناهم) وقال: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) فلم يذكر بماذا كذبوا.

---

(١) البرهان ٣/ ٢٣.

وانظر كيف قال في يونس: (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) ثم قال بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) فذكر بماذا كذبوا في الموطنين، فاستدعى كل سياق ما ورد من ذكر وحذف.

ثم انظر السياق بعد كل من الآيتين فقد قال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴿١٠٣﴾﴾[الأعراف].

وقال في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ﴿٧٥﴾﴾[يونس]. فذكر في الأعراف أنه بعث موسى. وفي يونس ذكر أنه بعث موسى وهرون فزاد ذكر (هرون). فانظر كيف لما زاد (به) في الآية الرابعة والسبعين وزاد (بآياتنا) في الآية الثالثة والسبعين زاد (هرون) في السياق. فأية دقة هذه؟ وأي فن هذا أيها الناس؟!

جاء في (البرهان) للكرماني أنه ذكر في يونس: (بما كذبوا به) «لأن أول القصة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف]. وفي الآية: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ وليس بعدها الباء فختم القصة بمثل ما بدأ به.

وكذلك في يونس وافق ما قبله وهو: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴿٧٣﴾﴾[يونس] (كذبوا بآياتنا) فختم بمثل ذلك فقال: (بما كذبوا به)»[1].

ومن طريف الذكر والحذف في القرآن الكريم ذكر الاسم الموصول وحذفه، فقد ذكر القرآن الكريم الاسم الموصول في مواطن، وحذفه في مواطن أخرى، فقد قال مرة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٦﴾﴾[طه] بتكرير الاسم الموصول. وقال مرة أخرى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١١٦﴾﴾[البقرة] فلم يكرره. وقال مرة أخرى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٥٢﴾﴾[العنكبوت].

وقال مرة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴿١﴾﴾[الحشر] وقال مرة أخرى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١﴾﴾[الحديد].

---

(١) البرهان للكرماني ١٨٨-١٨٩ وأنظر درة التنزيل ١٦٥-١٦٦.

وهذا يقتضينا المساءلة عن سبب ذكر ما ذكر وحذف ما حذف، إذ من المعلوم أنه لابد في الكلام البليغ من سبب للذكر والحذف، وخصوصاً في القرآن الكريم الذي هو أعلى الكلام.

لقد ذكر بعضهم أنه تأمل ما في التنزيل العزيز من قوله تعالى: (من في السماوات والأرض) و: (من في السماوات ومن في الأرض) وقوله: (ما في السماوات والأرض) وقوله: (ما في السماوات وما في الأرض) فوجد «أنه حيث قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود في سورة يونس[1] من نفي الشركاء الذين اتخذوهم في الأرض، وإلى المقصود في آية الكرسي[2] من إحاطة الملك.

وحيث قُصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس وللإهتمام بما هو المقصود في تلك الآية. ألا ترى في سورة الرحمن[3] المقصود منها علو قدرة الله تعالى وعلمه وشأنه وكونه مسؤولاً ولم يقصد السائلين[4]».

وهذا صحيح فإنه إذا قصد التنصيص على الأفراد، ذكر الموصول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴿٦٨﴾﴾[الزمر] فهنا قصد التنصيص على كل فرد من أفراد السماوات والأرض على وجه التخصيص فكرر (من) لذلك. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴿٨٧﴾﴾[النمل].

غير أن هذا واحد من الأسباب التي تدعو إلى تكرار الاسم الموصول وليس هو السبب الوحيد. وهناك أسباب أخرى للتكرار منها:

---

(١) يعني قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾[يونس].

(٢) يعني قوله تعالى ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ﴿٢٥٥﴾﴾[البقرة].

(٣) يعني قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[الرحمن].

(٤) البرهان ٤/ ٧٣-٧٤.

أنه إذا كان الموطن دالاً على التفصيل والإحاطة كرر الاسم الموصول، بخلاف ما إذا كان الكلام مجملاً غير مفصل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[المجادلة].

فكرر (ما) قائلاً: (يعلم ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لأن الموطن موطن إحاطة وتفصيل، بخلاف قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[العنكبوت] فلم يكرر (ما).

وأنت تحس الفرق واضحاً بين الموطنين والسياقين، فإن في آية المجادلة من ذكر لسعة علم الله وشموله وإحاطته بالجزئيّات والتفصيلات ماليس في آية العنكبوت، فقد ذكر في آية المجادلة أنه لايندّ عنه شيء ولا يغيب عنه مجلس قل أو كثر، ثم ينبىء الله أهله بكل ما قالوا وما تناجوا به، أحصاه الله ونسوه وهو بكل شيء عليم. فأنت ترى في آية المجادلة من التفصيل ما ليس في آية العنكبوت. فلما فصّل في آية المجادلة أعاد ذكر (ما) ولما أجمل في العنكبوت أجمل في ذكر الموصول فلم يعد ذكره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾[طه] فكرر (ما) لأن الموطن موطن شمول وإحاطة وتفصيل، فقد ذكر أن له (ما في السماوات) و (ما في الأرض) و (ما بينهما) و (ما تحت الثرى) بخلاف قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل] فأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين في التفصيل والإحاطة، فكرر في موطن التفصيل وأجمل في موطن الإجمال.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ].

فالتفصيل في هاتين الآيتين واضح، ولذا كرر الاسم الموصول بخلاف قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد] فلم يكرر الموصول في حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

فكرر (من) ههنا بخلاف الآية الأولى. ومقام التفصيل واضح في آية الحج، فقد ذكر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثيراً من الناس بخلاف آية الرعد. ففي مقام التفصيل كرر وفصّل وفي مقام الإجمال أجمل وأوجز.

وقد يكون إعادة ذكر الموصول لأمر آخر وهو ذكر أمر يتعلق بصلته، فمن الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا كرر الاسم الموصول فقال: (ما في السماوات وما في الأرض) فإنه يريد أن يخص أهل الأرض بذكر أمر من الأمور، وإذا لم يكرر (ما) فإنه لايريد أن يذكرهم بأمر خاص بهم. ويتضح هذا في آيات التسبيح خاصة نحو قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴿١﴾﴾ [الحديد] و ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴿١﴾﴾ [الحشر].

فحيث كرر (ما) في آيات التسبيح فإنه ذكر أهل الأرض بعدها، وحيث أجمل لم يذكرهم. وإليك أمثلة على ذلك:

قال تعالى في (سورة الحديد): ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

وقال في (سورة الحشر): ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۝٢﴾[الحشر].

فأنت ترى أنه في آيات الحديد لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض، بخلاف آية الحشر فقد قال بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ويستمر في ذكر أحوالهم.

ويدلك على ذلك أنه في آخر سورة الحشر لم يكرر (ما) حين لم يذكر شيئاً عن أهل الأرض بعد الآية، فقد قال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٤﴾[الحشر]. فكرر في أول السورة وأجمل في آخرها لما ذكرناه والله أعلم.

ونحوه ما جاء في سورة الصف، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[الصف].

ويمضي في الكلام على أهل الأرض فكرر (ما) لأنه خص أهل الأرض بعدها بالذكر، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾[الجمعة]. ويمضي في الكلام على أهل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن]. ويمضي في الكلام على أهل الأرض.

فكل موطن كرر فيه (ما) أعقبه بالكلام على أهل الأرض. في حين قال في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ۝٤٢ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ... ۝٤٣ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ... ۝٤٤﴾[النور].

فلم يكرر (من) إذ لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض[1]. ونكتفي بهذه النماذج وإلاّ فإن الأمر يطول ويطول.

ثم نأتي إلى القسم الثاني: وهو ما ذكر في موطن ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف لنرى كيف يكون الكلام المعجز، لنرى كيف تكون الصياغة العجيبة في فن القول والتعبير. لنرى الكلام الذي قالت فيه الجن حين سمعته: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝﴾[الجن].

القسم الثاني:

وهو أن يذكر في موطن ما لا يذكره في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنما هو قد يزيد لفظاً أو أكثر مراعاة لما يقتضيه السياق أو يستدعيه المقام.

فقد يزيد حرفاً في مكان ولايذكره في مكان آخر حسبما يقتضيه موطن الكلام. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝﴾[الأنعام].

وقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝﴾[الأنعام].

فأنت ترى أنه قال مرة: (أرأيتم) ومرة أخرى: (أرأيتكم) بزيادة الكاف. وهذه الزيادة إنما تكون لغرض توكيد الخطاب، وذلك كأن يكون المخاطب غافلاً أو يكون الأمر يوجب زيادة التنبيه. وإنما فرق بين الخطابين ههنا لسببين والله أعلم:

---

(١) انظر: معاني النحو ـ الاسم الموصول.

الأول: أنه قال في الآية الأولى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ﴾ فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبيه والخطاب، وذلك أنّ فاقد السمع والبصر والمختوم على قلبه به حاجة إلى زيادة خطاب وتنبيه أكثر من السَّوِيِّ فقال فيما بعد: (أرأيتكم).

والسبب الثاني: أن الآية الثانية أشد من الآية الأولى تنكيلاً وعذاباً، فإن فيها عذاب الله الذي هو أشد من أخذ السمع والبصر، فاحتاج الموقف إلى تنبيه أكثر وزيادة حذر وحيطة فجاء بكاف الخطاب.

وقد تقول: ولِمَ قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[يونس] ولم يقل: (أرأيتكم) كما قال في الآية السابقة، أو كما قال في آية أخرى من سورة الأنعام فقد قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الأنعام] والآيات متشابهة والموقف واحد؟

والحقيقة أن الموقف مختلف والسياق غير متفق. فإنه لا ينبغي أن ينظر إلى الآيات مجردة، بل تؤخذ في مواطنها وسياقها، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى كل نص أدبي، فإن اللغة ليست جملاً مفردة بل هي مواقف ومواطن، وقد تصلح جملة في موطن ولا تصلح في موطن آخر.

وإليك إيضاح الفرق بين الآيتين:

قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الأنعام].

فأنت ترى أنه وصف الذين كذبوا بآيات الله بالصمم والبكم وأنهم في الظلمات فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه وخطاب ليسمعوا وليعوا. وهذا شبيه بالموقف الذي سبق أن ذكرناه آنفاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ﴾[الأنعام] بخلاف سورة يونس التي ليس فيها هذا الأمر. جاء في

(البرهان): « وأما أرأيتك فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين وغيرها وليس لها في العربية نظير، لأنه جمع فيها بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف. والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيهاً (كذا) على مبناها عليه من مرتبة وهوذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد.

قال أبو جعفر بن الزبير: « الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحكام غفلته، كما تحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان، ولهذا حذفت الكاف في آية يونس[٥٠] لأنه لم يتقدمها قبلها ذكر صمم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴿٣١﴾ ﴾[يونس].

إلى ما بعدهن فحصل تحريكهم وتنبيههم بما لم يبق بعد إلاّ التذكير بعذابهم» انتهى[1] ومثل هذا الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[آل عمران].

وقوله:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[النساء].

فذكر (ها) التنبيه قبل الضمير وقبل اسم الإشارة في آية آل عمران: (ها أنتم هؤلاء) لأنه أراد أن يقرعهم ويزيد في تنبيههم ولومهم لأنهم جادلوا بالباطل وهم يعلمون، فكرر التنبيه مرة قبل الضمير ومرة قبل اسم الإشارة فقال: (ها

---

(١) البرهان ٤/ ١٥١-١٥٢.

أنتم هؤلاء حاججتم)، وكذلك في آية النساء فقد كرر تنبيههم ولومهم ليتعظوا فلا يقفوا مثل هذا الموقف وأنت ترى أن الموقف يتطلب الزيادة في تنبيههم ووعظهم، بخلاف قوله تعالى مثلاً: (ها أنتم أولاء تحبونهم) فإن الموقف لا يحتاج إلى زيادة في التنبيه واللوم، فإنه خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران].

فأنت ترى أن الموقف مختلف عما في الآيتين السابقتين، وهوليس موقف تقريع ولوم كما كان ثَمّ.

وقد لا يحتاج الموقف إلى التنبيه فلا يذكره، وذلك نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾[طه].

فلم يأت بالتنبيه لأنهم غير حاضرين.

فأنت ترى أن التنبيه أتى به في المكان المناسب بالقدر الذي يحتاج إليه. فقد يكرر أو لا يكرر أو لا يذكر التنبيه بحسب الحاجة إليه[1].

ومن ذكر التنبيه وعدمه قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴿١٦٠﴾ ﴾[آل عمران].

وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة].

فلم يجيء بـ (ها) التنبيه في الموطنين في حين قال:

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾[المُلك].

---

(١) انظر معاني النحو باب أسماء الإشارة.

فجاء بـ (ها) التنبيه. وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أن التحدي في الآيتين الأخيرتين أشد وأقوى، وهو واضح من السياق. فالآية الأولى خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[آل عمران].

وآية سورة المُلك في الكلام على الكافرين وهو في سياق التخويف من قدرة الله وبطشه قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ . . . . أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾[المُلك].

فالسياق والجو مختلف في الآيتين، فالأولى مقام رحمة ومسح على جراح المؤمنين ومقام عفو ومغفرة بعد معركة أحد. وأما الثانية فمقام ترهيب وإنذار وتخويف وتحذير فجاء بـ (ها) التنبيه زيادة في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام.

وقد تقول: ولم قال في آية الكرسي: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ . . . ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] من دون تنبيه في حين قال: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ . . . ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ . . . . ﴿٢١﴾ ﴾[المُلك] فذكر التنبيه، والمقامان متشابهان؟

والحق أن المقامين مختلفان وليسا متشابهين، وذلك أن آيات سورة المُلك في خطاب الكافرين ـ كما ذكرنا ـ وليس كذلك سياق آية الكرسي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة، ومقام آية الملك مقام نصر ورزق، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر.

فقد قال في آية الكرسي: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ . . . ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة] والشفيع طالب حاجة مرتجٍ قضاءها عالم بأن الأمر بيد من هو أعلى منه، فهو متلطف بسؤاله في

حين قال في سورة الملك: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ... ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾[المُلك] وهذا كما ترى موقف ندّ وليس موقف شفيع. فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلاّ نداً لله سبحانه، تعالى الله عن الند، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله. ولذا سأل رب العزة قائلاً: من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبيه. هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين!!.

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه، بخلاف آية البقرة. فما أعظم هذا الكلام وأجله!

ومن هذا الباب قوله تعالى في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الصافات].

وقوله في سورة الشعراء على لسانه أيضاً: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾[الشعراء].

فقال في الآية الأولى: (ماذا تعبدون) وقال في الثانية: (ما تعبدون).

وهناك فرق بين (ما) و (ماذا) في الاستفهام، فإن في (ماذا) قوة ومبالغة في الإستفهام ليست في (ما)، ففي قولك (ماذا فعلت؟) قوة ليست في (ما فعلت؟) ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها. ويدل على ذلك الاستعمال القرآني[1] ومن ذلك ما جاء في الآيتين اللتين ذكرناهما. فإنه إنما جاء في الآية الأولى بـ (ماذا) وفي الثانية بـ (ما) لأن الأولى في موقف تحدٍّ ظاهر ومجابهة قوية، بخلاف الثانية، يدلك على ذلك السياق.

فإن المقام في الأولى ليس مقام استفهام وإنما هو مقام تقريع، ولذلك لم يجيبوه عن سؤاله بل مضى يقرعهم بقوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾[الصافات].

---

(١) انظر كتابنا: (معاني النحو) باب الاستفهام.

وأما في الثانية فهو في مقام استفهام المحاجَّة إذ قال لهم: ما تعبدون؟

فأجابوه: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.

فسألهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الشعراء].

فأجابوه قائلين: ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[الشعراء].

فأنت ترى أن المقام مقام محاجّة بخلاف الآية الأولى فإنه مقام تحدٍّ وتقريع ومجابهة.

ويوضح ذلك نهاية القصتين.

ففي آية الشعراء قال: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الشعراء ـ ومابعدها].

وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ . . . ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ . . . وما بعدها﴾[الصافات].

فثمة فرق كبير بين النهايتين وبين السياقين. فجاء في مقام المجابهة وشدة التحدي بـ (ماذا) دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ (ما).

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل عن زيادة (ذا) في قوله في الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء ما في الشعراء منها.

والجواب أن يقال: إنَّ قوله (ما تعبدون) معناه: أي شيء تعبدون؟

وقوله: (ماذا تعبدون) في كلام العرب على وجهين:

أحدها: أن تكون (ما) وحدها اسماً و (ذا) بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي تعبدون. و (تعبدون) صلة لها.

والآخر أن تكون (ما) مع (ذا) اسماً واحداً بمعنى: أي شيء. وهو في الحالتين أبلغ من (ما) وحدها إذا قيل: ما تفعل؟ و (ما تعبدون) في سورة الشعراء إخبار عن تنبيهه لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم،

فأجابوه وقـالوا: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ فنبه ثانياً بقولـه: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾؟

وأما (ماذا تعبدون)؟ في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه. ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الأول. ثم أضاف تبكيتاً إلى تبكيت ولم يستدع منه جواباً فقال: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الصافات].

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية. ولما بالغ وقرّع استعمل اللفظ الأبلغ وهو (ماذا) التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها. وإن جُعلا إسماً كان أيضاً أبلغ وأوكد مما إذا خلت من (ذا) »[1] .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾[الأحزاب].

فمد (السبيل) في حين قال في الآية الرابعة من السورة نفسها: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾[الأحزاب] فلم يمدّه.

وذلك أن الأولى في كلام أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمدّ، وهو المناسب لمد الصوت بالبكاء ورفعه، بخلاف الآية الثانية.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[هود].

وقوله:

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[العنكبوت].

---

(١) درة التنزيل ٣٣١.

فقد زاد (أن) بعد (لمّا) في سورة العنكبوت بخلاف سورة هود والقصة واحدة، وذلك أن سياق القصة في العنكبوت يقتضي هذه الزيادة من عدة أوجه، بخلاف سياقها في هود. فإنه أفاض في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود فقد قال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾[العنكبوت].

ولم يزد في هود على أن قال: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴿٧٨﴾ ﴾[هود]. ففصّل في عمل السيئات ما لم يفصله في هود.

فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر (أنْ) لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل بخلاف سورة هود.

ومن ناحية أخرى أن برم لوط بقومه وضيقه بهم في سورة العنكبوت، كان أظهر وأشد مما في سورة هود. كما يبدو أن ترقب لوط للخلاص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود. يدل على ذلك عدة مواضع في القصة:

منها قوله في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[العنكبوت].

في حين قال في هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[هود].

فزاد في آية العنكبوت قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ... ﴾.

ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتعجلوا العذاب قائلين: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[العنكبوت] فقال ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[العنكبوت] وليس الأمر كذلك في هود، فإنهم لم يصرحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنصر. ومنها التصريح بلفظ التنجية ومجيء

الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[العنكبوت]. ومرة مع لوط نفسه، إذ قالوا له: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴿٣٣﴾﴾[العنكبوت]ولم يرد مثل ذلك في هود.

ولذا حسن ذكر (أَنْ) في العنكبوت دون هود مراعاة للتبسط في ذكر القصة والإفاضة فيها، وللدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال.

وشبيه بهذه الزيادة للانتظار والترقب قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾[يوسف].

فزاد (أن) بعد (لما) وذلك لمناسبة حالة الإنتظار والترقب التي كان يمر بها نبي الله يعقوب، فقد كان شديد اللهفة على رؤية ولده. ومن المعلوم أن الشخص في مثل هذه الحال يستطيل كل لحظة تمر به، ففصل بين (لما) ومجيء البشير وباعد بينهما إشارة إلى الشعور باستطالة الوقت وطول الانتظار. ولا يؤدي اتصال (لما) بالشرط ما يؤديه هذا الفصل الجميل.

جاء في (معترك الأقران): «فإن قلت: إن قوله تعالى: (فلما أن جاء البشير) لم يقع فيه تكرار فَلِمَ زِيدَ (أن) ولم يأت على الأصل،؟

قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن وتباعد المدة، ناسب ذلك زيادة (أن) لما في مقتضى وضعها من التراخي»[1].

وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك: «تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب مقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي: (أن) في قوله: أن جاء»[2].

---

(١) معترك الأقران ٣/٣٥٩ وانظر ملاك التأويل ٢/٥٢٧.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٦٣.

ونحو ذلك قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . . . ﴿١٩﴾﴾[القصص] فزاد (أن) بعد (لما) وذلك أن موسى لم يكن مندفعاً للبطش بالقبطي في هذه المرة فزاد (أن) للدلالة على التريث والتمهل، وفصل بين (لما) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجأة لنصرة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرة الأولى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ . . . ﴿١٥﴾﴾[القصص] فجاء بالفاء الدالّة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة (فاستغاثه، فوكزه، فقضى عليه).

ومما يدلك على تمهله وعدم اندفاعه في المرة الثانية تعنيفه لصاحبه قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[القصص] حتى ظن صاحبه أنه ينوي البطش به بدلاً من عدوه فقال له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾[القصص].

فزاد (أن) للدلالة على ذاك.

وهذا نظير ما قبله كما هو واضح.

وقد يزيد كلمة أو أكثر في موضع، ولايذكرها في موضع آخر، كل ذلك حسبما يقتضيه المعنى والسياق.

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾[النساء].

وقولـه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الإسراء].

فقد زاد قوله: (ومقتاً) في آية النساء وذلك أن «متزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشنأ وتستخسه الطباع السليمة، فوصفت فعلته بالمقت، وساوت الزنى فيما وراء ذلك»[1].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٠٠.

ومن ذلك قولـه تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن].

وقولـه:

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الطلاق].

فقد زاد في التغابن قولـه: (ويكفر عن سيئاته) دون الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين وقد دعاهم إلى الإيمان فقال: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن].

ثم قال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن].

وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطلاق].

ثم قال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ . . . ﴿١١﴾ ﴾ [الطلاق].

فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان].

وقولـه:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية].

فقد زاد في آية لقمان قولـه: (كأنّ في أذنيه وقراً) دون آية الجاثية، وذلك «أن آية الجاثية لما تقدم فيها قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ

عَلَيْهِ ثُمَّ﴾[الجاثية] فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات. والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه...

ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴿٦﴾﴾[لقمان] وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية. فازداد ووضح التلاؤم»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[المائدة].

وقوله:

﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

فزاد في الآية الأولى قوله: (واحذروا) وقوله: (فاعلموا) مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك.

وسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجرّه عليهم هذه المحرمات من شرور فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[المائدة].

فناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير.

---

(١) ملاك التأويل ٢/٧٨٩-٧٩٠.

« وأما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن] فلما لم يرد هنا نهي عن محرّم متأكد التحريم... لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك. فجاء كل على ما يجب ويناسب. وليس عكس الوارد بمناسب »[1].

وقد يزيد الجار والمجرور في موضع ولا يذكر نحوه في موضع آخر، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾[الفتح] وقولـه:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴿١٧﴾ ﴾[المائدة].

فزاد (لكم) في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة. والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلّفين من الأعراب قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾[الفتح].

فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد (لكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

أما في سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة معينين قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة].

ألا ترى إلى قوله تعالى: (ومن في الأرض جميعاً) كيف عم أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر (لكم) بل جاء الخطاب عاماً. جاء في (درة التنزيل) عن سبب ذكر (لكم) في (الفتح) وعدم ذكرها في (المائدة) قوله: إن آية سورة الفتح

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٧٤-٢٧٥.

«نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد وقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوه ﷺ أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وقصدهم إستمالته كيلا تضرهم عداوته فقال عزوجل:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾[الفتح] فلما كان في قوم مخصوصين احتيج إلى (لكم) للتبيين.

فأما في هذه السورة [يعني سورة المائدة] فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق بل عم بها. دليله أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً. فلما سيقت الآية إلى العموم لم يَحتج إلى (لكم) التي للخصوص»[1]. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[العنكبوت].

وقولـه:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الشورى].

زاد في آية (العنكبوت): (ولا في السماء)[2] وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسلها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات، بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ . . . ﴿٣١﴾ ﴾[الشورى].

فلمّا كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في

---

(١) درة التنزيل ٩٤ وانظر ٤٤٣، البرهان للكرماني ٤٣٩، ملاك التأويل ١/ ٢٤٧ وما بعدها.

(٢) في هذه الآية إعجاز علمي إذ إن فيها إشارة إلى أنهم سيصعدون في السماء وأنه سيكون لهم فيها شأن ومع ذلك فهم غير معجزين في السماء كما أنهم غير معجزين في الأرض. وإلا فأين هم من السماء في ذلك الوقت؟!

القول ويبسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . . . ﴿٦﴾﴾[المائدة].

وقولـه:

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾[النساء].

فزاد (منه) في آية المائدة، وذلك أن آية المائدة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة، بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً. فلما فصّل وبيّن في آية المائدة وزاد في ذكر الأحكام زاد الجار والمجرور (منه) للزيادة في التبيين. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾[المائدة].

وقال في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾[النساء].

فأنت ترى أنه حيث كان السياق مجملاً أجمل في الذكر، وحيث كان مفصّلاً مبيناً زاد وبيّن، فوضع كل تعبير في الموضع الذي هو أوفق له. جاء في (البرهان) للكرماني: أنه زاد في آية المائدة (منه) « لأن

المذكور في هذه السورة [يعني النساء] بعض أحكام الوضوء والتيمم فحسن الحذف. والمذكور في المائدة جميع أحكامها فحسن الإثبات والبيان »[1].

ومثل هذه الزيادة للتفصيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد].

وقولــه:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن] فقد زاد قوله: (في الأرض ولا في أنفسكم) على ما في التغابن، وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها. جاء في سورة الحديد قولـه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ . . . ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ . . . ﴿٢٢﴾ ﴾[الحديد].

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ . . . ﴿١١﴾ ﴾[التغابن].

فأنت ترى أنه فصّل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن، ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكورة موافقة لما قبلها. جاء في (البرهان) للكرماني أنه فصل في سورة الحديد وأجمل في سورة التغابن « موافقة لما قبلها في هذه السورة [يعني الحديد] فإنه فصل أحوال الدنيا

(١) البرهان ١٢٨.

والآخرة فيها بقوله ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحديد][1] .

وقد يكون الذكر والحذف مراعاة لواقع الحال، فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ . . . ﴿٤٤﴾ ﴾[الحج].

فإنه قال: (وكذب موسى) ولم يقل: (قوم موسى) كما قال في الأقوام الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قيل: (وكُذِّب موسى) ولم يقل: قوم موسى؟

قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط»[2].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ . . . ﴿٦﴾ ﴾[الصف].

وقولـــه:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ . . . ﴿٥﴾ ﴾[الصف].

فإنه لم يقل في عيسى: (وإذ قال عيسى لقومه) كما قال في موسى: (وإذ قال موسى لقومه) بل قال: (يابني إسرائيل) وذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن له نسب فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أب[3] بخلاف موسى.

---

(١) البرهان ٤٥٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٠.

(٣) معترك الأقران ٣/ ٥٣٠.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[الشعراء].

ولم يقل: (أخوهم شعيب) كما قال فيمن قبله من الأنبياء: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[الشعراء] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[الشعراء] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[الشعراء] وغير أولئك من الرسل، إلا شعيباً فإنه لم يقل فيه: (أخوهم) وذلك أن شعيباً ليس من أصحاب الأيكة وإنما هو أخو مدين، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الأعراف] بخلاف أصحاب الأيكة. فهو قد أرسل إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: (أخوهم شعيب) كما في سائر المواضع؟

قلت: إنَّ شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: (إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة»[1].

ومن ذلك ما ورد في قصة نوح وهو قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأعراف].

وفي قصة هود قوله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الأعراف].

فقد زاد (الذين كفروا) على ملأ قوم هود دون ملأ قوم نوح. قيل: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، فأُخرج المؤمنين من أشراف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم. جاء في (الكشاف): « فإن قلت: لم وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت : كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم: مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف. ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٥.

ونحـوه قـولـه تعـالـى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴿٣٣﴾﴾[المؤمنون] ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لاغير»[1].

وقد يكون الذكر والحذف لغير ذلك، فهناك أسباب مختلفة تدعو إلى الذكر والحذف، وكلها ترجع إلى مراعاة المقام وحسن الاختيار وذكر اللفظة في الوضع الذي يقتضيها وينادي عليها بأبلغ تعبير وأجمل صورة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[الشعراء] على لسان جميع الأنبياء الذين جرى ذكرهم في سورة الشعراء، فنوح قال لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء] وكـذا قـال هـود لقومـه (الشعراء ١٢٧)، وكذا قال صالح لقومه (الشعراء ١٦٤) وكذا قال شعيب (الشعراء ١٨٠) إلا إبراهيم وموسى فإنهما لم يقولا ذاك.

أما إبراهيم فلأن أباه كان من المخاطبين، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾[الشعراء] فاستحيا أن يخاطب أباه بذاك.

وأما موسى فلأن فرعون رباه وقد ذكر ذلك له فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾[الشعراء] فلا يليق أن يقول له: (وما أسألك عليه من أجر). ألا ترى أنه لا يليق أن يقول شخص لأبيه أو لمن رباه وأنفق عليه: (لا أسألك أجراً) فانظر إلى جمال الذوق وحسن الاختيار في التعبير. جاء في (البرهان) للكرماني أنه ليس في قصة موسى عليه السلام ذلك « لأنه رباه فرعون حيث قال: ألم نربك فينا وليداً؟

ولا في قصة إبراهيم لأن أباه في المخاطبين حيث يقول: (إذ قال لأبيه وقومه) وهو رباه.

واستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا: (ما أسألكم عليه من أجر) وإن كانا منزهين من طلب الأجرة»[2].

---

(١) الكشاف ١/ ٥٥٤.

(٢) البرهان ٣٥٣.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[المائدة].

وقولـه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾[إبراهيم].

فزاد في آية المائدة: (ياقوم) ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عددّ عليهم النعم الجسام في أن جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين، فحسن نداؤهم بـ (ياقوم) وذلك أن الإنسان يحب أن ينتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[المائدة].

فناداهم بـ (ياقوم) عطفاً لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليف بأمر، وإنما فيها تذكيرهم بما مر عليهم من محن وعذاب. وفرقٌ بين الحالتين.

ومن جهة أخرى أن سياق قصة موسى في سورة المائدة أطول مما في سورة إبراهيم، فزاد (ياقوم) لمناسبة طول القصة في سورة المائدة. وهذا خط واضح في التعبير القرآني فاقتضى كل ذلك هذه الزيادة في سورة المائدة دون سورة إبراهيم والله أعلم.

جاء في (البرهان) للكرماني أن « تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به. ولما كان ما في هذه السورة نعماً جساماً ما عليها من مزيد وهو قوله: ﴿ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ صرح فقال: (ياقوم). ولموافقة ما قبله لما بعده من النداء وهو قوله:

(ياقوم ادخلوا) (يا موسى إن فيها) (يا موسى أنا) ولم يكن ما في إبراهيم بهذه المنزلة فاقتصر على حرف الخطاب »[1] .

ومن لطيف الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[التوبة].

وقولـه:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

فزاد في الآية الثانية قوله: (والمؤمنون) بخلاف الآية الأولى وذلك أن الآية الأولى في المنافقين، وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ولا يعلم المؤمنون بهم إلا من أطلعه رسول الله عليه، فلم يقل: (والمؤمنون) لأن المؤمنين لا يرون أعمالهم بخلاف الآية الثانية فإنها في طاعات المؤمنين وهي ظاهرة للجميع ففرق بين الجماعتين.

قال تعالى في الطائفة الأولى وهم المنافقون: ﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[التوبة].

وقال في الجماعة المؤمنة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

جاء في (البرهان) للكرماني في هاتين الآيتين أن « الآية الأولى في المنافقين ولا يطّلع على ما في ضمائرهم إلاّ الله

---

(١) البرهان ١٤١ وانظر درة التنزيل ٩٧، ملاك التأويل ١/ ٢٥١.

تعالى، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليهما لقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

والثانية في المؤمنين. وطاعات المؤمنين وعاداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين. وختم آية المنافقين بقوله: (ثم تردون) فقطعه عن الأول لأنه وعيد.

وختم آية المؤمنين بقوله: (وستردون) لأنه وعد فبناه على قوله: (فسيرى الله)»[1].

وجاء في (درة التنزيل) أن الآية الثانية: « فيمن أمر الله تعالى نبيه ﷺ وهو الذي أوجب عليهم الصدقات بأن يقول لهم: اعملوا ما أمركم الله به من الطاعات كالصلوات والصدقات فإن الله ورسوله والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمال مما ترى بالعين خلاف أعمال المنافقين التي تقتضي لهم النفاق لإضمارهم خلاف إظهارهم وهو مما لا يرى بالعين وإنما يعلمه عالم الغيب، فلذلك لم يذكر المؤمنون في الأولى وذكروا في الثانية »[2].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وقال في الثانية: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، وذلك أن الآية الأولى فيها ما ليس عملاً لهم كالظمأ والنصب والمخمصة فهذه ليست من أعمالهم غير أنه تكتب لهم أعمالاً صالحة.

أما الآية الثانية فما جاء فيها كله من أعمالهم فالنفقات وقطع الوديان هي أعمال لهم ولذا لم يكن ثمة داع إلى القول: (كتب له به عمل صالح) لأنه عمل حقيقة.

---

(١) البرهان ٢١٤-٢١٥ وانظر ملاك التأويل ١/ ٤٧٣.

(٢) درة التنزيل ٢٠٣.

ثم انظر إلى خاتمة كل من الآيتين. فقد قال في ختام الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن ما تقدم ليس عملاً وإنما هو من الإحسان الذي تدخل فيه عموم العبادات.

وقال في ختام الآية الثانية: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه من أعمالهم. جاء في (البرهان) للكرماني أن « الآية الأولى مشتملة على ماهو من عملهم وهو قوله: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ وعلى ماليس من عملهم وهو الظمأ والنصب والمخمصة.

والله سبحانه وتعالى بفضله أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب فقال: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي: جزاء عمل صالح.

والآية الثانية مشتملة على ماهو من عملهم وهو إنفاق المال في طاعة الله وتحمل المشاق فكتب لهم ذلك بعينه. وكذلك ختم الآية بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن الكل من عملهم فوعدهم أحسن الجزاء عليه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حين ألحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم. ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء »[1].

وجاء في (درة التنزيل): « فلما كان ما في الثانية عملهم كتب على جهته لم يحتج إلى أن يكتب به عمل صالح لأنه هو. والأول كان فيه ماليس بعملهم فكتب به أجر مثل عملهم فلذلك كانت الزيادة في الأولى ولم يحتج إليها الأخرى.

والجواب عن المسألة الثانية وهي تعقيب الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هو أن من أخبر عنه بأنه أصابه ظمأ ونصب وجوع فقد أخبر عنه بفعل غيره به ولم يخبر عنه بفعل فعله هو. إلا أنه يجب له بما وصل إليه من ألم العطش والجوع والتعب والنصب الأجر، فلذلك عقبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أحسن طاعة الله وتعرض منها لما يلحقه فيه هذه الشدائد.

---

(١) البرهان ٢١٥-٢١٧.

وأما الآية الثانية وتعقيبها بقوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فلأن جميع ما ذكر كان عملاً لهم فوعدهم حسن الجزاء على عملهم. وذلك ظاهر والله أعلم »[1] .

ومن لطيف الذكر الذي يقتضيه المعنى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ . . . ﴿٢٨٣﴾ ﴾[البقرة] .

ولم يكتف بقوله: (إنه آثم) بل أسند الاثم إلى القلب وذلك لأنَّ الشهادة محلها القلب وكتمانها هو أن يبقيها في قلبه فنسب الإثم إلى القلب وهو تعبير بديع. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: « فإن قلت: هلا اقتصر على قوله (آثم) وما فائدة ذكر القلب، والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟

قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولايتكلم بها، فلما كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي. ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط »[2] .

ومن الذكر الذي يقتضيه المعنى أيضاً قوله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[البقرة ، الأعراف ١٦٠].

وقوله:

﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[آل عمران].

فزاد في الآيتين الأوليين: (كانوا) بخلاف آل عمران وذلك أن آيتي البقرة والأعراف في أقوام قد مضوا وهم بنو إسرائيل، قال تعالى في البقرة:

---

(١) درة التنزيل ٢٠٥.

(٢) الكشاف ٣٠٧/١.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة].

وقال في الأعراف: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأعراف].

وأما آية آل عمران فهي ليست في أقوام ماضين وإنما مثل ضربه الله لكل عصر قال تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران].

فناسب ذكر (كان) في آيتي البقرة والأعراف دون آية آل عمران . جاء في (البرهان) للكرماني أن ما في السورتين يعني البقرة والأعراف « إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا وما في آل عمران مَثَل »[1] .

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا . . . (٦٠) ﴾ [القصص].

فقد ذكر الزينة بخلاف قوله تعالى:

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . (٣٦) ﴾ [الشورى].

وقد ورد ذكر الزينة في القصص لورودها فيما بعد في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . . . (٧٩) ﴾ [القصص] بخلاف سورة الشورى فإنها لم يرد فيها مثل ذاك .

جاء في (معترك الأقران) : « فإنْ قلت: ما وجه زيادة (الزينة) في هذه الآية على آية الشورى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾؟

والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ فالتحمت الآية بتلك القصة. ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها

---

(١) البرهان ٨٨.

حال دنيوي لأحد بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها وأنه مقدور غير مبسوط. وتلك حال الأكثر»[1] .

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾[البقرة].

وقولـــه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران].

فقد زاد في آل عمران: (ولا ينظر إليهم) بخلاف البقرة وذلك لسببين:

الأول: أن آية البقرة في الذين يكتمون ماأنزل الله ويشترون بكتمانهم هذا ثمناً قليلاً. وأما آية آل عمران فليست في الذين يكتمون بل في الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً وهو ذنب أكبر وأعظم من مجرد الكتمان. إذ هم لم يكتموا الحق فقط بل غيروه وأقسموا على ذلك واشتروا به ثمناً قليلاً. فهم لم يكتفوا بالكتمان بل تجاوزوه في دعم الباطل، فلما زادوا في الذنب زاد الله لهم في العقوبة فقال: (ولا ينظر إليهم).

والسبب الثانـي: أن السياق في آل عمران في الوفاء بعهـد الله فقد قـال قبـل هـذه الآيــة:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[آل عمران]. وليس الأمر كذلك في البقرة فقد سبق هذه الآية الكلام على الميتة والدم ونحوها قال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴿١٧٣﴾ ﴾[البقرة].

---

(١) معترك الأقران ٣/ ٤٢٢.

فلما كان المقام في آل عمران هو الكلام على عهد الله ناسب تشديد العقوبة على مضيعيه أكثر مما في البقرة لأن السياق يقتضيه.

فما أجلّ هذا الكلام وأعظمه!

ونكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية وإلا فالاستقصاء بعيد المنال.

التوكيد في القرآن الكريم

من المعلوم أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها. فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام. وقد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراعاة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد. فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة.

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعياً موطناً آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به لانعدام موجبه، وترى أنه هنا أكد بمؤكدين وأكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكدات فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة. وهنا بإنَّ المشددة وفي موطن آخر بإن المخففة ويستبدل حرفاً بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن ـ وليس فيها إلا العجيب ـ ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهوراً دهشاً مقراً بعجز الخلق أجمعين عن استخلاص عجائبه فضلاً عن الإتيان بمثله.

ولنضرب أمثلة على ذلك تكون مرقاة لما فوقها ومن الله التوفيق.

١ـ لقد ذكرنا أن القرآن الكريم قد يأتي بلفظ مؤكد في موطن وينزعه في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وإذا تأملت ذلك وجدت أنه وضع كل تعبير في موطنه اللائق به.

أ ـ فمن ذلك مثلاً الإتيان باللام التي تفيد التوكيد وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل].

وقولـه:

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[الزمر].

وقولـه:

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[غافر ـ المؤمن].

فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: (فلبئس مثوى المتكبرين) دون الآيتين الأخريين إذ قال فيهما: (فبئس مثوى المتكبرين) وذلك أنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في آيتي الزمر والمؤمن، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[النحل].

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في السورتين الأخريين، فناسب ذلك أيضاً ذكر اللام والزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وتبسّط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة. جاء في (درة التنزيل): « للسائل أن يسأل فيقول:

ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله: (لبئس) فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟

الجواب أن يقال: إنَّ الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين: قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[النحل].

وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً. ومَنْ هذه صفته اختير عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه فاختيرت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[النحل] فاللام في: (لنعم) بإزاء اللام في: (لبئس). وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن لأنهما في ذكر جملة الكفار قال الله عز من قائل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا . . . ﴿٧١﴾ ﴾[الزمر] وقال في سورة المؤمن: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[غافر] إلى قوله : (ادخلوا) فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حملوا[1] عليها ولم يذكر مَن سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقالاً مع أثقالهم، حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام »[2].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل].

وقولــه:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام].

فأكد ذلك باللام في حين قال:

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف].

فلم يؤكد باللام.

---

(١) كذا في المطبوع ولعل الصواب (حصلوا).
(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

وسر ذلك والله أعلم أن السياق في آيات الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف].

فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لـم يؤكد الآخرة باللام، بل أكد سرعة العقاب لأنه عاجلهم في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وكذلك آية النحل فالسياق فيها يتحدث عن الدار الآخرة قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا

كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، فأكدها باللام بخلاف آية الأعراف[1].

ومن ذلكذ قوله تعالى:

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ... ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل].

فلم يذكر اللام في جواب (لو) في الآية الأولى بخلاف الثانية، وذلك لأن هداية الناس أصعب وأعسر من الإهلاك. فإهلاك الألوف وألوف الألوف ممكن بوسائل الفتك والتدمير والظواهر الطبيعية، ولكن هدايتهم عسيرة، فجاء باللام لما هو شاق عسير ونزعها مما هو أيسر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ... ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف] وهذه نظيرة آية الإهلاك السابقة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً... ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف]. فنزع اللام من الآية الأولى لأن فعلها أيسر من الآية الثانية، فأكد ما هو أعسر وأشق وإن لم يكن على الله شيء عسير.

ونحوه قوله تعالى:

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ... ﴿٤٧﴾﴾ [يس].

فإنه أيسر من قوله:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا

---

(١) انظر معاني النحو ١/٣٤٢ وما بعدها.

يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ [يس] فالإطعام أيسر من المسخ[1]. فجاء باللام في الموضع الذي تستحقه، ونزعها من الموضع الذي لا يقتضي ذكرها.

ومن طريف ذلك قولــه تعالــى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[الواقعة].

فقال في آية الزرع: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ باللام في: (لجعلناه)، وقال في آية الماء: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فلم يذكر اللام وذلك لسر لطيف وهو أنه ذكر عمل الإنسان في الحراثة والزرع وبذل الجهد فيهما فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الواقعة] فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر بذل جهد فيه للإنسان بل قال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الواقعة] فآية الزرع ذكر فيها بذل الجهد والعمل، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئاً.

ثم إنّ الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهداً ومراقبة حتى إذا استوى زرعه على سوقه وحان وقت الإستفادة منه أصبح حُطاماً، كان ذلك أشق شيء عليه لأنه يرى عمله وكدّه وإنفاقه ذهب هباءً وضاع سُدىً، ألا ترى إلى قوله تعالى فيما بعد: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[الواقعة]. ومعنى (تفكهون): تندمون على اجتهادكم فيه[2] وتذكرون الحرمان بعد التعب، والمغرم: المثقل بالديون.

ثم انظر إلى فداحة الخسارة الاقتصادية بصيرورة الزرع حطاماً وما ينتج عن ذلك من كوارث جسام تحيق بالبشرية.

---

(١) انظر معاني النحو ـ لو.

(٢) تفسير البيضاوي ٧١٢.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقطير أو بغير ذلك من وسائل التحلية فيكون صالحاً للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، أما الحطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر. فانظر الفرق بين الحالين.

فوضع اللام في الموضع الذي يقتضيها. جاء في (الكشاف): «إن هذه اللام إنما أدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. . . ولهذا قدمت آيـة المطعوم على آيـة المشروب»[1].

يدلك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾[الشعراء]. وقال: (كلوا واشربوا) في آيات عدة من القرآن الكريم[2] بتقديم الأكل على الشرب، وههنا قدم الحراثة والزرع على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعوم دون المشروب.

وجاء في (روح المعاني) نقلاً عن (المثل السائر) : « إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب. وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق.

وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد. فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره. إنتهى »[3] .

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٧.

(٢) انظر البقرة ٦٠، الطور ١٩، الحاقة٢٤، المرسلات ٤٣.

(٣) روح المعاني ٢٧/ ١٤٩.

ب - ونحو ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يقتضيها وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[البقرة].

وجاء هذا التعبير في الأنعام - الآية ١١٤ وفي سورة يونس - الآية ٩٤. غير أنه قال في سورة آل عمران:

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[آل عمران].

فأكد الفعل (تكون) في سورة البقرة والأنعام ويونس دون آية آل عمران. وذلك أن المقام يقتضي التوكيد في كل موطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكّد فيه. فقد أكد في سورة البقرة لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان. قال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[البقرة]. وقال: ﴿ . . . وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ . . . ﴿١٤٣﴾ ﴾[البقرة].

ثم ذكر أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جئتهم بالآيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴿١٤٥﴾ ﴾[البقرة].

ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

وأما في آية آل عمران فليس الأمر كذلك فقد قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[آل عمران].

ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ماليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.

وكذلك السياق في آية يونس فإنه يقتضي التوكيد فقد قال تعالى:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥)﴾[يونس].

فلما قال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ احتاج إزالة الشك إلى التوكيد. ثم انظر إلى المؤكدات في السياق وهي:

١- التوكيد بالقسم وقد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢- التوكيد بالنون في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

٣- التوكيد بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾[يونس] فاقتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.

وكذلك ما جاء في آية الأنعام، فإن السياق فيها في تكذيب الرسول وعدم الإيمان به حتى قال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾[الأنعام].

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾[الأنعام].

فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألاّ يكون من الممترين، فأكد في الموطن الذي اقتضى ذاك بخلاف مالم يقتض ذاك.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾[آل عمران].

وقولـه:

﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ ﴾[غافر].

فقد أكد النهي في آل عمران بالنون فقال: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بخلاف آية غافر. وذلك أن المقام في آل عمران يقتضي التوكيد، إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يبطش بهم ويفتنهم عن دينهم وينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم. قـال تعالـى:

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾[آل عمران].

وقـال: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ... ﴿١٩٥﴾ ﴾[آل عمران].

فاقتضى ذلك تأكيد عدم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد وسيطرتهم عليها، في حين لم يكن السياق في شيء من ذلك في (غافر) فلم يحتج إلى التأكيد والله أعلم.

ج - ونحو ذلك التأكيد بـ (إن) وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾[آل عمران].

وقولـه:

﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[النساء].

وقولـه:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾[المائدة].

فأنت ترى أنه في الآيات الثلاث لم يؤكد المغفرة بل قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في حين قال:

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا۟ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا۟ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾[البقرة].

وقـال:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨٢﴾ [البقرة].

بتوكيد المغفرة فيهما فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه، وإيضاح أن المقام في آيات آل عمران هو في إذلال الكافرين وكبتهم وقطع طرف منهم حتى قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾[آل عمران] فلا يناسب ذلك توكيد المغفرة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة المائدة فإنها في سياق التهديد للذين يقولون: إنَّ الله ثالث ثلاثة، وقد توعدهم بأنهم إن لم ينتهوا عن القول بذلك فسيمسبهم عذاب أليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذاك. فالمقام ـ كما ترى ـ مقام التهديد والتوعد وليس مقام توكيد المغفرة.

ونحوه جاء في سورة النساء فهو في سياق إقامة الحد على من يأتي الفاحشة. وأظن أنه من نافلة القول أن نذكر أن هذا ليس مقام توكيد المغفرة

أيضاً، بخلاف آية البقرة الواردة في سياق الحج وفي مناسكه وشعائره فقد قال: ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾.

وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله من المقامات من الوضوح بمكان وأن هذا المقام أولى المقامات بتوكيد المغفرة. وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن: « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، و: «أن الله يباهي الملائكة بأهل عرفة ويشهدهم على أنه قد غفر لهم».

إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة، وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فأي المقامين أحق بتوكيد المغفرة؟!

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢ ﴾[البقرة].

فالمقام هذا مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم. أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟

وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرّا: مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح هذا وحفظ الحقوق، ثم احكم أيهما ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بيناً شافياً. ثم بعد ذلك انظر أي الكلام هذا؟

د ـ ومن هذا الباب التوكيد بالحروف الزائدة. فإنه من المعلوم أن ما يسمونه بالحروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب.

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ ﴾[فصلت].

وقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨ ﴾ [الزخرف].

وقال: ﴿ . . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا . . . ٧١ ﴾[الزمر].

فزاد (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، وذلك لأن شهادة السمع والأبصار وسائر الجوارح « من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء.

الاترى استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا؟) فأجابوا بأن قالوا: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وليس كذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب . . . وكذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ أي: قال الآدمي لقرينه من الجن اللذين اشتركا في الدنيا في معصية الله ثم اشتركا في العذاب في الآخرة: ليتني لم أتبعك وكان بعد ما بين المشرقين بيني وبينك.

وهذا أيضاً مما يتوقع كونه منهما، ثم يتبرى بعض من بعض فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه »[1] .

ثم إنّ شهادة السمع والأبصار والجلود أمر مستغرب بخلاف فتح الأبواب ونحوه فأكده لذلك .

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾[البقرة ٢٨٢].

زيدت (ما) مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[البقرة ٢٨٢].

وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[البقرة ٢٨٢].

وذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتكاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج إلى التوكيد[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الزخرف].

فقال في آية الحج: (ما ليس به علم) وقال في الزخرف: (ما لهم بذلك من علم) فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان.

---

(١) درة التنزيل ٤١٧-٤١٨.

(٢) انظر (معاني النحو) ٤/٤٧٨.

فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم ولا معرفة. والتمييز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.

وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقَدَر قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم... ﴿٢٠﴾﴾[الزخرف]. والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ قدم في المعرفة.

فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى أنه أثر عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج الموطن هنا إلى توكيد العلم بخلاف الموطن السابق، ولذا قال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فنفى عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾[الأنعام].

وقوله:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[البقرة].

وقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾[الرعد].

فقال في آية الأنعام: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ﴾. وقال في آية البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بزيادة (من) المؤكدة، وكذا في آية الرعد.

وسبب ذلك أن آية الأنعام في الكلام على الذين يخافون أن يحشروا إلى الله ليس لهم من ولي. وهم على كل حال مؤمنون بهذا اليوم ترجى لهم التقوى بخلاف سياق الآيتين الأخريين. فقد ذكر في آية البقرة أن اليهود والنصارى لن ترضى عن الرسول حتى يترك دينه ويتبع ملتهم، وهذا كفر صريح وانسلاخ من الدين، ولذا عقب عليه بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي: إنْ فعل ذلك ماله من الله من ولي ولا نصير.

فالفرق واضح بين المقامين فاحتاج الكلام في آية البقرة إلى توكيد نفي الولي والنصير دون آية الأنعام.

وكذلك المقام في آية الرعد.

هـ - وقد يأتي بألفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك، ويتركها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها. فإذ دققت النظر وجدت أنه استعمل كل لفظة في المكان اللائق بها. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ... ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

وقولـه:

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ... ﴿٣٩﴾﴾[الأنفال].

فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف البقرة وذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم[1].

قـال تعالـى في سورة البقرة: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١١٧ وما بعدها.

انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[البقرة].

ألا ترى إلى قولـــه: ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾، والمسجد الحرام في مكة. ولم يذكر القتال عند المسجد الحرام في سورة الأنفال بل جعله عاماً فقـــال:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الأنفال].

فلما كان القتال ههنا عاماً عمم الدين فقـــال: (كله).

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ «أي من مكة وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح»[1].

هذا ومن ناحية أخرى حصر القتال في سورة البقرة بصد العدوان فقـــال: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة] . فلما كان القتال محدوداً باديء ذي بدء لم يأت باللفظة الدالة على العموم بل قال (ويكون الدين لله) بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخصص القتال برد العدوان بل أطلقه فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . . . ﴿٣٩﴾ ﴾[الأنفال] فلما أطلقه في الأنفال وعممه، جاء باللفظة الدالة على الشمول وهو لفظ (كل) أي: جميعه. فأنت ترى أن لفظة (كل) في آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين:

الأولى: أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً مع أهل الكفر.

---

(١) الكشاف ١/ ٢٦٠.

الثانية: أن القتال في البقرة مخصوص بصد العدوان وفي الأنفال عام. فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة.

ثم انظر إلى ختام كل من الآيتين فقد قال في ختام آية البقرة: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾.

وقال في ختام آية الأنفال: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) ﴾ وذلك أنه لما كان الكلام في البقرة على الاعتداء فقال: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾[البقرة] وقال بعدها: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ . . . (١٩٤) ﴾[البقرة] ناسب أن يقول: ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

وأما في آية الأنفال فالمقصود أن تكون السيطرة للإسلام، وليس معناه دخول أهل الأديان كافة في الإسلام بحيث لا يبقى أحد منهم على دينه، بل ربما بقي من أهل الملل الأخرى من بقي على دينه في حكم الإسلام فقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: إذا كادوا فإن الله بصير بكيدهم.

و - ومن ذلك استعمال ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعمالاً حسبما يقتضيه السياق والفن.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾[فصلت].

وقوله:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾[الأعراف].

فأكد في سورة (فصلت) بضمير الفصل، وعرّف السميع العليم فقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، وترك ذلك في سورة الأعراف. هذا وإن سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به فقد قال في سورة فصلت:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

وقال في سورة الأعراف:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[الأعراف].

فأنت ترى أنه طلب في سورة فصلت أن يقابل السيئة بالحسنة، وهذا أمر شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلها، فإذا أرادوا أن يحسنوا عفوا عن المسيء. أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق على الإنسان عسير عليه، فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق ويثبطه عن الإحسان إلى المسيء ولذا قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء إليك. ولذا أكد وعرّف في سورة فصلت فقال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وترك ذاكَ في سورة الأعراف. فوضع كل تعبير في المكان الذي يقتضيه.

جاء في (درة التنزيل): « لسائل أن يسأل عن التوكيد في سورة حم السجدة في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وتعريفه الصفتين بالألف واللام وترك التوكيد بقوله هو وترك[1] التعريف في: سميع عليم من الأعراف.

والجواب أن يقال: إنَّ الذي في سورة السجدة لما كان بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظة عدوه بالملاينة استكفافاً لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل فيصير وإن كان عدواً كأنه صديق قريب القربى، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) في المطبوع (وهو ترك) وما ذكرناه أشبه بالصواب.

﴿صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ . . . فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أولياءه شاقاً عظيماً حتى قـال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ. . .

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف] ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة، بل كان ما هناك بعثاً على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو أنـه «سميع عليم»[1].

ونحـو ذلك قولـه تعالـى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[الحج].

وقولـه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] .

فـأنت تلاحـظ تشابـه الآيتيـن إلا في وجود ضمير الفصل في آيـة الحج (هـو الباطـل) وخلوها منه فـي آيـة لقمان (الباطـل). وسياق كـل مـن الآيتيـن يوضح ذلك.

فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسلهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾[الحج].

إلى أن يقول : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾[الحج].

---

(١) درة التنزيل ٤١٩-٤٢٠.

وهذا من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت. فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾[لقمان].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[لقمان].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾[لقمان].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف. فهم في الصورة الأولى ساعون معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض نتيجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورهبة. فاقتضى السياق توكيد أن ما هم عليه هو الباطل.

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجَّة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه.

فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾[الحج].

ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج. جاء في (ملاك التأويل): « أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير

المنفصل، ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم. وأوضح هذا التكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[الحج] وقوله في آخر السورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴿٧٣﴾﴾[الحج] هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴿٣٠﴾﴾[لقمان] »[1] .

فانظر رعاك الله سمو هذا التعبير ورفعته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة].

وقوله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة].

فقد جاء في الآية الثانية بضمير الفصل: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون الآية الأولى وذلك لجملة أسباب منها:

١ـ أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها. فلما زاد ذلك زاد في توكيد الفوز.

ثم انظر كيف عدل عن قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فجاء بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٢٤.

والتي هي أقوى من الفعلية وآكدُ، فناسب كل ذلك توكيد الفوز وعظمه.

٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن فقال: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة، فناسب ذلك أن يزيد في توكيد الفوز.

٣- ومن ناحية أخرى أنه ذكر (من) في الآية الثانية دون الأولى فقد قال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. ومعنى (من) هنا الابتداء أي: أن الأنهار تتفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال فيها: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فإنه ذكر أن الأنهار تجري تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كل ذلك زيادة ضمير الفصل لتوكيد الفوز وعظمته. فسبحان الله العظيم ، ما أجل هذا الكلام وما أعظمه وما أفخمه!

ثم انظر إلى دقيقة أخرى في هذا التعبير، وهو أنه حيث ذكر الجنات في القرآن قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بذكر (من) إلا في هذا الموطن فقال: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات ووردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم ففيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين). أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم، فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.

جاء في (درة التنزيل): أن « الذي أخبر عنهم بأنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم. و (من) لإبتداء الغاية، والأنهار أشرف مباديها، والجنات التي مباديها الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها. فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء. والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء. ألا ترى إلى قوله في سورة التوبة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. . . ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة].

إذ لا موضع في القرآن ذكرت فيه الجنات وجري الأنهار تحتها إلا وقد دخلتها (من) سوى الموضع الذي لم ينطق ذكر الموعودين فيها على الأنبياء عليهم السلام. فهذا الكلام في (من تحتها). اعتبروا بما ذكرت في جميع القرآن»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿٥١﴾﴾[آل عمران].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿٣٦﴾﴾[مريم].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿٦٤﴾﴾[الزخرف].

فزاد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، وذلك أن آية الزخرف قيلت في سياق عبادة عيسى وإتخاذه إلهاً بخلاف غيرها، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له. جاء في (ملاك التأويل): « وأما زيادة الضمير الفصلي في سورة الزخرف فيحرز مفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية قبله. وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾[الزخرف] إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾[الأنبياء] تعلق بها الكفار وقالوا: قد عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون، فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا. وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[الأنبياء]. . . فلما كان تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (آآلهتنا خير أم هو) يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله حاكياً عن المسيح عليه السلام:

---

(١) درة التنزيل ١٠٢-١٠٣.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ . . . فأحرز هذا المعنى. ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ماورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير المحرز كما ذكرنا»[1].

٢ـ وقد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد وهي أن يختص حرفاً بالدلالة على التوكيد دون نظيره، وذلك كاستعمال الهمزة وهل واستعمال حروف النفي فهو يستعمل (هل) للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل (ما) للتوكيد دون (ليس)، ويستعمل (إن) آكد من (ما) بطريقة فنية عجيبة.

فمن ذلك على سبيل المثال قولـه تعالـى:

﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[الحج].

وقولـه:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴿٦٠﴾ ﴾[المائدة].

وقولـه:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[الشعراء].

وقولـه:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[الكهف].

فاستعمل الهمزة و (هل) مع الفعل (نبأ)، وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وآكدُ في الاستفهام، ويبين ذلك السياق.

قـال تعالـى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[الحج].

فاستعمل الهمزة.

وقـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن

---

(١) ملاك التأويل ١/١٦٣-١٦٤.

قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾[المائدة].

فاستعمل (هل).

والفرق واضح بين السياقين، فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيتاً لا تجده فيما قبله. فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلاة هزواً ولعباً. وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال (أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل). ويمضي في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف.

وليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها، ولذا جاء في الأولى بالهمزة: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ وفي الثانية بهل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ؟﴾.

ونحوه ما جاء في آية الشعراء ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[الشعراء].

إلى أن يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[الشعراء].

فأنت ترى في السياق قوة وشدة بالغة في الرد على الكفرة المفترين فاستعمل لذلك (هل).

ونحوه ما جاء في سورة (الكهف) فقد قال:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾[الكهف].

فإن قوة التبكيت وشدة التقريع واضحة في السياق، فاستعمل لذلك (هل) ولم يستعمل الهمزة.

وكذلك استعمال (إن) و (ما) النافيتين فيستعمل (إن) لما هو آكد، فمن ذلك على سبيل المثال قولـه تعالـى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾[الأنعام].

وقولـه:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) ﴾[الأحقاف].

فقال في الآية الأولى: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقال في الثانية: ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. والأولى آكد يدل على ذلك السياق فقد قال فيها:

١ـ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢ـ وفي آذانهم وقراً.

٣ـ وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

فأنت ترى أن درجة التكذيب أشد مما في الآية الأخرى، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها بـ (إن) بخلاف الثانية.

وقـال تعالـى:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾[الجاثيـة].

وقـال:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا

﴿لَخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[المؤمنون].

فقـال في الآيـة الأولى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

وقـال في الثانيـة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

وواضح أن التكذيب في الآيـة الثانيـة أشد وأقوى من وجوه:

١ـ فقد أسند التكذيب والإنكار في الآيـة الأولى إلى ضمير الكفرة: (وقالوا). وأما في الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. فهـذه صفات تزيد فـي قوة التكذيب بخلاف الآية الأولى التي قـال فيها: (وقالوا).

٢ـ المجادلـة فـي صدق الرسل: فقـد ذكـر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهـم يأكلـون كمـا يأكـل الناس ويشربـون كمـا يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.

٣ـ السخريـة من الوعد بالحياة الأخرى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾.

٤ـ الاستبعاد المؤكـد في قولهم: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

٥ـ ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

فكان طبيعياً أن يكون إنكارهم أشد وآكد مما في الآيـة الأولى، ولذا جاء بإنْ وإلاّ وهو المناسب للسياق بخلاف الآيـة الأخرى، فإنـه جاء بما وإلاّ لأنـه أقل توكيداً وقـال تعالـى:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾[الاحقاف].

وقال:

﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[الشعراء].

فقال في الآية الأولى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾.

وقال في الثانية: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ ﴾.

ومن الواضح أن الآية الثانية في مقام المحاربة والمجادلة والجهاد في القول والتنقيص من المؤمنين، بخلاف الآية الأولى فإنها في مقام الدعوة الهادئة المبينة بالحجة. يدل على ذلك في الآية الثانية:

١ـ وصفهم المؤمنين بالارذلين.

٢ـ طلبوا طردهم فردّ عليهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

٣ـ تحذيرهم نوحاً والطلب إليه الكفّ عن الدعوة وإلاّ رجموه (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين).

وأنت ترى أن المقام في الآية الأولى يختلف عنه في الثانية فجاء في الثانية بإن وإلاّ وجاء في الأولى بما وإلاّ[1].

٣ـ وقد يستعمل طريقة أخرى للتوكيد وهي تكرار اللفظ الذي يريد توكيده، وذلك حسبما يقتضيه موطن الكلام وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[آل عمران].

---

(١) انظر معاني النحو ـ باب الاستفهام وباب النفي.

وقولــه:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[آل عمران].

فلم يكرر لفظ الطاعة. في حين قــال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ . . . ﴿٥٩﴾ ﴾[النساء].

وقــال:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾[المائدة].

وقــال:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[النور].

وقــال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾[محمد].

وقــال:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾[التغابن].

فكرر لفظ الطاعة فقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾.

والملاحظ أن ما لم يتكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق فيه لله وحده، ولم يذكر فيه لفظ الرسول ولا أية إشارة إليه، فمن ذلك ما جاء في (آل عمران ـ٣٢) فقد ذكر أن الأمر كله لله وبيده قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[آل عمران].

وقــال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[آل عمران].

وكــرر هذا المعنى فقــال:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾[آل عمران].

إلى أن ذكــر الآيــة الكريمــة. فأنت ترى أن المقام مختص بالله وحده فذكر طاعة الله وجعل طاعة الرسول تبعاً لها.

وكذلك آيــة آل عمران ١٣٢ فلم يكرر فيها لفظ الطاعــة فقد قال قبلها:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[آل عمران].

في حين كرر لفظ الطاعة في الآيات الأخرى لأن السياق يقتضيها ـ ففي آية النساء ٥٩. جعل طاعة الله وطاعة الرسول أصلية ليفصل بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، فَهُما ليستا بنفس المنزلــة ثم قــال: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول) فالرسول مرجع للفصل بخلاف أولي الأمر. ثم قــال بعدهــا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾[النساء].

فقد جعل الرسول مرجعــاً كالقرآن، ثم قرر حكماً ثابتاً فيما بعد فقــال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ... ﴿٦٤﴾ ﴾[النساء].

فأنت ترى أن المقام ههنا مقام تبيان طاعة الرسول فكررها لما كان السياق يقتضيها. وكذلك ما جاء في سورة النور الآيــة ٥٤، فقد تكرر ذكر الرسول وذلك قولــه:

﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[النور].

ثم انظر كيف قــال فيما بعد: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[النور].

فجعل طاعة الرسول مقترنة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فأنت ترى أن السياق يؤكد لفظ طاعة الرسول.

وكذلك ما جاء في سورة محمد ـ الآية ٣٣ فقد ورد لفظ الرسول وطاعته وعدم مشاقته فقد قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾. وكذلك ما جاء في التغابن فقد ختمها بقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾[التغابن]. هذا وإن كل آية ختمت بمثل هذا التعقيب كرر فيه لفظ الطاعة للرسول.

فانظر دقة هذا التعبير وسُمُوَّه.

ونحوه قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأعراف].

وقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[هود].

فقد قال في آية الأعراف: ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾، وقال في هود: ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ فزاد: (هم) للتوكيد، وذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله. فقد قال في الأعراف:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ . . . ﴿٤٦﴾ ﴾[الأعراف ٤٤ ومابعدها].

وقال في هود: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا

﴿كَانُوا يُبْصِرُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝﴾[هود].

فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً. وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة (هم)، وزاد لهم في العذاب فقال (يضاعف لهم العذاب)، وزاد في صفة الخسران فقال (هم الأخسرون).

فانظر إلى جلال هذا التعبير وسموه.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝﴾[آل عمران].

وقوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝﴾[فاطر].

فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر، ولم يذكرها في آية آل عمران، ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، والمقام في (فاطر) يقتضي هذا التأكيد إذ هو في مقام الإنذار والدعوة والتبليغ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝﴾[فاطر].

فلما كان المقام مقام إنذارٍ وتبليغ كرر الباء فقــال: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾. لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة و التبليغ.

وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث تاريخية معينة. قــال تعالــى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[آل عمران].

فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ ليس المقام يقتضي ذلك.

ومما يقتضي التوكيد أيضاً في (فاطر) قوله تعالى: (وإن يكذبوك) بصيغة المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران، فقد قال: (وإن كذبوك). فإن في آيــة فاطر من الاستمرار على التكذيب ماليس في آية آل عمران، فاقتضى التوكيد، ولذا عقب بعد ذلك بقولـه: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

وقـد تقول : ولم ورد الفعل بصيغة المضارع في (فاطر) وبصيغة الماضي في آل عمران؟

والجواب: أن التكذيب في سورة آل عمران منصبّ على ذكـر حادثة تاريخية معينة، هي الآيـة التي ذكرناها أعني قولـه تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ... الآية﴾.

وأما في (فاطر) فالكلام في سياق الهدايـة والاستجابـة فالمقام مقام تبليغ الرسالة ومقام الدعوة. فلما كان المقام في آل عمران تعقيباً على أمر تاريخي انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال: (وإن كذبوك).

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قـال: (وإن يكذبوك) بصيغة الفعل المضارع الدال على التكرار والاستمرار لأن الدعوة مستمرة والتبليغ والإنذار مستمران متكرران. فجاء لكل مقام بما يناسبه.

ومما يقتضي التأكيد في (فاطر) أيضاً ذكر تاء التأنيث دون آية (آل عمران) فقد قال في (فاطر): (جاءتهم رسلهم) بذكر التاء مع الفعل (جاءتهم) وقال في آل عمران: (فقد كذب رسل من قبلك) بدون تاء فلم يقل: (فقد كذبت). وذكر التاء في مثل هذا الموطن كما هو معلوم يفيد الكثرة، فاقتضى ذلك التوكيد في فاطر لكثرة المكذّبين دون آل عمران.

وقد جاء في (البرهان) للكرماني وغيره أن سبب الاكتفاء بباء واحدة في آل عمران وذكر ثلاث باءات في فاطر أن الكلام في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، ومن ذلك أن الفعل الذي جاء في جواب الشرط مبني للمجهول ولم يسم فاعله[١].

وهذا سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها، فإن التفصيل واضح في آية فاطر بخلاف آية آل عمران. ومما يدل على ذلك:

١- بناء الفعل للمجهول في آية آل عمران (كُذِّبَ) في حين ذكر الفاعل في آية فاطر فقال: (فقد كذب الذين من قبلهم).

٢- قوله في فاطر: (جاءتهم رسلهم) بذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في آل عمران: (جاؤوا) بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.

٣- ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) وحذفها في آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في آل عمران.

٤- صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في آل عمران فقد قال في (فاطر): (وإن يكذبوك) وقال في آل عمران: (وإن كذبوك).

كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل في فاطر دون آل عمران، فدل على أن تكرار الباء في (فاطر) أليق.

---

(١) انظر البرهان ١٢٤- ١٢٥، درة التنزيل ٧٥.

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، فإن كلاً من مقامي التفصيل والتوكيد يقتضي تكرر الباء، فكيف بهما إذا اجتمعا فانظر أي كلام هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ. . . ﴿٧﴾﴾[البقرة].

فكرر (على) مع السمع. جاء في (الكشاف) : « فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في (وعلى سمعهم)؟

قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة. وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين »[1] .

٤ـ وكما يؤكد القرآن التعبير قد يخففه إذا اقتضى المقام ذلك، وذلك كأن يأتي بـ (إن) المخففة ونون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه السياق ومقتضى الحال فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[يوسف].

﴿ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾[يوسف].

وهذا الكلام قاله أخوه يوسف والكلام موجه في الآية الأولى إلى أخيهم يوسف وفي الثانية إلى أبيهم.

وأنت ترى أن إخوة يوسف قالوا لأخيهم: (وإن كنا لخاطئين) بـ (إن) المخففة، وقالوا لأبيهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ بالمشددة. وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساؤا إليه إساءة مباشرة ـ أعني يوسف ـ كان عليهم أن يأتوا بإن المشددة للدلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم. غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة

---

(١) الكشاف ١/ ١٢٥.

التي استعملها القرآن هي المثلى. فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى توكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإن الله أكرمه بعدهم وبوأه مكانة عالية ومكن له في الأرض، وكأن فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة، بعكس ما جرت على أبيهم، فهنالك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة من دون أن يسألوها منه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. وأما أبوهم فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾[يوسف] فوعدهم بالاستغفار في المستقبل. ثم انظر كيف جاء بـ (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾[الأعراف].

وقوله:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)﴾[الشعراء].

فأنت ترى أنه قال في سياق آيات الأعراف: (وإنا لنظنك من الكاذبين) وفي سياق آيات الشعراء: (وإن نظنك لمن الكاذبين). ويظهر سياق الآيات أن

التكذيب في آيات الأعراف أشد منه في آيات الشعراء، والذي يوضح ذلك أنه في آيات الأعراف قال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ بخلاف آيات الشعراء فإنه قال: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

وأنت ترى الفرق بين القائلين ففي الآيات الاولى قول الملأ الذين كفروا. والقائلون في الآيات الثانية مختلطون، فإن فيهم الشديد التكذيب والقليل والإمّعة والخائف، فهو تكذيب مختلط لا يصل إلى تكذيب الذين كفروا خصوصاً. والذي يدل على ذلك قوله تعالى بعد آيات الشعراء: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن فيهم قلة مؤمنة، فهو نسب الكلام في آيات الشعراء إلى أصحاب الأيكة عموماً، بخلاف آيات الأعراف فإنه نسب الكلام إلى الذين كفروا خاصة.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى وكيف تعقب الرسول كلام قومه بعد كل من الآيتين يتبيّن لك ما ذكرته واضحاً، فإن هوداً عليه السلام رد على قومه بآيات عدة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[الأعراف] بخلاف آية الشعراء فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾. ومن هنا يتبين الفرق واضحاً بين التعبيرين[1].

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف:

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[يوسف].

فقال: (ليسجننّ) بنون التوكيد الثقيلة ثم قال: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ بتخفيف النون: قالوا وذلك «أن إمرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من أن يكون صاغراً»[2] فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفف حيث اقتضى تخفيفه.

٥- وكما يخفف التوكيد قد يزيد فيه إذا اقتضى الكلام ذاك. جاء في (الإتقان): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه كقوله تعالى حكاية عن رسل

---

(١) انظر معاني النحو ١/ ٣٧٥ وما بعدها.

(٢) حاشية الصبان ٣/ ٢١٢ وانظر التصريح ٢/ ٣٠٢.

عيسى إذ كُـذِّبوا في المرة الأولى: ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فأكدوا بإنَّ واسمية الجملة. وفي المرة الثانية: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[1].

يشير بذلك إلى قولـه تعالـى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾[يس].

فأنت ترى أن التكذيب والإنكار في المرة الثانية كان أشد من المرة الأولى إذ قالوا: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ وهددوهم بالرجم إن لم ينتهوا عن دعوتهم: ولذا كان الرد في المرة الثانية أقوى، ففي المرة الأولى قالوا: ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ وفي المرة الثانية قالوا: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام.

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[هود]. بدون توكيد.

وقولـه:

﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأعراف] بتوكيد الجواب.

وقولـه:

﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[الأعراف] بتوكيد الجواب وباللام الموطئة قبل الشرط.

فالثالثة آكدُ من الثانية، والثانية، آكدُ من الأولى وذلك حسبما يقتضيه السياق.

---

(١) الإتقان ٢/ ٦٤-٦٥ وانظر الإيضاح ١/ ١٨.

قال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأعراف].

وهذا في بني إسرائيل بعدما عبدوا عجل الذهب واتخذوه إلهاً لهم، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكدوا قولهم باللام الموطئة زيادة على توكيد الجواب: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وأما الآية الثانية التي هي: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف] فهي على لسان آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها.

وهذه المعصية أقل من معصية بني إسرائيل، فإن معصية قوم موسى كفر لأنه عبادة لغير الله، ولم يفعل ذلك آدم بل هو مقر بربوبية الله ومقر بعبوديته لربه، وإنما هي لحظة ضعف أدركته كما تدرك الكثير من الناس من غير أن تخرجهم عن دينهم ثم يتوبون عنها. ألم تر كيف وصف بني إسرائيل بالضلال فقال: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ ولم يصف آدم بذلك. فلما كانت المعصية أقل حذف اللام الموطئة التي تفيد التوكيد.

فالأول آكد لأن المعصية أكبر. فالتوبة وطلب المغفرة يكونان على قدر المعصية.

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود]. فهي على لسان نوح عليه السلام، وذلك أنه سأل ربه أن ينجي ابنه من الغرق، لأن الله وعده أن ينجي معه أهله فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ... ﴿٤٥﴾﴾[هود] فقال الله له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[هود].

فطلب نوح من ربه المغفرة والعفو لسؤاله هذا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود] فهذا ليس بمعصية كمعصية آدم، وإنما فهم نوح أن ابنه يدخل مع أهله الناجين، فبين الله أنه ليس من أهله لأنه كافر، فطلب من ربه المغفرة لما سأل، ولذلك لم

يأت الكلام مؤكداً. فأنت ترى أن التوكيد يتناسب وقدر المعصية. فلما لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكد كلامه. ولما كان فعل آدم معصية لربه أكده بالنون. ولما كان فعل بني إسرائيل كفراً وضلالاً أكده بالنون وباللام الموطئة، فالخسران إنما يكون على قدر المعصية ولا شك.

ثم ألا ترى كيف قدم الرحمة على المغفرة مع بني إسرائيل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بخلاف الآيتين الأخريين، فإنه قدم المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة أعمُّ وأوسع من المغفرة فإن الرحمة لعموم الخلق حتى البهائم. ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر فكلهم يعيشون في رحمة الله. فالبهائم تعيش برحمة الله، والبهائم تتراحم فيما بينها، ولا يصح وصفها بالمغفرة فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطمع له في شيء بعد. فالمغفرة تأتي بعد الرحمة وهي رحمة خاصة بالمؤمن فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة، فمن لم يرحمه ربه لا يغفر له. ومن غفر له كان مرحوماً، وليس كل مرحوم مغفوراً له، فالخلق كلهم في رحمته. ولذا قدم هؤلاء الذين كفروا وضلوا الرحمة على المغفرة، فهم كانوا أحقّاء بأن يطردوا من رحمة الله إذا ما بقوا على ذلك، ولذا طلب هؤلاء الرحمة أولاً ليكونوا كعموم الخلق الداخلين في رحمته ثم المغفرة فيما بعد. وهذا يتناسب مع كبر معصيتهم، فإنهم حذروا أن يؤيسهم ربهم من رحمته، فأرادوا أن يشملهم ربهم برحمته ليكون ذلك مرقاة إلى المغفرة، بخلاف الآيتين السابقتين فليس الأمر فيهما كذلك[1].

فانظر إلى فخامة هذا الكلام وعظمته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

---

(١) انظر (معاني النحو) ٤/ ٥٦٠ وما بعدها.

سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج].

وقولـه:

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾[لقمان].

وقولـه:

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[العنكبوت].

فقد قال في آية الحج: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾[الحج] وقال في لقمان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾[لقمان]. فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان، إذ زاد اللام فيها فأدخلها على (هو). وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطافه بهم ما لم يذكره في لقمان، وفصّل في الغنى في سورة الحج ما لم يفصله في لقمان فقد قال: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ . . . ﴿٦٤﴾ ﴾[الحج] بتكرار الاسم الموصول، وأجمل ذلك في لقمان فقال: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ . . . ﴿٢٦﴾ ﴾[لقمان]. فلم يكرر (ما). فلما فصل في الحج وزاد على ما ذكره في لقمان، زاد اللام في الحج فقال: ﴿ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾[الحج].

وأما السياق في العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان وذلك أنها في سياق الفتن والابتلاء قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت].

ثم قال: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[العنكبوت] فاختلف التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغنيّ وزيادة اللام في الحج. وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان.

ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغنيّ في العنكبوت.

وذلك أنه في الحج ولقمان ذكرٌ لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق.

وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه. وثمة فرق بين الغنيين فالأول: غنى ملك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين. وأنت ترى فرقاً بين أن تقول: إنَّ فلاناً يملك كذا وكذا ويعطي وينفق ويتفضل، وقولك: هو مستغن عن الناس: فإن معنى القول الثاني أنه مكتف وإن لم يكن غنياً، ألا ترى إلى قول الخليل:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غِنىً غير أني لست ذا مال

فهناك فرق بين المستغني عن الناس والغني المالك المتفضل.

فلما فرق بين الحالين فرق بين التعبيرين.

ثم أنظر إلى خاتمة الآي في كل منها فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطافه على خلقه قال: (الغني الحميد) أي : الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في لقمان. وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر الفتن التي نسأل الله العافية منها لم يقُل: (الغني الحميد) بل قال: (غني عن العالمين) أي: غنيٌّ عن جهادهم. فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾[الأنعام].

وقولـــــه:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾[الأعراف].

فأكد سرعة العقاب بـ (إن) واللام في الأعراف فقال: (لسريع العقاب)، أما في الأنعام فأكده بـ (إن) فقط، وذلك أن الآية في سورة الأعراف ذُكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، وأن الآية في الأنعام ذُكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة. فقد قال تعالى في (الأعراف): ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾[الأعراف].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[الأنعام].

فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بإنّ واللام، ولما أمهلهم إلى يوم القيامة في سورة الأنعام قلل توكيد سرعة العقاب لأنه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم. جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين أن «الفرق بين هذه الآية وآية الأنعام حيث أتى هنا باللام فقال: (لسريع العقاب) دون هناك، أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا توكيد سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ في سياق قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ. . . ﴿١٦٧﴾﴾[الأعراف]. فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه آجل بدليل قوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[الأنعام] فاكتفى فيه بتأكيد (إن).

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد لفظاً بإن واللام»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾[غافر].

وقولــــه:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾[طـه].

فأكد إتيان الساعة بإنّ واللام في غافر وبإنّ وحدها في سورة طه وذلك لأسباب عدة منها:

إن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم

(١) البرهان ٤/ ٦٥-٦٦ وانظر ملاك التأويل ١/ ٣٦٠-٣٦١.

﴿ بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾[غافر] ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[غافر].

أي: لا يؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها. ولذا أكدها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدها مع موسى عليه السلام.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى فقد قال تعقيباً على إتيان الساعة في سورة غافر: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[طـه].

فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف.

ومن ناحية أخرى إن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة بل إنّ جوّ السورة هو في الكلام على الساعة. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾[غافر].

وانظر الآيات من ٧٠-٧٦ فاقتضى المقام زيادة التوكيد في هذه السورة.

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «إن العرب تحرص على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه... والخطاب لقوم كفار ينكرونها. والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي ضمن كلام الله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ... ﴿١٢﴾ ﴾[طـه].

وقال: ﴿ .. وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا... ﴿١٥﴾ ﴾ [طـه] ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له. على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[طـه] - فإذا كان الأمر على ما بينا وضح الفرق بين الموضعين بالذي ذكرناه»[1].

---

(١) درة التنزيل ٤١١-٤١٢، وانظر ملاك التأويل ٢/ ٦٧٥ وما بعدها.

ومن ذلك قولـــه تعالـى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾[الشورى].

وقولـــه:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾[لقمان].

فأكد ما في الشورى بـ (إنَّ) واللام وأكد ما في لقمان بـ (إن) فقط. والسياق يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في الشورى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾[الشورى].

وقال في لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾[لقمان].

فقد أوصانا ربّنا في الشورى بشيئين: الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾. وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ﴾، والأول أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾.

جاء في (البرهان) للكرماني: إن سبب ذلك «لأن الصبر على وجهين: صبر على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قتل بعض أعزته. وصبر على مكروه ينال الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزته. فالصبر على الأول أشد والعزم عليه أوكد. وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ فأكد الخبر باللام.

وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكده باللام»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢١١﴾[البقرة].

---

(١) البرهان ٤٢٧ وانظر درة التنزيل ٤٢٧-٤٢٨.

وقولــه:

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[المائدة].

وقولــه:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾[الأنفال].

فكلها قال فيها: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بـ (إن) وحدها، في حين قال: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾[الرعد]. فأكد بـ (إن) واللام.

وقد زاد اللام في الرعد لما مرَّ قبلها من ذكر العقوبات وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ ﴾ ولما ذكر من عقوبات الكافرين: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الرعد].

وليس السياق كذلك في الآيات الأخرى ولا شيء فيه. فلما كان السياق في الرعد سياقَ العقوبات اقتضى زيادة توكيدها.

وشبيه بذلك قولــه تعالى:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾[آل عمران].

وقولــه:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾[المائدة].

وقولــه:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[الأنعام].

فكلها أكدها بـ (إن) وحدها وهو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أو (ربك) في حين قال:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[النحل].

فأكدها بـ (إن) واللام.

وسبب ذلك أن سياق آيات النحل هو في تعداد نعم الله على الإنسان ورحمته به ولطفه بخلقه، فقد ذكر خلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان من دفء وركوب وحمل للأثقال وغيرها. وذكر منافع الزروع، وذكر نعمته عليه في البر والبحر وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من النعم، فناسب ذلك تأكيد المغفرة.

وليس السياق في الآيات الأخرى كذلك ولا شيء منه فيه.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في آية الرعد في ذكر العقوبات أكد العقوبة، ولما كان السياق هنا في ذكر النعم والألطاف الإلهية أكد المغفرة فوضع كلاً في موطنه الذي هو أليق به. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[الحديد].

وقولــه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج].

فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام في الحج دون آية الحديد وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقتال الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادرٌ على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكداً ذاك: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ولا شك أن النصر يحتاج إلى قوة فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام، وقد ناسب تأكيدَ النصر تأكيد القوة.

وليس السياق كذلك في الحديد. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

فأنت ترى أنها ليست في سياق الجهاد والقتال ولا في سياق نصر الله للمؤمنين، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾. فالأولى في نصره هو لجنوده المستضعفين فأكد قوته، والثانية في نصر المؤمنين لدعوته.

فزاد في المقام الذي يقتضي زيادة التأكيد.

فسبحان الله رب العالمين. ما أجل هذا الكلام وأعظمه وأفخمه! لقد جل هذا الكلام عن أن يكون له نظير، كما جل قائله عن النظير، فإنه ليس كمثل كلامه كلام، كما أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة. أو في نحو ذلك.

وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم.

فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى.

جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[آل عمران].

فاستعمل اللفظ ()بكة بالباء في حين قال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[الفتح].

فاستعمل لفظ (مكة) بالميم وهو الاسم المشهور لأم القرى.

وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج يبكّ الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها[١].

وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني: (مكة) بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم.

---

(١) انظر مفردات الراغب ٥٧.

ولا مانع أن يكون ذلك لكلا السببين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾[النساء].

وقولـــه:

﴿ إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[الأحزاب].

فقد قال في آية النساء: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا ﴾ وفي الأحزاب: ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا ﴾، وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ... ﴾ فذكر أنّ الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا ﴾ أي: إن تُظهروا خيراً، وهو عكس الجهر بالسوء. فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير.

وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ... ﴿٥١﴾ ﴾[الأحزاب]. وقال ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الأحزاب] وختم الآية بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأحزاب] ومعنى الآية إنه يستوي عنده السر والجهر، فناسبَ أن يقول: ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ لا أن يقول: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا ﴾ هذه علاوة على مناسبة كلمة (شيء) الواقعة قبلها وبعدها، فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها.

هذا من ناحيـة.

(١) انظر (معجزة القرآن الكريم) ٦٧، ١٧٧.

ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها. ذلك أن كلمة (خير) ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة[1] ولم ترد في سورة الأحزاب إلا مرتين[2].

وأن كلمة (شيء) ترددت في سورة النساء إثنتي عشرة مرة[3] وترددت في سورة الأحزاب ست مرات[4]، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار كلمة (خير) لآية النساء وكلمة (شيء) لآية الأحزاب.

فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين: جهة المعنى والسياق. وجهة اللفظ.

فانظر أي تعبير هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۝١٩١﴾[البقرة].

وقولــــه:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۝٢١٧﴾[البقرة]

فقد قال في الآية الأولى: (أشد) وفي الآية الثانية: (أكبر) وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبيرات الأمور فقد مر فيها قوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فناسب ذكر (أكبر) فيها.

وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي في سياق الشدة على الكافرين فقد قال فيها: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

---

(١) انظر الآيات: ١٩، ٢٥، ٤٦، ٥٩، ٦٦، ٧٧، ١١٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧١.

(٢) انظر الآيتين: ١٩، ٢٥.

(٣) انظر الآيات: ٤، ١٩، ٢٠، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٥٩، ٨٥، ٨٦، ١١٣، ١٢٦، ١٧٦.

(٤) انظر الآيات: ٢٧، ٤٠، ٥٢، ٥٤ (مرتين)، ٥٥.

﴿ٱلْقَتْلِ ﴿١٩١﴾﴾[البقرة]. وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر (أشد) فيها بخلاف الآية الثانية.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ... ﴿٢٩﴾﴾[هود].

ووردت في غير هذا الموضع كلمة (أجر) بدل كلمة (مال). فقد جاء في سورة يونس على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ... ﴿٧٢﴾﴾[يونس].

وجاء على لسانه أيضاً في سورة الشعراء:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[الشعراء].

وكذا وردت كلمة (أجر) بدل كلمة (مال) على لسان غيره من الأنبياء ـ انظر: (سورة هود ٥١ وسورة الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وسورة سبأ ٤٧).

وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة (مال) وقعت بعدها كلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق»[1]. فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ... ﴿٣١﴾﴾[هود] فناسب ذكر المال ههمنا بخلاف المواضع الأخرى.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[النحل].

وقولــه:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾[المؤمنون].

---

(١) انظر البرهان للكرماني ٢٣٤-٢٣٥.

فقد قال في آية النحل: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقال في آية المؤمنون: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

وسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام. واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من قسم من الإناث. وأما في آية (المؤمنون) فالكلام على منافع الأنعام من لبن وغيره، فقد قال بعد قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[المؤمنون].

وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها صغارها وكبارها. فجاء بضمير القلة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام. فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة. وهذا جارٍ على وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ بتذكير الفعل (قال)، وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث، وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «أن الأنعام في سورة النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الدَّرَّ لا يكون لجميعها وأن اللبن لبعض إناثها فكأنه قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. ولهذا ذهب من ذهب إلى أنه رد إلى النعم لأنه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى. والمراد والله أعلم ما ذكرنا بالدلالة التي بينا.

وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنين لأنه قال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فأخبر عن النعم التي في أصناف النَّعم إناثها وذكورها فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في الأول ذلك[1].

---

(١) درة التنزيل ٢٦٨.

. ومن ذلك قولـه تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ ﴾[الفتح].

وقولـــه:

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾[الفتح].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾. قيل: وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً فقد قال قبلها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ۝٤ ﴾[الفتح] فهذا موضع علم وحكمة فقال: ﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد قوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ۝٧ ﴾[الفتح] فهذا موضع عزة وغلبة وحكم فقال: ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ ﴾[الفتح].

فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال: ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(1).

ومن ذلك قولـه تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣٧ ﴾[الروم].

وقولـــه:

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ ﴾[الزمر].

---

(1) انظر البرهان للكرماني ٤٣٩.

فقد قال في آية الروم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي آية الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾ وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات[1] وفي الزمر ست مرات[2]. ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة[3] وفي الروم عشر مرات[4]. فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في التعبير فقد جاء بفاقدي البصر في سورة الروم فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ . . . ﴿٥٣﴾﴾[الروم] وجاء بفاقدي العلم في آية الزمر فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾[الزمر].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾[النمل].

وقولــــه:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[الزمر].

فقد قال في النحل: ﴿فَفَزِعَ﴾ وفي الزمر: ﴿فَصَعِقَ﴾، وإنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾، وهو المناسب للفزع إذ معنى داخرين: صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾[النمل] فأمنهم من الفزع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

---

(١) انظر الآيات: ٩، ٢٤، ٣٧، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ٥١.
(٢) انظر الآيات: ٢١، ٣٨، ٥٨، ٦٠، ٦٨، ٧٥.
(٣) انظر الآيات: ٧،٩ (مرتين)، ٢٦، ٢٩، ٣٩، ٤٦، ٤٩ (مرتين)، ٥٢، ٧٠.
(٤) انظر الآيات: ٦، ٧، ٢٢، ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٥٤، ٥٦ (مرتين)، ٥٩.

ثم انظر مرة أخرى كيف ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من فزع في قصة موسى وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾[النمل].

وكيف ناسب ذكر الصعقة في الزمر قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الزمر] وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴿٤٢﴾﴾[الزمر].

جاء في (البرهان) للكرماني أن سورة النمل خصت بقوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ «موافقة لقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. وخصت الزمر بقوله: ﴿فَصَعِقَ﴾، موافقة لقوله: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ لأن معناه: مات»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[الحج].

وقولـــه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت].

فقد قال في آية الحج: ﴿هَامِدَةً﴾ وفي آية فصلت: ﴿خَٰشِعَةً﴾ «وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في ﴿هَامِدَةً﴾ و ﴿خَٰشِعَةً﴾.

---

(١) البرهان ٣٥٩.

أن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت. ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك، لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ . . . ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وقولـــه:

﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ . . . ﴿٧٤﴾ ﴾[التوبة].

فقد عبر في آية آل عمران بالإيمان وفي آية التوبة بالإسلام، وذلك لاختلاف حال من عني بهما «وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم، فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله ﷺ هل له من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحسن إسلامه. فكانت حاله حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً ممن عرف بنفاق، ولا أنّه أبطن خلاف ما ظهر منه من إسلامه، فكانت حاله حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان. فناسب وصفه بالإيمان وهو التصديق بالقلب.

أما آية التوبة فنزلت في الجُلَاس حين قال في غزوة تبوك: لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمر. فنُمي ذلك إلى رسول الله ﷺ فاستدعاه فحلف ما قال. وكان منافقاً معروف النفاق يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه. فأنزل الله في قضيته: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴿٧٤﴾ ﴾[التوبة] فقيل هنا: (بعد إسلامهم) مناسبة للحال»[2].

---

(١) التصوير الفني ٩٩.

(٢) ملاك التأويل ١/١٦٦-١٦٧.

ومن ذلك قولـــه تعالـــى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ ﴾[الحجر].

وقولـــه:

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ ﴾[الزخرف].

فقال في آية الحجر: (من رسول) وقال في آية الزخرف: (من نبي) وذلك أنه: « لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل. فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام.

أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخصت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم: (إنك لمجنون) وبما جرى للرسل قبله عليه السلام من مثل ذلك. ومن البيّن أن موقع (رسول) هنا أمكن في تسليته عليه السلام. فجاء كل على ما يجب من المناسبة »[1].

ومن ذلك قولـــه تعالـــى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ... ۝٨ ﴾[غافر].

وقولـــه:

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾[الشورى].

فقـــال فـــي (غـــافـــر) ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وقـــال فـــي الشـــورى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾. وذلك لأسباب عدة منها:

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٥٨٤.

١ـ أن آية غافر ذكرت جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة. فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

٢ـ ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال (ويؤمنون به) ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

٣ـ ثم إنّ قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

٤- ثم إنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك ذكر المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.

وأما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقَيِّدُ هذا العموم.

ثم إنه لما ختم الآية بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ناسب ذكر هاتين الصفتين وقصرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم.

فانظر فخامة هذا التعبير وجلاله.

ومنه قولــه تعالــى :

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ. . . ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران].

وقولــه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ. . . ﴿٢﴾﴾[الجمعة].

فقيل في الأولى: (من أنفسهم) وفي الثانية: (منهم) وذلك «أن قولك: (فلان من أنفس القوم) أوقع في القرب والخصوص من قولك (فلان منهم). فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة. أما (من

أنفسهم) فأخص فلا يفتقر إلى قرينه. ولذلك حيث ورد قصد التعريف بعظم النعمة به ﷺ وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ... ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة] وقال تعالى فيمن كان على الندّ من حال المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴿١١٣﴾﴾[النحل]. فتأمل موقع قوله هنا: (منهم) لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة فقيل هنا: (منهم)...

ولما كان لفظ الأميين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل: (منهم) فناسبت هذه الآية بما فيها من الشياع الذي مهدناه عموم الأميين من العرب ممن أسلم وممن لم يسلم. ولما قال في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فخص من أسلم ناسب ذلك قوله: (من أنفسهم) بخصوصه كما تقدم. ولم يكن العكس ليناسب»[1].

ومن هذا الباب قولـه تعالـى:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ... ﴿١٣﴾﴾[المائدة].

وقولـه:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ... ﴿٤١﴾﴾[المائدة].

فقد قال في الآية الأولى: (عن مواضعه) وفي الثانية: (من بعد مواضعه) وذلك أن الكلام في الآية على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن االرسول ﷺ والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً[2]. فقد قال في الآية الأولى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا... ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾ [المائدة].

---

(١) ملاك التأويل ١/١٧٨-١٧٩.

(٢) انظر البرهان للكرماني ١٣٨، ملاك التأويل ١/٢٤٢ وما بعدها.

وقال في الآية الثانية: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ... ﴿٤١﴾ ﴾[المائدة] فجاء في الثانية بكلمة (بعد) لأنها «قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمنة كثيرة وبزمن واحد و (عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه»[1] .

وجاء في الأولى بـ (عن) لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به. ومن بديع ذلك وطريفه قولـه تعالـى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الأنعام].

وقولـه:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾[الشعراء].

فقد ذكر (سوف) في آية الأنعام فقال: (فسوف يأتيهم أنباء...) وذكر السين في آية الشعراء فقال: (فسيأتيهم).

وذكر (الحق) في آية الأنعام فقال: (فقد كذبوا بالحق)، ولم يذكره في آية الشعراء. ولكل من ذلك سبب يدعو إليه.

أما ذكر (الحق) في آية الأنعام فإنه تردّد في هذه السورة اثنتي عشرة مرة[2] ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.

وأما ذكر (سوف) في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن (سوف) أبعد في الاستقبال من السين. ولوضع كل من سوف والسين موضعها عدة أسباب منها:

١ - أن المعنيين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾[الشعراء].

---

(١) درة التنزيل ٩١.

(٢) انظر الآيات: ٥، ٣٠، ٥٧، ٦٢، ٦٦، ٧٣ (مرتين)، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١،

وأما ما ورد في سورة الأنعام فلعموم الكافرين ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوه قبل الأباعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.

علاوة على ما في السورة من تسلية للرسول فقد قال له: لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عليك الأمر، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

٢ - ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

٣ - ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:

أ - فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول أنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۝٥٧﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾. فناسب عدم الاستعجال ذكر (سوف) ههنا.

ب - ورد في الأنعام قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۝١٣٥﴾ فذكر (سوف) ولم يذكر السين وهو الملائم للجو العام للسورة.

ـ - ثم انظر كيف قال في موطن آخر من سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝١٢﴾ فقد ذكر انه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة). وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة.

فناسب ذلك كله وضع (سوف) دون السين في الأنعام.

د ـ قال في ختام سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإنّ واللام، وأكد سرعة العقاب بإنّ وحدها، كما أنه لم يؤكدها كما أكدها في سورة الأعراف مثلاً فقد قال هناك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾[الأعراف] فأكد سرعة العقاب بإنّ واللام، وذلك لما كان الموطن في الاعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.

هـ ـ ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] فقد جاء بـ (ثم) الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾[النمل] فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

ووضع (ثم) في آية الأنعام هذه علاوة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء. فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ وختمت آية النمل بقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، والمكذب قد تعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم، ينبغي أن يؤخذ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء مع (المكذبين) بثم ومع المجرمين بالفاء. فاقتضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[النمل].

ثم جاء بالآية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾.

ثم صبَّر الرسول بعدها بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[النمل] فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[النمل] بخلاف قوله تعالى في الأنعام: (ماعندي ماتستعجلون به). فناسب كل ذلك ذكر (ثم) في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل. لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر (سوف) فيها بخلاف آية الشعراء.

فانظر هداك الله أي تعبير هذا؟

ومن هذا الباب الاختلاف في التعريف والتنكير وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴿٦١﴾ ﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿ ... وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... ﴿١١٢﴾ ﴾[آل عمران].

فعرف (الحق) في الأولى ونكره في الثانية، وذلك أن كلمة (الحق) المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل ولا غيره. أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم. فكلمة (حق) ههنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرّفة معلومة. والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لاسبب يدعو إلى القتل ولاغيره[1]. فمقام التشنيع والذم ههنا أكبر منه ثم وكلاهما شنيع وذميم.

فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم وإليك سياق كل من الآيتين:

قــال تعالــى: ﴿ ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[البقرة]. فعرّف (الحق) فيها.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/ ٧١-٧٣.

وقـال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[آل عمران] فنكر (الحق).

ومن الواضح أن موطن الذم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها:

أنه في سورة البقرة جمع (الذلة) و (المسكنة) وأما في آية آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴿١١٢﴾﴾ فجعلها عامة بقوله: (أينما ثقفوا) ثم قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك: (انهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) آكد مِنْ قولك (أنهاك عن الكبر والرياء).

ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال: (ويقتلون النبيين) وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: (ويقتلون الأنبياء) أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغيرحق.

فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتنكير في آية آل عمران أليق[1].

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴿٢٣٤﴾﴾[البقرة] فعرّف (المعروف).

وقال في آية أخرى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ... ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة]. فنكَّرَهُ.

---

(١) انظر معاني النحو ـ باب المعرفة والنكرة ـ المعرف بأل.

وذكر أن المقصود بـ (المعروف) ههنا الزواج خاصة، وأما غير المعرّف فيراد به مالم يستنكر فعله من خروج أو تزيّن ونحوه. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: ما الفائدة التي أوجبت اختصاص المكان الأول بالتعريف والباء فقال: (بالمعروف) والمكان الثاني بالتنكير ولفظة (من).

والجواب عن ذلك أن يقال: إنَّ الأول تعلق بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ... ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة]. أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده.

والثاني: المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود. فالمعروف، ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه. ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر، فجاء (المعروف) في الأول معرف اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه، فعرف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خصّ بالباء وهي للإلصاق.

والثاني كان وجهاً من الوجوه التي لهن أن يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك»[1].

---

(١) درة التنزيل ٥٢-٥٣.

ومما يدل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فقوله: (يتربصن) معناه: يصبّرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ... ﴿١٨٧﴾﴾[البقرة].

وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

ومن ناحية أخرى أنه عرف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين. بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.

ومثل هذا استعماله للفظي (الكذب) و (كذب) بالتعريف والتنكير، فاستعمل (الكذب) بالتعريف لما هو خاص بأمر معين. و (كذباً) بالتنكير لما هو عام.

قــال تعالــى:

﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾[آل عمران].

فجاء بالكذب ههنا معرفاً لأنه مخصص بهذه المسألة أي: مسألة الطعام. ومثله قولـه تعالــى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾[يونس].

فعرف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه. ونحوه قولــه تعالــى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المائدة].

فاستعمل الكذب معرفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام.

في حين قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٩٣﴾﴾[الأنعام].

فالكذب ههنا عام ولم يخصص بمسألة معينة.

ونحوه قولـــه تعالـــى:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾[يونس].

وقولـــه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ . . . ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى].

وقولـــه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[المؤمنون].

فأنت ترى أنه استعمل المعرف لأمر مخصص، في حين استعمل المنكّر لما هو عام.

ومن هذا الباب قولـــه تعالـــى:

﴿. . . فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[المؤمنون].

بتعريف (القوم).

وقولـــه:

﴿. . . فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾[المؤمنون].

بتنكير (قوم).

وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم قوم صالح فعرّفهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ...﴾ [المؤمنون: ٤١].

وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢] وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فخصهم بالنكرة[1].

ومنه قوله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فقد وردت الصفتان في الأعراف منكرتين (سميع عليم) ووردتا في (فصلت) معرّفتين وزيد قبلهما ضمير الفصل.

وذلك أنه ورد قبل آية الأعراف وصف آلهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥].

فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تسمع ولا تعي. وأما آية فصلت فقد تقدم قبلها قوله: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

---

(١) انظر البرهان للكرماني ٣٣٨، درة التنزيل ٣١٦-٣١٧.

فأثبتوا لله سبحانه قليل العلم ونفوا عنه كثيره، فاقتضى ذلك أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل والسمع الكامل، فجاء بالصفتين معرّفتين للدلالة على الكمال في الوصف، وجاء بضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن ماعداه لايعلم ولايسمع إذا ماقيس بعلمه وسمعه. ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدا هذا المعنى، إذ كل مَنْ عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم. جاء في (ملاك التأويل): «إن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وبخوا بعبادتها في في قوله في موضع آخر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾[الصافات] فوصف هنا بأنها لاتخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف] فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة البطش بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴿١٩٥﴾﴾[الأعراف].

ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلاً عما فوق ذلك، فوردت الصفتان بقوله: (سميع عليم) مورداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبدوه من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدّع، فيستدعي ذلك التوهم مفهوماً بنفيه فجاء على ما يجب.

أما آية السجدة[1] فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[فصلت] وقوله: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾[فصلت] وقوله تعالى: ﴿أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴿٢٩﴾﴾[فصلت] فحصل من هذا أن مُضِلّهم إنما كان من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر ممن ينسب إليه علم، بخلاف المتقدم ذكره في الأعراف.

فلما تقدم في سورة السجدة ما يظهر منه الغناء ويمكن أن يسمع ويبصر ويعلم، ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك من غير الموصوف

---

(١) المقصود فصلت.

بهما تعالى. ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص ليقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بـ (دليل الخطاب)، فصار الكلام في قوة أن لو قيل: الله السميع العليم لا غيره[1]».

ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يعرف اللفظة مرة بأل ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[البقرة].

وقولـه:

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾[الأعراف].

فقد عرف (الطغيان) بالإضافة وعرف (الغيّ) بأل، وذلك أنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال: (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) فالله إنما يمدهم في طغيانهم هم، ولايمدهم في طغيان جديد لم يفعلوه.

في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين فذكر أنهم يمدونهم في غي جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غياً إلى غيهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: أي نكتة في إضافته إليهم؟

قلت: فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم وأن الله بريء منه...

ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾»[2].

ومن ذلك الاختلاف في استعمال حروف العطف.

فهو يستعمل حروف العطف في غاية الدقة والجمال، فمن المعلوم أن الواو تأتي لمطلق الجمع، وأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، و (ثم) تفيد الترتيب والتراخي.

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) الكشاف ١/ ١٤٥-١٤٦.

ومعنى الترتيب أن المذكور أولاً، هو الذي حدث أولاً والمذكور بعده هو الذي حدث بعده. ومعنى التعقيب أنه حصل بعده بلا مهلة، فإذا قلت: (جاء محمد فخالد) كان معناه أن محمداً حضر قبل خالد وأن خالداً حضر بعده بلا مهلة.

ومعنى التراخي أن بينهما مهلة فقولك: (حضر محمد ثم خالد) يفيد أن حضور محمد قبل حضور خالد وأن بينهما مهلة وليس كالفاء. ومهلة كل شيء بحسبه فإذا قلت: (تزوج أحمد فولد له) كان معناه أنه لم يكن بين الزواج والولادة إلا مدة الحمل[1] أما إذا قلت: (تزوج أحمد ثم ولد له) كان معنى ذلك أن الحمل تراخى عن الزواج.

وأما الواو فكما ذكرنا لمطلق الجمع، أي: ليست للترتيب وإنما هي لمجرد الاشتراك في الحدث، فإذا قلت: (حضر أحمد وخالد) كان من الممكن أن يكون حضر أحمد قبل خالد أو خالد قبل أحمد أو حضرا معاً. وقد يكون بينهما مهلة أو لا يكون بينهما مهلة. وليس معنى ذلك أنها لاتأتي للترتيب البتة، بل قد تأتي للترتيب وغيره، فهي ليست نصاً في الترتيب ولا في غيره.

وقد استعمل القرآن ذلك ألطف استعمال وأدقه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾[عبس] فجاء في (أقبره) بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة وجاء بعده بـ (ثم) لأن النشور يتأخر عن الدفن[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٢٨﴾﴾[البقرة].

فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بثم ذلك «لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت[3]».

---

(١) انظر التصريح على التوضيح ٢/١٣٨.
(٢) انظر التصريح على التوضيح ٢/١٣٨، ١٤٠.
(٣) الكشاف ١/٢٠٨.

وشبيه بذاك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[الشعراء].

« فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية للخلق... وكان العطف في الآية الرابعة بـ (ثم) لتراخي الإحياء عن الإماتة »[1].

وأما الفاء في قوله: (فهو يَشفينِ) فهي الرابطة للجواب وليست عاطفة. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الروم].

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[الروم].

« قال ههنا: ﴿ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا: ثم »[2].

وبعد هذه المقدمة في معاني حروف العطف، نعود إلى التشابه والاختلاف فيها. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾[طـه].

وقوله:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾[السجدة].

---

(١) التعبير الفني في القرآن ١٨٧ وانظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٤٢.
(٢) التفسير الكبير ٢٥/١١٦.

فقال في آية (طه): (أفلم) بالفاء، وقال في آية السجدة: (أولم) بالواو لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[طـه].

وقـال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾[طـه] فذكر المعيشة الضنك في الدنيا ثم قال: (ونحشره يوم القيامة أعمى). وقال: (وكذلك نجزي من أسرف. . .) والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده: (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) بخلاف ما في سورة السجدة فإنه أخر الأمر إلى يوم القيامة، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[السجدة]. فجاء بالفاء في (طـه) لأنها تفيد التعقيب وجاء بالواو في السجدة.

ومن الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة: (من قبلهم من القرون) وفي طـه: (قبلهم من القرون) بدون (من) وذلك أنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه فقال: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾[السجدة].

فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في (طـه) فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله.

ثم انظر كيف ختم آية السجدة بقوله: (أفلا يسمعون) وذلك لأنهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإنّ خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع بخلاف الأقدمين. . وهذه إشارة نهديك إلى خاتمة آية (طه) لتنظر جلالة هذا الكلام وارتفاعه.

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا. . . ﴿٥٨﴾ ﴾[هود].

وقولـه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا. . . ﴿٩٤﴾ ﴾[هود].

فجاء في هاتين القصتين بالواو في حين قال:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا . . . ﴿٦٦﴾ ﴾[هود].

وقال في قصة لوط:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا . . . ﴿٨٢﴾ ﴾[هود].

بالفاء وسبب ذلك أن « العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد. فإن في قصة هود: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ . . . ﴿٥٧﴾ ﴾[هود].

وفي قصة شعيب: ﴿ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[هود] والتخويف قارنه التسويف فجاء بالواو المهملة.

وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد، فإن في قصة صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ﴿٦٥﴾ ﴾[هود] وفي قصة لوط: ﴿ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾[هود] فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب »[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ ﴾[الكهف].

وقوله:

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[السجدة].

قال في آية (الكهف): ﴿ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا ﴾ وقال في آية السجدة: ﴿ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ ﴾ وذلك أن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكير، يدل على ذلك قوله تعالى في آية الكهف: ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ ﴾ وهذا الوصف

---

(١) البرهان للكرماني ٢٣٦-٢٣٧، درة التنزيل ٢٣٤-٢٣٥.

مما يسرع في إعراضهم ثم قال فيما بعد: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ فذكر صممهم وبعدهم عن الهدى.

وليس الأمر كذلك في آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الفاء في آية الكهف لدلالتها على الترتيب والتعقيب و (ثم) في آية السجدة لدلالتها على التراخي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الفاء قد تدل على السبب فجاء بالفاء للدلالة على أن التذكير كأنه كان سبباً لإعراضهم وزيادة رجسهم كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾﴾[التوبة].

فأنت ترى أن آية الكهف تقتضي الفاء من أكثر من جهة بخلاف آية السجدة. ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ ﴿٨٢﴾﴾[الأعراف].

وقولــه:

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ ﴿٥٦﴾﴾[النمل].

وهاتان الآيتان في قوم لوط، فقد جاء في آية الأعراف بالواو فقال: (وما كان جواب قومه)، وجاء في آية النمل بالفاء فقال: (فما كان جواب قومه) مما يدل على أن الجواب كان أسرع منه في آية الأعراف.

وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر.

فقد قال في الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأعراف].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[النمل].

فأنت ترى أن مقام الإنكار والتقريع في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك أمور منها:

١ـ قوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ وفي النمل: (أإنكم) بإدخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ.

٢ـ قوله في الأعراف: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وفي النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ والوصف بالجهل فيه زيادة تقريع، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، فإنك إذا قلت لشخص: (أنت مسرف في هذا الأمر) كان أهون عليه من قولك: (أنت جاهل).

ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يتريثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ بخلاف ما في الأعراف فقد جاؤا بالضمير: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾.

وقد تقول: وهل هناك تناقض بين القولين والقصة واحدة؟

والجواب: لا، وذلك لأن الواو لا تناقض الفاء، فإن الواو لمطلق الجمع كما ذكرنا، فقد يكون ما بعدها واقعاً في عقب ما قبلها وقد يكون متأخراً عنه وقد يكون متقدماً عليه. وأما الفاء فتفيد الترتيب فهي تفيد أحد معاني الواو. فذكر معنى الترتيب والتعقيب في النمل لأن الموطن يقتضيه، وأطلق ذلك في الأعراف لأن الموطن لا يقتضي التعقيب. وهذا من أعجب الكلام وأدقه.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن النصيحة تكررت من لوط في أزمنة مختلفة وبأساليب مختلفة، فيمكن أنه قال بعضها بصيغة أشد من الأخرى، وذلك أنه كلما تكررت الدعوة وتكررت النصيحة كان ذلك مدعاة إلى المبالغة في القول والنصيحة. وكل ذلك جائز والله أعلم.

ومن ذلك التشابه والاختلاف في حروف النفي وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة].

وقولـه:

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[البقرة].

فنفى التمني في الآية الأولى بـ (لا) فقال: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ ﴾ ونفاه في الثانية بـ (لن) فقال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ﴾ وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾[الجمعة].

وقال في البقرة: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[البقرة] وأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين، فإن الكلام في الآية الثانية على الآخرة ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ . . . ﴾ والدار الآخرة استقبال فنفى بـ (لن) إذ هو حرف خاص بالاستقبال.

وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لايختص بزمن دون زمن: ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ ﴾ فهذا أمر مطلق فنفى بـ (لا) وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم.

ومن ناحية أخرى أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمن نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناظر فني جميل.

وقد مر في باب التوكيد في التشابه والاختلاف في حروف النفي نحو قوله تعالى: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴿٢٤﴾ ﴾[الجاثية] وقوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[المؤمنون].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾[الأحقاف] وقوله: ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[الشعراء] وغيره ما يغني عن إعادة ذكره.

ومن ذلك استعمال حروف الجر فقد استعملها استعمالاً لطيفاً بديعاً. فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يستعمل حرفاً مرة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول، وغير ذلك من الفنون التعبيرية لسبب يدعو إلى وضع كل حرف الموضع الذي وضعه.

فمن ذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾[المائدة] فعدّى (أذلّة) جمع ذليل بـ (على) والأصل ان يعدى باللام لأنه يقال: (هو ذليل له) ولا يقال: (ذليل عليه) وقد عدل عن التعدية باللام إلى التعدية بـ (على) لأن المعنى يقتضي ذاك، إذ لو عداه باللام لكان ذماً لا مدحاً. فقولك: (وهو ذليل له) يفيد الذم، وهو هٰهنا في مقام المدح، فجاء بـ (على) للإشعار بالذلة المستعلية وللدلالة على خفض الجناح كما قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الحجر] أي: هم يوطئون أكنافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ (على) للإشعار بالعلو (بخلاف مالو قال (أذلّة للمؤمنين) جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ] فاستعمل مع الهداية حرف الاستعلاء (على) ومع الضلال (في) وذلك لأن من كان على الهدى، كان

---

(١) الكشاف ١/ ٤٦٧.

مستعلٍ على الحق متمكن منه متثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها. والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، ألا ترى أن الواقف على الطريق ليس كالساقط في اللجة ؟ فالأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۝٥ ﴾[البقرة] وقال: ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩ ﴾ [النمل] فاستعمل للهدى (على) في حين قال: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ ﴾[المؤمنون] وقال: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥ ﴾[التوبة] وقال: ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦ ﴾[الأعراف] وقال: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۝٧٥ ﴾[مريم] أي: ساقطاً فيها.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾: «فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه»[1] .

وجاء في التفسير القيم في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۝٥ ﴾ [البقرة] : «قيل: في أداة (على) سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩ ﴾[النمل] والله عزوجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضاً؟ وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

---

(١) الكشاف ١/ ٥٦٢.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدال على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[الأنعام] وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[المؤمنون] وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ] فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين[1].

ومن طريف استعمال حرف الجر قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[المطففين].

قيل: إنّ (على) هنا بمعنى (من). وقيل: بل هو متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم، أي: تسلطوا عليهم بالاكتيال[2].

والظاهر أنه هو الصواب لأن هناك فرقاً بين قولك: (اكتال منه) و (اكتال عليه). فـ (اكتال منه) لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف (اكتال عليه)، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا في المطففين. والمطففون كما بينهم القرآن إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من (من) وليست بمعنى (من) ولاتفيد (من) هذا المعنى.

ثم انظر إلى التعبير اللطيف الآخر بعده وهو قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[المطففين] ولم يقل: (كالوا لهم) أو (وزنوا لهم) وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لايؤديه ذكره، قالوا: وذلك أن اللام تفيد

---

(١) التفسير القيم ١٥-١٦.

(٢) شرح الدماميني على المغني ٢٨٩/١.

الاستحقاق ولم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم[1].

ومن لطيف حذف حرف الجر قوله تعالى:

﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴿١٢٧﴾ ﴾[النساء].

فمن المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، فلا يقال: (رغبت زيداً) لأنه لايدري المقصود أهو (رغبت في زيد) أم (رغبت عنه) أم (رغبت إليه) ولكنه هنا حذف حرف الجر مع أنه لم يتعين أهو (في) أم (عن) وذلك لأنه يراد معنى الحرفين معاً. فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن. وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عنهن لدمامتهن، والحكم واحد في الحالتين فلو قال: (في) لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى. ولو قيل: (عن) لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط، فلما حذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن فأطلق لإطلاق الرغبة، وهذا تعبير عظيم جليل جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «يحتمل في ﴿ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ لجمالهن و عن ﴿ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ لدمامتهن»[2].

ومما جاء في التشابه والاختلاف في حروف الجر قوله تعالى:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[البقرة].

وقولـــه:

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[آل عمران].

---

(١) انظر (معاني النحو) ـ حروف الجر.

(٢) الكشاف ١/ ٤٢٧.

فقال في آية البقرة: (وما أنزل إلينا) وقال في آل عمران: (وما أنزل علينا) جاء في (درة التنزيل): « للسائل أن يسأل عن موضعين من هاتين الآيتين: أحدهما قوله: (أنزل إلينا) في الأولى و (علينا) في الثانية.

والموضع الثاني: تكرار (أوتي) في الأولى وتركها في الثانية...

وشرح ذلك أن (على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو.

و (إلى) المنتهى... فقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له (إلى)... فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم. فلما كان (قولوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على).

ولما كانت سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه...

وأما الموضع الثاني الذي أعيد فيه لفظه (أوتي) من سورة البقرة ولم يعد فيها بإزائها من سورة آل عمران، فالجواب عنه أن يقال: إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴿٨١﴾ ﴾[آل عمران] فقدم ذكر إيتاء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد »[1].

ونقول تعليقاً على تعليله تكرار لفظ (أوتي) في البقرة دون آل عمران:

إنّ تكرار لفظ (أوتي) في البقرة يقتضيه التعبير لأكثر من سبب.

من ذلك: أن الآية في سورة البقرة جاءت في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه وغيرهم من الأنبياء، فلما جرى

---

(١) درة التنزيل ٣٤-٤٦.

ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإيتاء لهم. بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.

ومنها: إن هذه الآية وردت في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴿١٣٥﴾﴾[البقرة] فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبييهما بالإيتاء، فأفرد ذكر إيتاء موسى وعيسى عن إيتاء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإيتاء للأنبياء الآخرين.

ومن ناحية أخرى إن الآية في آل عمران وردت بعد ذكر أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان بسيدنا محمد ونصره إن هم أدركوه قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[آل عمران].

كما وردت في سياق التأكيد على الإسلام والإيمان به فقد قال قبلها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[آل عمران].

وقال بعدها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران] فناسب ذلك عدم تكرار الإيتاء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي سيدنا محمد لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في البقرة في ذكر الأنبياء ذكر الإيتاء لهم، ولما كان السياق في آل عمران في الإيمان بمحمد ودينه وأخذ الميثاق من الأنبياء على الإيمان به ناسب عدم تكرار الإيتاء للأنبياء.

هذا ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرر الإيتاء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإيتاء من نحو آتي وآتينا وأوتي وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعاً، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعاً، فاقتضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإيتاء فيها علاوة على ما ذكرنا بخلاف آل عمران. وقد

رأينا في مواضع عدة كيف يراعي القرآن الكريم الجو التعبيري لذكر لفظة في موضع دون آخر.

وأظنك في غنى عن بيان جلالة هذا التعبير وقدره.

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾[الرعد، الزمر ٥].

وقولــه:

﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[لقمان].

فقد جاء في آية الرعد باللام (لأجل) وجاء في آية لقمان بـ (إلى) (إلى أجل مسمى)، والفرق بينهما أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى: كل يجري لبلوغ الأجل أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول: كلهم يجري لوصول الهدف وبلوغه. وأما ما جاء بـ (إلى) فهو يفيد الانتهاء. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وما سواه إنما هو ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾.

والجواب أن يقال: إنَّ معنى قوله: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى. وقوله: ﴿يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ معناه: لايزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له.

وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة. فقبلها: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان] وبعدها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ﴾[لقمان] فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قولــه:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝﴾[الزمر].

فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝﴾[فاطر] فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها ـ واختصُ ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها »[1].

ومن لطيف ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾[الإنسان].

فقال أولاً: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ بـ (من) وقال بعدها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ بالباء. وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الباء ههنا تفيد التبعيض بمعنى (من)[2] أي: يشرب منها. وقيل: بل ضمن شرب معنى (روي)[3] أي: يرتوي بها وهو أولى.

وفيها معنى آخر: وذلك أن قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك: (نزلت بالمكان) فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب بخلاف الأول. جاء في (البرهان) أن « العين ههنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه، نحو: (نزلت بعين) فصار كقوله: مكاناً يشرب به »[4].

---

(١) درة التنزيل ٣٧٤-٣٧٥.
(٢) المغني ١/١٠٥، الهمع ٢/٢١.
(٣) المغني ١/١٠٥.
(٤) البرهان ٣/٣٣٨-٣٣٩.

قالوا: وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء:

الصنف الأول وهم الأبرار.

والصنف الآخر هم الذين سماهم ﴿عباد الله﴾ وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم وذلك أن القرآن يستعمل كلمة (عبد) على معنيين:

المعنى الأول: العبودية القسرية وهي التي يشترك فيها كل الخلق كافرهم ومؤمنهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾[مريم] وهذه العبودية ليس فيها فضل لأحد على أحد.

والمعنى الثاني: العبودية الإختيارية وهي أن يجعل الشخص نفسه عبداً خالصاً لله موطّناً نفسه على عبادته متحرياً مرضاته ساعياً في طاعته واضعاً نفسه ووقته في خدمة مولاه شأن المولى مع سيده في أقل تقدير. ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده. وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن] وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴿١﴾﴾[الإسراء] وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾[الإسراء].

من هذا يتبين أن مرتبة الذين سماهم ﴿عباد الله﴾ أعلى من الأبرار. وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين. فقد قال في الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وقال: في الآخرين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. وأنت ترى الفرق واضحاً بين النعيمين. فقد قال في الأبرار:

١ـ إنهم يشربون من كأس.

٢ـ وذكر أن هذه الكأس ليست خالصة بل ممتزجة ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

وأما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها بل يشربون خالصة من العين وهي مرتبة أعلى. ثم قال ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ولم يقل (يشرب

منها) أي: يرتوون بها، هذا علاوة على التمتع بلذة النظر وهم نازلون بالعين.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[المطففين].

فذكر الصنفين من السعداء: صنف الأبرار وصنف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق. فانظر كيف قال في نعيم الأبرار: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ ... وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنهم يسقون من رحيق ممزوج بالتسنيم، والتسنيم أعلى شراب في الجنة وهو يمزج لهم بحسب اعمالهم. في حين قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: إن المقربين يشربون من عين التسنيم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل. وهم لا يشربون منها بل يشربون بها. فهذا ـ كما ترى نظير ما مر في سورة الإنسان.

ويجرنا هذا التعبير إلى التشابه والاختلاف في التعبير عن الجزاء، إذ هو مرتبط بما نحن فيه ارتباطاً وثيقاً. فهو يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً عجيباً في التعبير عن كل صنف، فمن ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان. قال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾[الرحمن].

ثم قـال:

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾[الرحمن].

فأنت ترى أنه ذكر نوعين من الجنان بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً ثم قال: (ومن دونهما جنتان) أي: أقل منزلة منهما. وإليك طرفاً من التفريق بين الصنفين:

١ـ قال في وصف الجنتين العليين: إنهما ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ في حين قال في الأخريين: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي: مائلتان للسواد من شدة الخضرة. والوصف الأول أعلى فإن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾.

٢ـ وقال في العليين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وقال في الآخريين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾. وماء الجري أكثر من ماء النضخ . وقيل في الجري معان أخرى من صفات النعم لايفيدها قوله نضاختان[1].

٣ـ وقال في العليين: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وقال في الأخريين: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾. فانظر أين فاكهة الثانيتين من الأوليين؟ فقد ذكر أن في العليين. من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراق والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الأخريين.

٤ـ وقال في العليين: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾. وقال في الأخريين: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾.

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ١٩١.

فقد ذكر بطائن الأولى فقال: إنها من إستبرق ولم يذكر ظهائرها لعلوها وللإشارة إلى ان الوصف لا يرقى إليها. قال في (الكشاف): «وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظهائر؟»[1].

في حين ذكر الأخرى فقال: هي رفرف خضر وعبقري حسان. وانظر أين هذا من ذاك؟

٥- وقال في العليين: (فيهن قاصرات الطرف) في حين قال في الأخرين: (حور مقصورات في الخيام).

فانظر هداك الله وصف (القاصرات) بصيغة اسم الفاعل ووصف (المقصورات) بصيغة اسم المفعول ووازن بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

٦- وقال في وصف قاصرات الطرف: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعاة إلى التشويق لإحسان العمل و ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾؟

وانظر إلى دقيقة أخرى عجيبة في وصف هاتين الجنتين ذكرها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهي أن قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكرر في كل جنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة. وتكرر في جهنم بعد قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ سبع مرات بعدد أبواب النار فإن أبواب الجنة ثمانية كما أخبر به الصادق المصدوق، وإن أبواب النار سبعة كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر].

فانظر هداك الله مقام هذا الكلام ورفعته وعزته. ونظير هذا التفريق في الجزاء ما جاء في سورة الواقعة في التفريق بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعيم أصحاب اليمين.

قال تعالى في السابقين:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩١.

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة].

وقال في أصحاب اليمين:

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الواقعة].

فانظر كيف فرق بين النعيمين:

١ـ ذكر أن السابقين على سُرُرٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متكئين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين بل قال: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين الحالتين. وقيل: إنَّ المراد بالفرش ههنا النساء.

٢ـ وذكر أن السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين. ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين. بل قال: ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ والفرق ظاهر.

٣ـ وذكر نعيم السابقين فقال: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ في حين قال في أصحاب اليمين: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾. فأين السدر المخضود والطلح المنضود من قوله: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؟

٤ـ وذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ... ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ولم يصرح بمثل ذلك لأصحاب اليمين بل قال: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾. وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾.

ويقال ههنا ما قيل ثم.

ونكتفي بهذا القدر لبيان التشابه والاختلاف وإن كان يحتمل المزيد من الكلام والأمثلة.

لقد تبين مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً، ويضعها وضعاً فنياً عجيباً. وأن التشابه والاختلاف في قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام. وأنه لم يترك وجهاً من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس في سياق الآية وحدها ولا في جو السورة وحدها، بل في عموم القرآن. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾.

فواصل الآي

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض مثل: (تعلمون، تؤمنون، تتقون) ومثل (خبيراً، كبيراً، عليماً، حكيماً).

ومن الملاحظ أن القرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس. فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الشعراء] بتقديم موسى على هرون، فيجعل كلمة (هرون) نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة. ومرة يقول: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[طـه] بتقديم هارون وجعل (موسى) نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طـه.

وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتنسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحذوف لم ينسجم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الشعراء] إذ الأصل: (أو يضرونكم) مقابل: (ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من (يضرونكم)، إذ لو ابقاه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

وقد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾[الأحزاب] فقد مد فتحة (السبيل) لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآي المتقدمة والمتأخرة.

وقد نرى أنه يبدل كلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآي في كل من الموطنين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم] وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل] فأنت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتم الآي، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله: (كفار) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها (الأنهار، النهار، كفار، الأصنام).

وفاصلة آية النحل: (رحيم) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها: (تشكرون، تهتدون، تذكّرون).

وقد ترى أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[النساء] وقوله في مكان آخر من السورة نفسها: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[النساء]. فأنت قد ترى أنه غاير بين الفاصلتين تجنباً للتكرار. ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحاً.

غير أن الذي نريد أن نؤكده هنا أن القرآن الكريم راعى في كل ذلك أيضاً ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعىً في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى. فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة (هرون) وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل اقتضاه الكلام من جهة أخرى. فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يَجُزْ موطن على آخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام.

وقد تظن أن في كلامنا هذا غلواً ومبالغة دفعنا إليهما إحساس ديني وتقديس نكنّه للقرآن الكريم وليس نابعاً من روح علمية ولامن نفس بريئة من العصبية والهوى. ولانريد أن ندفع عن أنفسنا هذه التهمة أو نقرها و إنما ندع ذلك للبحث يدفعه أو يقره. غير أننا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من علماء السلف ذكروا ذلك، فقد قال الآلوسي رحمه الله راداً على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[البقرة]: «ولعله قدم (الرؤوف) وهو أبلغ محافظة على الفواصل»[1]. «وقول القاضي بيض الله تعالى غرّة أحواله: لعل تقديم (الرؤوف) مع أنه أبلغ محافظة على الفواصل ليس بشيء، لأن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الآخير كالسجع، فالمراعاة حاصلة على كل حال، ولأن [الرأفة][2] حيث وردت في القرآن قدمت ولو في غير

---

(١) أنوار التنزيل ٣٠.

(٢) في الأصل: (ولأن الرحمة) والصواب ما أثبتناه كما هو ظاهر.

الفواصل، كما في قوله تعالى: ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴿٢٧﴾ ﴾[الحديد] في وسط الآيــة »[1].

صحيح أن قسماً من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقوا في اكتناه أسرار التأليف، بحيث تدرك أن تعليلاتهم متكلفة وتأويلاتهم بعيدة، وربما أدركت أيضاً أنه لو كان الكلام على غير هذه الصورة لأولوه وعللوه تعليلاً آخر. ولكن هناك قسم آخر تمكن من أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلف ولاغموض.

وأحسب أنه من الأولى أن نضرب أمثلة نوضح بها هذا الادعاء وأن لا نطيل في الكلام وتقرير الأحكام.

فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً وهو قوله تعالى:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الشعراء] .

فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر. وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي، ولا شك أنّـه لو ذكر المفعول بـه لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي، ولكـن الحذف اقتضـاه المعنى أيضاً فقـد ذكـر مفعـول النفـع فقـال: (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم. وأطلق الضر لسببين:

الأول : أن الإنسان لايريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه.

والآخر: أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر.

فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضَرّ موضع إطلاق، فخص النفع وأطلق الضر. والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال: (أو يضرونكم) لما أفاد هذين المعنيين. فانظر كيف أن الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة؟

---

(١) روح المعاني ٧/٢.

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طـه].

ولم يقل: (وما هداهم) وذلك أنه أخرج الفعلَ مخرج العموم، أي: إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة. ولو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنه هدى غيرهم لكنه قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً[1].

فهو قد أضل قومه ولم يهد أحداً لا من قومه ولا غيرهم.

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم].

وقولـه:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل].

فقد تظن أنه ختم آية إبراهيم بقوله: (كفار) مراعاة لفواصل الآي في هذه السورة، وختم آية النحل بـ (رحيم) مراعاة لفواصل الآي فيها.

ولاشك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً مع الآيات فيهما، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته فختم الآية بصفة الإنسان، وأن الآية في سورة النحل في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته. فقد قال في سورة إبراهيم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم].

فاقتضى ذلك ختم الآية بصفة الإنسان.

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو)، حذف المفعول به.

وقال في سورة النحل:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ ... هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ... ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على صفات الله ونعمه على الإنسان فختمه بصفته.

جاء في (معترك الأقران) أنه « إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعَم عليه وسورة النحل بوصف المنعِم، لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته »[1].

وقال في (البرهان): « ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعِم وآية إبراهيم بوصف المنعَم عليه؟

والجواب: أن سياق الآيــة في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبِلَ عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه.

وأما آيــة النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه »[2].

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طــه].

---

(١) معترك الاقران ١/ ٤٤ وانظر ملاك التأويل ٢/ ٥٨٠-٥٨١.

(٢) البرهان ١/ ٨٦-٨٧.

وقولـه:

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الشعراء].

قدم في (طـه) ذكر هرون وفي (الشعراء) ذكر موسى. وقد تظن أن ذلك مايقتضيه أواخر الآي. ونقول: صحيح أن أواخر الآي في سورة (طـه) تقتضي أن يكون (موسى) في آخر الآية، وفي (الشعراء) تقتضي ان تكون كلمة (هرون) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، ولو لم تكن أواخر الآي كذلك. وانظر إلى الفرق بين القصتين في السورتين:

١- إن ذكر (هرون) تكرر في سورة (طـه) كثيراً وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلاً. من ذلك قوله في سورة طـه:

أ - ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾[طه].

ب - ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ﴾[طه]. فقد أمر كلاً من موسى وهرون بالذهاب بآياته ولم يخص موسى بذاك.

جـ - وكرر ذلك فقال: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[طه].

د - وكان الجواب صادراً منهما معاً: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[طه].

هـ - وقد طمأنهما ربهما معاً فقال: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[طه].

و - وأمرهما معاً فقال: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴿٤٧﴾ ﴾[طه].

ز - وكان خطاب فرعون لهما معاً: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾[طه]. ولم يقل لـه: فمن ربك؟

ح - ونسبهما كليهما إلى السحر فقال: ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾[طه].

ط ـ وقد ورد تخليف موسى لهرون في قومه فنصح لهم في غيبته. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾[طه].

ي ـ ولقد عاتب موسى أخاه هرون بشدة: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ ﴿٩٣﴾﴾[طه].

في حين لم يرد هرون سورة الشعراء إلا قليلاً وهو قولـه:

أ ـ ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾[الشعراء].

ب ـ ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾[الشعراء].

وفيما كان الخطاب في آيات طه موجهاً إلى موسى وهرون معاً، كان موجهاً إلى موسى وحده في الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

وقد نسب موسى وحده إلى السحر ولم ينسب معه هرون كما جاء في طه فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴿٣٥﴾﴾[الشعراء].

ولم يرد ذكر لهرون بعد هذا.

فأنت ترى أن القصة في طه مبنية على التثنية وأنها في الشعراء مبنية على الإفراد.

٢ـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ذكر في آيات طه خوف موسى ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾[طه] ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء.

فأنت ترى أنه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في الشعراء، ولم تذكر حالة الضعف البشري الذي اعتراه. فاقتضى كل ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين، وأظنك في غنى عن أن أقول لك: لوقيل لك: قدّم وأخر بين الإسمين حسبما يقتضيه السياق لقدّمت هرون على موسى في طه، وموسى على هرون في الشعراء.

وعلاوة على ذلك هناك طريقة أخرى، وهي أن سورة (طه) تبدأ بالحرفين: الطاء والهاء. وسورة الشعراء تبدأ بـ (طسم). فكلتا السورتين تبدأ بالطاء غير أن الحرف الأخير من (طه) هو الهاء، وهو أول حروف هرون وليس فيها حرف من حروف موسى. والحرف الأخير من (طسم) هو الميم وهو أول حرف من حروف (موسى) وليس فيها حرف من حروف هرون. أفلا يزيد حسناً على حسن تقديم هرون على موسى في طه وتقديم موسى على هرون في الشعراء؟

وقد ترى ذلك إغراقاً في التعليل، وربما كان ذاك، إلا أن العجيب أن كل سورة تبدأ بالطاء ترد فيه قصة موسى في أوائلها مفصلة قبل سائر القصص، مثل: (طه، وطس، وطسم في القصص، وطسم في الشعراء) وليس في المواطن الأخرى مما يبدأ بالحروف المقطعة مثل ذلك. فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحروف (ط) قصة موسى مفصلة في أوائل السورة. والملاحظة الأخرى أن مايبدأ بـ (طسم) تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـ (طس) فكأن زيادة الميم إشعار بزيادة القصة. فانظر يا رعاك الله أي سر من أسرار التعبير هذا؟

ومن بديع الفاصلة قولــه تعالــى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[غافر].

وقولــه:

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[غافر].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: (المبطلون) وختم الآية الثانية بقوله: (الكافرون) وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه. فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل. والثانية في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر. قال تعالى في الآية الأولى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[غافر]. وقال في الآية الثانية: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[غافر].

جاء في (البرهان) للكرماني في اختيار هاتين الفاصلتين أن: « الأول متصل بقوله: ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ نقيض الحق الباطل. والثاني متصل بإيمان غير مجد، ونقيض الإيمان الكفر »(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[السجدة].

« فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ ولم يقل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾. وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع أو إخبار القرون وهو مما يسمع.

وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ وقال بعدها: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي »(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[القصص].

فانظر كيف ختم آية الليل بقوله: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع وختم آية النهار بقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لأنه صالح للإبصار؟

في (البرهان) في هاتين الآيتين: «فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار.

---

(١) البرهان ٤٢١.

(٢) البرهان ١/ ٨٠ وانظر الإتقان ٢/ ١٠١.

وكذلك قال في الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[القصص]. . . فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إذ الظرف مضيء صالح للإبصار. وهذا من دقيق المناسبة المعنوية »[1].

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[الأعراف].

وقولــه أيضاً:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[فصلت].

في حين قــال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾[غافر].

فانظر كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلمه ولا نراه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وجاء فيمن يرى ويبصر من شياطين الإنس بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فانظر دقة هذا التعبير وجماله. جاء في (التفسير القيم): « وتأمل حكمة القرآن كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في الأعراف وحم السجدة. وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويُرون بالإبصار بلفظ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في سورة حم المؤمن. . . لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرَىٰ بالبصر ويُدْرَكُ بالرؤية والله أعلم »[2].

---

(١) البرهان ١/ ٨٢ وانظر ملاك التأويل ٢/ ٧٦٢.

(٢) التفسير القيم ٥٨٦.

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾[يوسف].

وقولــه:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾[الأنعام].

فقدم العلم على الحكمة في سورة (يوسف)، وقدم الحكمة على العلم في (الأنعام)، وذلك لأنه في سورة يوسف تقدم قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ وهذا موطن علم فقدم العلم لذلك، وفي الأنعام موطن تشريع فقدم الحكم لذلك. جاء في (البرهان): « وأما تقديم الحكيم على العليم في سورة الأنعام فلأنه مقام تشريع الأحكام. وأما في أول سورة يوسف فقدم العليم على الحكيم لقوله في آخرها: وعلمتني من تأويل الأحاديث »[1].

ومن الطريف أن نذكر هنا أنه حيث اجتمع الاسمان: (العليم والحكيم) في سورة الأنعام قدم الحكيم على العليم[2] وحيث اجتمعا في سورة يوسف قدم العليم على الحكيم[3] وذلك لأن مواطن يوسف كلها مواطن علم أولاً فقدم (العليم) ومواطن الأنعام مواطن حكمة أو حكم فقدم (الحكيم)، مما يدل على أن كل كلمة إنما وضعت مقصودة قصداً.

فانظر أي تنسيق وأي دقة في هذا الكلام العزيز؟

ومنه قولـه تعالـى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الرعد].

---

(١) البرهان ٣/ ٢٦٢.

(٢) انظر الآيات ٨٣، ١٢٨، ١٣٩.

(٣) انظر الآيات ٦، ٨٣، ١٠٠.

وقولــه:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤ ﴾ [الحج].

فقال في آية الرعد: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وقال في آية الحج: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وذلك أنه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذبين. والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد. إذ رب نكير لا يصحبه عقاب، فجعل كل وعيد بإزاء جرمه الذي يناسبه.

جاء في (ملاك التأويل): « للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ والثانية بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مع تساوي الآيتين في مقصود الوعيد بمكذبي الرسل عليهم السلام.

والجواب والله أعلم، أن العقاب أشد موقعاً من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل. أما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقيب جريمته. وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والاستهزاء أمرٌ مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة فناسبها الإفصاح بالعقاب.

أما آية الحج فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ... ﴾ فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب... فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من تقدم فيها، ولم يكن عكس الوارد ليناسب »[1].

---

(١) ملاك التأويل ٢/٥٦٨-٥٦٩.

ومنه قوله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح عندما خرق السفينة:

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾[الكهف].

وقوله له عندما قتل الغلام:

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾[الكهف].

فوصف خرق السفينة بأنه شيء إمر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نكر. وذلك أن خرق السفينة دون قتل الغلام شناعة فإنه إنما خرق السفينة لتبقى لمالكيها. وهذا لايبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر. والإمر دون النكر، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب كل فعل. وعن قتادة: النكر أشد من الإمر. فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر[1].

ومنه قوله تعالى:

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[التوبة].

وقولـه:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[التوبة].

فقد قال في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الثانية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

« ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضييق والإخراج... فأمر تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن... قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[التوبة].

ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾... أي: من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهاده في الأذاية والصد عن سبيل الله ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: بما في

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٦٥٢.

القتال أو طيّ ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولاً . . . وما في ذلك من الحكمة . . .

وأما الآية الثانية فسببها والله أعلم ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم أحد، إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل . . . فختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وأن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله، فجاء كلٌّ من هذا الباب على ما يناسب ويلائم ولا يلائم خلافه »[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾[هود].

وقوله:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[النحل].

وسر هذا الاختلاف أن آية هود فيمن صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم وضوعف لهم العذاب، وآية النحل فيمن صدّ هو ولم يصدّ غيره، فكان الأولون أخسر من الآخرين فجيء لهم باسم التفضيل. قال تعالى في (هود): ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقال في (النحل): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ جاء

---

(١) ملاك التأويل ١/٤٥٦-٤٥٧.

في (البرهان) للكرماني أن قوله في هود: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ « لأن هؤلاء صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فَضَلُّوا وأضلوا فهم الأخسرون يُضاعَفُ لهم العذاب، وفي النحل صدوا فهم الخاسرون »[1].

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[البقرة].

فقد أعاد الضمير في الآية الأولى على الصلاة وختم الآية بالكلام عليها. وختم الكلام في الآية الثانية على الصبر، وذلك أن الكلام في الآية الأولى على الصلاة فقد تقدم ذكر الصلاة والمطالبة بها. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[البقرة] بخلاف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[البقرة] فقد ختم الآية بالكلام على الصبر وذلك لأن الكلام عليه والسياق يقتضيه، فقد قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[البقرة].

فلما كان السياق في الموطن الأول عن الصلاة، أعاد الضمير عليها وختم الآية بها. ولما كان السياق في الموطن الثاني عن الصبر، ختم الآية بالكلام على الصابرين[2].

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[النساء].

---

(١) البرهان ٢٣٢ وانظر درة التنزيل ٢١٩-٢٢٠.
(٢) معاني النحو ١/٦٨-٦٩.

وقولـه مرة أخرى في السورة نفسها:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[النساء].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾. وسبب هذا الاختلاف أن الآية الأولى في سياق الكلام على افتراءات اليهود وكذبهم، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴿٤٦﴾ ﴾[النساء] وقال بعدها: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾[النساء] فناسب ذلك قوله: ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.

وأما الآية الأخرى فهي في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفتروا على الله لأنهم ليسوا أصحاب كتاب أصلاً وإنما هم ضالون، فناسب ذلك قوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ ثم انظر كيف قال بعدها على لسان الشيطان: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴿١١٩﴾ ﴾[النساء].

فالكلام في سياق الضلال والإضلال فناسب ذلك هذه الخاتمة. جاء في كتاب (من بلاغة القرآن) في سر هذا الاختلاف بين الآيتين: «ونستطيع أن نلمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، مما ناسب أن تختم الآية بالافتراء الذي اعتاده اليهود وهم أهل الكتاب.

أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً»[1].

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾[البقرة].

---

(١) من بلاغة القرآن ٨٥.

ختم الآية الأولى بالسمع والعلم لما قال قبل: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ وختم الآية الثانية بالمغفرة والرحمة لما قال قبلها: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ وهذا نظير قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾[البقرة].

فقد ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ لما قال: قبلها ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾. جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله في آية الوصية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، خصّ السمع والعلم بالذكر لما في الآية من قوله: ﴿بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ ليكون مطابقاً. وقال في الآية الأخرى بعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ لقوله قبله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ فهو مطابق معنى»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾[الأنعام].

وقوله:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾[هود].

فقد ختم آية الأنعام بقوله: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ وختم آية هود بقوله: ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ ذلك لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ. قال تعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾[الأنعام].

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أن الله لم يهلك أقواماً غافلين لم ينذروا ولم يكلفوا، فإن من لم ينذر فهو غافل. قال تعالى:

---

(١) البرهان ١٠٤.

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾[يس] وما كان الله ليهلك مثل هؤلاء الأقوام، ولذا ختمها بقوله ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾.

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧ ﴾[هود].

فناسب ختام كل آية السياق الذي فيه. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: لم قال في الأولى: ﴿ غَٰفِلُونَ ﴾ وفي الثانية: ﴿ مُصْلِحُونَ ﴾؟

والجواب: إن ذلك إشارة إلى ما تقدم من العقاب في قولـه: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ وبعده: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۝١٣٠ ﴾[الأنعام] يعني: العقاب في يوم القيامة، لأنه لم يكن ربك ليفعله من قبل أن يحتج عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من محذورهم، ولا يتركونهم في غفلة من أمورهم. فاقتضى هذا المكان أن يقال لهم: لم يؤخذوا وهم غافلون بل كانوا منبهين بالأعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأما الموضع الثاني الذي ذكر فيه ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فللبناء على ما تقدم وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ ﴾[هود] تدل على أن القوم كانوا مفسدين حتى نهاهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض. وكان نقيض الفساد في الأرض الصلاح فقال: لم يكن الله ليهلكهم وهم مصلحون. فاقتضى ما تقدم في كل آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين»[1].

---

(١) درة التنزيل ١٣١-١٣٢.

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ ﴾[الأعراف].

وقولــه:

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ ﴾[هود].

وقولــه:

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ ﴾[الشعراء].

ففي آية الأعراف وصف العذاب بالإيلام، وفي هود بالقرب، وفي الشعراء وصف اليوم بالعظمة، وذلك أنه في الأعراف ذكر قوم صالح وكثرة تحديهم واستهزائهم وعتوهم ولم يذكر مثل ذلك في السور الأخرى. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ ﴾[الأعراف].

فقد ذكر عنهم أنهم:

١ـ أعلنوا كفرهم (إنا بالذي آمنتم به كافرون).

٢ـ وأنهم عتوا عن أمر ربهم.

٣ـ وأنهم تحدوه وقالوا: إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

وليس الأمر كذلك في المكانين الآخرين. فقد قال في هود: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ ﴾[هود].

فليس فيه مثل ذلك التحدي ولم يذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم حتى أنهم لم يصرحوا بكفرهم، بل ذكروا أنهم في شك ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾. فأنت ترى أن السياق في كل من الموطنين يختلف عن الآخر.

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء فإنه لم يذكر تحديهم ولا عتوهم واستكبارهم، فاستحقوا أن يذكر لهم العذاب الأليم في سورة الأعراف.

وأما في سورة هود فقد وصف العذاب بالقرب لما ذكر قبله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۝﴾[هود].

وأما في الشعراء فقد وصف اليوم لما ذكر قبلها: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾[الشعراء] جاء في (البرهان) للكرماني في سر اختلاف هذه الآيات أنه في سورة الأعراف «بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال: عذاب أليم.

وفي هود لما اتصل بقوله: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) وصفه بالقرب فقال: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ والتقدير: لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فختم الآية بذكر اليوم فقال: عذاب يوم عظيم»[1].

لقد تبين مما مر أن القرآن الكريم لا يعنى بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعىً فيها المعنى والسياق والجرس ومراعىً فيها خواتم الآي وجو السورة ومراعىً فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعىً فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه. وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال. فما أجله من كلام وما أعظمه من تعبير.

---

(١) البرهان ١٨٣ وانظر درة التنزيل ١٥٦.

السمة التعبيرية للسياق

قد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة، فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة.

وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة. وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد. وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴿٣٤﴾ ﴾[النحل].

وقوله:

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴿٣٣﴾ ﴾[الجاثية].

في حين قال:

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴿٤٨﴾ ﴾[الزمر].

وقال:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴿٥١﴾ ﴾[الزمر].

فاختار لفظ (العمل) في النحل والجاثية ولفظ (الكسب) في الزمر. قيل: وسبب اختيار لفظ (العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الآيتين بين ألفاظ العمل، وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الآيتين بين ألفاظ الكسب .

فقد جاء في النحل قوله تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[النحل].

وقوله: ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴿١١١﴾ ﴾[النحل].

وجاء في الجاثية قوله ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

في حين وقع لفظ (الكسب) في الزمر بين ألفاظ الكسب، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الزمر] وقوله ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴿٥١﴾﴾ فخصت كل سورة بما اقتضاه سياقها[1].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين هذه السور الثلاث، فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات[2] في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة، وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات[3]. فوضع كل لفظة في الموطن الذي يقتضيها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾﴾[طه].

وقوله:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴿٨﴾﴾[النمل].

فقال في (طه): (أتاها) وفي (النمل): (جاءها). قيل: وسبب ذلك أنه كثر « لفظ الإتيان في طه نحو: فأتياه [٤٧]، فلنأتينك [٥٨]، ثم أتى [٦٠]، ثم ائتوا[٦٤]، حيث أتى [٦٩].

ولفظ (جاء) في النمل أكثر نحو: فلما جاءتهم[١٣]، وجئتك [٢٢]، فلما جاء سليمان[٣٦] »[4].

ولإيضاح ذلك نذكر أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل، وأن ألفاظ المجيء في النمل أكثر منها في طه، فقد وردت ألفاظ الإتيان في طه

---

(١) انظر البرهان للكرماني ٢٧٣-٢٧٤، ٤١٦، درة التنزيل ٤٠٨-٤٠٩، ملاك التأويل ٢/٦٠١-٦٠٢.

(٢) انظر الآيات ٢٤، ٤٨، ٥٠، ٥١ (مرتين).

(٣) انظر الآيات ١٠، ١٤، ٢٢.

(٤) البرهان للكرماني ٣١٢-٣١٣.

خمس عشرة مرة وفي النمل ثلاث عشرة مرّة. ووردت ألفاظ المجيء في طـه أربع مرات وفي النمل ثماني مرات. فاختير لفظ المجيء في النمل والإتيان في طـه، ووضع كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه.

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾[البقرة].

وقولـه:

﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[الأنعام].

فاختـار في سـورة البقـرة لفظ (الله) وفي الأنعـام لفظ (الرب). ومن أسبـاب هذا الاختيـار والله أعلم أن لفظ (الله) تردد في البقرة أكثر مما في الأنعـام، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة. فقد ورد لفظ (الله) في البقرة (٢٨٢) مائتين واثنتين وثمانين مرة، وفي الأنعام (٨٧) سبعاً وثمانين مرة. ووردت كلمة (رب) في البقـرة (٤٧) سبعاً وأربعين مرة، وفي الأنعـام (٥٣) ثلاثاً وخمسين مرة. فناسب أن يضع كلمـة (الله) في البقـرة وكلمـة (رب) في الأنعـام.

وعلاوة على هذا يقتضي السياق وضع كل لفظة في المكان الذي وضعت فيه، فإن آية البقرة في سياق العبادة، ولفظ (الله) أولى أن يوضع في هذا السياق لأنه من الألوهيـة، والألوهيـة هي العبادة قال تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة] ويدل على ذلك أنه لما قال في سورة النحل: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾[النحل] قال بعدها: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[النحل].

وأما سياق آية الأنعام ففي الأطعمة ولفظ (الرب) ألصق بهذا السياق، لأن الرب من التربية والتنشئة[1].

---

(١) انظر البرهان للكرماني ١٠٣، درة التنزيل ٤٢-٤٣.

ومن ذلك قولــه تعالــى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[غافر].

وقولــه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[يونس].

فأظهر الناس في آية المؤمن وأضمرهم في آية يونس، وذلك أن السياق الذي وردت فيه آية المؤمن تكرر فيه لفظ الناس، بخلاف السياق في سورة يونس إذ بُني على الإضمار. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: كيف أظهر الناس في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وقد أضمر في موضع الإظهار في سورة يونس؟ وهل كان جائزاً وقوع هذا موقع ذاك؟...

فأما قوله في سورة المؤمن: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾... فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[غافر].

وقال بعده: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[غافر]. ثم جاء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[غافر].

فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة. الا ترى أنه قال تعالى مخبراً عمن يدخل من الظالمين النار: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[يونس] فانقضى هذا الكلام واستؤنف خبر عن القوم الذين بُعِثَ رسولُ الله ﷺ إليهم وقال: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[يونس] فأضمر ذكره في قوله: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ ﴾.

ثـم قـال بعـده: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[يونس] فأضمـر ما أضـاف إليـه (أكثـر). ثـم انتهـى إلـى

قــوله بعـده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[يونس] فاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآية أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدّمه »[1].

وقد تكون كثرة اللفظ وغلبته مطلقة في السورة كلها لا في السياق الذي تقع فيه الآية وحده. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴿٥٣﴾ ﴾[طــه].

وقولــه:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴿١٠﴾ ﴾[الزخرف].

فقد ذكر (جعل) في الزخرف و (سلك) في طــه، ولعل من بين أسباب هذا الاختيار أن فعل الجعل ورد في الزخرف أكثر مما في طــه، فقد ورد في الزخرف اثنتي عشرة مرة وورد في طــه ثلاث مرات[2]. فاختار الجعل في الزخرف والسلوك في طــه، والله أعلم.

ونحو هذا قولــه تعالــى:

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الكهف].

وقولــه:

﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[فصلت].

فقد قال في (الكهف): (رددت) وقال في (فصلت): (رجعت)، ولو رجعنا إلى استعمال هذين اللفظين ومشتقاتهما في كل من السورتين لوجدنا أن لفظ (الرد) ورد في الكهف ثلاث مرات[3] ولم يرد في فصلت إلا مرة واحدة[4]، وأما الرجع

---

(١) درة التنزيل ٤١٢-٤١٣.
(٢) انظر الآيات ٢٩، ٥٣، ٥٨.
(٣) انظر الآيات ٣٦، ٦٤، ٨٧.
(٤) انظر الآية ٤٧.

فلم يَرِدْ في الكهف وقد ورد في فصلت مرتين[1]. فوضع كل فعل في مكانه الذي هو أليق بـه.

ومن بديع ذلك قولـه تعالـى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[الحج].

وقولـه:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[السجدة].

فقد قال في آية الحج، (الله) وقال في آية السجدة، (ربك) ولو نظرنا في استعمال هاتين اللفظتين في كل من هاتين السورتين لرأينا أنه وضع كل لفظة بحسب كثرة ورودها في كل سورة. هذا علاوة على اختيار كل لفظة بحسب ما يقتضيه المقام من ناحية المعنى أيضاً. فقد وردت لفظة (الله) في سورة الحج خمساً وسبعين مرة في حين لم ترد هذه اللفظة في السجدة إلا مرة واحدة[2].

وقد وردت كلمة (رب) في السجدة عشر مرات، ووردت في سورة الحج ثماني مرات، فوضع كل لفظة في السورة التي كثر استعمالها فيها.

هـذا عـلاوة على ما في الآيتين من أمـور فنيـة أخرى. فإنـه لما ذكـر الاختلاف في آية السجدة (فيما كانوا فيه يختلفون) أكد الفصل بـ (هو) لأن الأصل في الفصل أن يكون عند الاختلاف. ولما لم يذكر الاختلاف في سورة الحج لم يؤكده.

ونحو هذا قولـه تعالـى:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴿٣٦﴾ ﴾[سبأ].

وقولـه:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴿٣٩﴾ ﴾[سبأ].

---

(١) انظر الآيتين ٢١، ٥٠.

(٢) انظر الآية ٤.

في حين قال:

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴿٦٢﴾ ﴾[العنكبوت].

فاختار كلمة (ربي) في سورة سبأ، وكلمة (الله) في العنكبوت، وذلك أن لفظ (الرب) ورد في سبأ أكثر مما في العنكبوت، ولفظ (الله) ورد في العنكبوت أكثر مما في سبأ. فقد ورد لفظ (الرب) في سبأ أربع عشرة مرة، وورد في العنكبوت خمس مرات. وورد لفظ (الله) في العنكبوت إثنتين وأربعين مرة، في حين لم يرد في سبأ إلا ثماني مرات، فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الكلمات.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿١﴾ ﴾[النساء].

وقوله:

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾[الأعراف]..

وقوله:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿٦﴾ ﴾[الزمر].

في حين قال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿٩٨﴾ ﴾[الأنعام].

فأنت ترى أنه قال في الأنعام وحدها: ﴿ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في سائر سور القرآن، في حين قال: (خلقكم) في المواطن الأخرى، ذلك أن الفعل (أنشأ) ورد في الأنعام في أربعة مواطن[١] ولم يرد في السور الثلاث الأخرى أصلاً، فاستعمله للتناسب اللفظي في هذه السورة دون غيرها.

ومن لطيف هذا النوع وبديعه قوله تعالى:

﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾[هود].

---

(١) انظر الآيات ٦، ٩٨، ١٣٣، ١٤١.

وقولــه:

﴿ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الأعراف].

فقد قدم الفاء وأخر (ثم) في آية هود، وقدم (ثم) وأخر الفاء في آية الأعراف. ومن الطريف أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في سورة الأعراف، قدمت (ثم) على الفاء وفي هود بالعكس. وهذا أغرب شيء وأعجبه. قال تعالى في الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿١١﴾ ﴾

وقــال:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ... فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً... ﴿٩٥﴾ ﴾[الأعراف].

وقــال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأعراف].

وقــال:

﴿ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الأعراف].

وقد يكون مفتتح السورة دالاً على تردد قسم من الألفاظ في السورة، وذلك يبدو جلياً فيما يبدأ بالأحرف المقطعة نحو: ألم وحم وطس ونحوها، فكثيراً ما تتردّدُ الألفاظ التي تلي هذه الأحرفَ على نمط معين في السورة أو يكثر استعمالها فيها. فمن ذلك تردد لفظ (الكتاب) و (القرآن) وغيرهما من الألفاظ. فنرى أن لفظي الكتاب والقرآن مثلاً يترددان في السورة على نحو معين، وذلك أن كل سورة يلي الأحرف المقطعة فيها ذكر (الكتاب) وحده ولم يذكر معه (القرآن) تتردد فيها هذه اللفظة أكثر من لفظ (القرآن) وربما لم ترد فيها لفظة (القرآن). وكل سورة يلي فيها الأحرف المقطعة ذكر (القرآن) وحده تتردد فيها لفظة (القرآن) أكثر من لفظ (الكتاب) وربما لم ترد فيها لفظة (الكتاب) ولا مشتقات الكتابة. وكل سورة اجتمع فيها ذكرهما تردد ذكرهما بصورة متقاربة، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر بأكثر من لفظ واحد.

وإليك إيضاح ذلك:

ففي سورة البقرة مثلاً قــال تعالــى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

فقد ذكر الكتاب وحده بعد (ألم) فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتاب ومشتقات الكتابة في هذه السورة سبعاً وأربعين مرة، في حين لم يرد لفظ القرآن أو أي مشتق من مشتقات القراءة إلا مرة واحدة، وهو قولــه تعالــى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴿١٨٥﴾﴾[البقرة] .

وفي سورة آل عمران قــال تعالــى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٣﴾﴾.

فقد ذكر (الكتاب) وحده، فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتابة ومشتقاتها في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يرد فيها لفظ القرآن.

وهذا النهج لم يختلف في أية سورة من السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة. يظهر ذلك في الأعراف ويونس وهود والرعد وإبراهيم والشعراء والقصص ولقمان والسجدة وغيرها.

وقد يلي الأحرف المقطعة ذكر القرآن وحده، فيتردد هذا اللفظ أكثر من الكتاب، بل ربما لم يرد فيها لفظ الكتاب ولا أي لفظ من مشتقات الكتابة، ذلك نحو قولــه تعالــى:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾[طــه] فقد ورد ذكر القرآن ولم يرد لفظ الكتاب بعد هذين الحرفين، فنلاحظ أنه تردد لفظ القرآن في هذه السورة ثلاث مرات وورد لفظ الكتاب فيها مرة واحدة.

ونحوها قولــه تعالــى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾[ق] فقد ورد فيها ذكر القرآن مرتين وورد فيها لفظ الكتاب مرة واحدة. ولم يحصل مرة أن زاد لفظ

القرآن على لفظ لكتابة أو العكس في هذا النوع إلا سورة (صٓ) فإن ذكر القرآن والكتاب تساويا فيها فقد ورد كل منهما مرة واحدة.

وقد يجتمع لفظا الكتاب والقرآن معاً فيترددان بمقدار متقارب وذلك نحو قولــه تعالــى في سورة الحجر: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ فقد اجتمعا في الافتتاح، وقد ذكر الكتاب في السورة مرتين والقرآن ثلاث مرات.

وقولــه في سورة النمل: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ فقد ذكر القرآن في السورة أربع مرات والكتاب خمس مرات.

وهذا من عجائب التعبير ودقيقه.

ولا يقتصر الأمر في مفتتح السور هذه على ذكر الكتاب والقرآن وترددهما على نحو معين، بل هو أوسع من ذلك وأعجب، فقد تتردّد الألفاظ التي ترد في الافتتاح كثيراً في أثناء السورة، وقد تُبنى عليها السورة كلها أحياناً .

وإليك مثلاً يوضح ذلك:

خذ مثلاً مفتتح سورة البقرة وهو قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

ومفتتح سورة لقمان وهو قوله:

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾.

١- فقد أشار في آية البقرة إلى الكتاب ثم نفى عنه الريب.

وأشار في لقمان إلى آيات الكتاب وليس إلى الكتاب.

وانظر بعد ذلك كيف قال في البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ۝٢٣﴾.

فأراد أن يجتث الريب من الكتاب إن كان موجوداً.

وكيف قال في لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۝٧﴾ فذكر آيات الكتاب وليس الكتاب وانظر إلى ارتباط كل آية بالمفتتح.

وقد تقول: ألم يذكر الكتاب في هذه السورة والآيات في سورة البقرة؟ فنقول: بلى ذكر الكتاب والآيات في كلتا السورتين، ولكن ذكرت الآيات في لقمان أكثر من الكتاب، وذكر الكتاب في البقرة أكثر من الآيات. فإن لفظ (الكتاب) لم يرد في لقمان إلاّ مرتين، وورد لفظ الآيات خمس مرات. وأن لفظ (الكتاب) ومشتقات الكتابة ورد في البقرة سبعاً وأربعين مرة، وأن الآية ومشتقاتها وردت فيها إحدى وعشرين مرة.

٢- قال في لقمان: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فزاد الرحمة على الهدى بخلاف البقرة، وانظر بعد ذلك مظاهر الرحمة التي عددها ربنا في السورة من مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴿١٠﴾ ﴾[لقمان] وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان] فانظر كيف جمع الهدى والرحمة في هذه الآية؟

إلى غير ذلك من الآيات في السورة.

٣- وصف الكتاب في لقمان بـ (الحكيم)، وهذا الوصف قد يكون بمعنى اسم الفاعل أي: المحكِم بكسر الكاف، وقد يكون بمعنى اسم المفعول أي: المحكَم بفتح الكاف.. وهو ههنا بمعنى اسم المفعول أي: (المحكَم) كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾. وتأتي هذه اللفظة وصفاً لله بمعنى المحكِم، فلما كان الكتاب حكيماً بمعنى محكَم كان الله حكيماً بمعنى محكِم، فانظر أنه لما قال في وصف الكتاب: ﴿ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ قال في وصف الله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾[لقمان، ٣١].

ثم انظر كيف ذكر الحكمة بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴿١٢﴾ ﴾[لقمان].

٤- قال في البقرة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾. فانظر كيف قال فيما بعد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[البقرة] وقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴿٢٤﴾ ﴾[البقرة] وقال: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾[البقرة]. وقد تكرر لفظ التقوى ومشتقاتها ستاً وثلاثين مرة في هذه السورة.

وقال في سورة لقمان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فانظر كيف قال فيما بعد: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴿٢٢﴾﴾[لقمان] فذكر الإحسان.

٥- قال في مفتتح البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾[البقرة] وختمها بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾﴾.

فانظر كيف ذكر الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله في بدء السورة، وختمها بذاك فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وذكر الإيمان بالرسل قبله فقال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

وقال في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ وختمها بقوله: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

وقال في بدء لقمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ فأكد الإيقان بالآخرة.

فأنت ترى أنه قال في البقرة: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾[البقرة] وقال في لقمان: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ فأكد الضمير الأول (هم) بالضمير الثاني. فلما أكد الإيمان باليوم الآخر في البدء قال في خاتمتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ ﴿٣٣﴾﴾[لقمان] فحذرهم من اليوم الآخر.

ولا نريد أن نطيل فهذا فيه كلام كثير.

وقد تطبع السورة كلها بطابع الافتتاح وليس السياق الذي تقع فيه الآية فحسب، ومن هذا النوع من السور سورة مريم. فهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾[مريم].

فأنت ترى أنها تبدأ بالرحمة، ولا تقتصر الرحمة على السياق الذي وقعت فيه الآية، بل إنّ السورة كلها تفيض بالرحمة، وألفاظ الرحمة تشيع فيها من

أولها إلى آخرها. فقد قالت مريم لرسول ربها الذي تمثل لها بشراً سوياً: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨﴾[مريم] فقد استعاذت بالرحمن ليرحمها ويقيها السوء ولم تقل: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾ كما فعل موسى حين قال لقومه: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾[البقرة] وذلك أن السياق في البقرة سياق عقوبة ومسخ وتنكيل ولاتناسب الرحمة ذاك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٦٦﴾[البقرة].

هذا علاوة على أن لفظ (الرحمن) تكرر في مريم ست عشرة مرة، ولفظ (الله) تكرر في البقرة مائتين واثنتين وثمانين مرة، ولم يرد لفظ (الرحمن) في البقرة إلا مرة واحدة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾[البقرة] فوضع كل كلمة في مكانها اللائق بها.

ونعود إلى جو الرحمة في سورة مريم.

فقد قال الله في عيسى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ ۝٢١﴾[مريم].

وقالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا ۝٢٦﴾[مريم].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾[مريم].

ثم قال له في عبارة كلها رحمة: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ۝٤٥﴾[مريم]. ولم يقل: (عذاب من الله). ثم انظر كيف لما ذكر المسّ ناسب ذلك ذكر الرحمة، بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٧﴾[الأنعام]. وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين والمقامين، فلا يحسن وضع (الرحمن) في آية الأنعام كما هو بيّن. وهذا نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾.

وذكر رحمته لإسحاق ويعقوب فقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٥٠﴾[مريم].

ورحمته لموسى فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم].

وقال في وصف من أنعم عليهم من خلقه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم].

وذكر جنته التي وعدها عباده المتقين فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴿٦١﴾﴾ [مريم].

ثم ذكر أنه ليحضرن العتاة حول جهنم فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم].

وهدد من كان في الضلالة وتوعده قائلاً: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم].

وذكر الذي كفر وزعم أنه سيؤتى مالاً وولداً فقال فيه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم].

وذكر المتقين فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم].

وذكر من يُظن فيهم أنهم يملكون الشفاعة فقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم].

ثم ذكر من زعم أن الله اتخذ ولداً فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم].

ورد عليهم بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

ثم قال في خاتمة السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

وهكذا ابتدأ السورة بالرحمة وتنتهي بالرحمة، ويشيع جوها كله بالرحمة، وتستأثر باسم الرحمن، فلا تدانيها في ذلك سورة من السور.

فانظر كيف طبعت السورة بالطابع الذي ورد في الافتتاح.

ونكتفي بهذا القدر وإلاّ فالكلام طويل طويل.

وانظر بعد ذلك إلى سمو هذا الكلام ورفعته ودقته في اختيار ألفاظه، ثم احكم أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟.

الحشد الفني

لقد مر بنا تبيين الناحية الفنية في موضع واحد من الآية غالباً، كأن يختار لفظة على لفظة أو يقدّم لفظة على أخرى، أو يزيد في مكان ويحذف من مكان آخر ونحو ذلك. وربما اقتضانا الحديث أن نعرض لأكثر من موضع في الآية الواحدة أو السياق الواحد، مما يدل دلالة واضحة على أن كل كلمة بل كل حرف وضع وضعاً فنياً مقصوداً في غاية الدقة والجمال.

وليست هذه الآيات أو السياقات التي سنختارها وحدها موضع الحشد، بل إن القرآن كله حشد فني عظيم متكامل، غير أنه لا بد لبيان ذلك أن نختار أمثلة منه تعيننا على إيضاح ما ندّعيه.

ونود قبل أن نشرع في ضرب الأمثلة أن نبين أنه قد يراعى في اختيار التعبير أمور عديدة وجوانب كثيرة، فقد يراعى السياق الذي ورد فيه التعبير، والسورة التي ورد فيها السياق، والسياقات الأخرى التي يرد فيها تعبير مقارب لهذا التعبير، والسور الأخرى التي فيها مواطن تعبيرية متشابهة أو مختلفة. فهو قد يراعي في تعبير السورة الواحدة وبنائها تعبير جميع السور الأخرى من القرآن الكريم وبناءها.

ولنوضح ذلك بأمثلة من سورة واحدة ولتكن سورة الأنعام، ولا نريد أن نبين الجوانب البلاغية والفنية فيما نذكر، بل نقصر الكلام على بيان قسم من العلاقات الفنية التي يراعيها القرآن في السورة نفسها أو السور الأخرى.

لقد افتتحت السورة بقوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾[الأنعام].

وقال في خاتمة السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام] فناسب بين البدء والختام، فقد ذكر أن الذين كفروا بربهم يعدلون، أما هو فلا يعدل بربه شيئاً. فانظر هذه المناسبة والملاءمة في التعبير حتى كأن التعبيرين في البدء والختام آية واحدة.

ثم انظر إلى التناظر بين التعبيرين فإنه قدّم في التعبير الأول متعلق (يعدلون) وهو قوله: (بربهم)، وقدم في التعبير الآخر مفعول (أبغي) وهو قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾.

ثم انظر كيف قال في الختام: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال في البدء: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أليس الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور رب كل شيء؟

فانظر علو هذا الكلام ورفعته.

ولاتحسبن أن هذه السورة هي السورة الوحيدة التي نوسب بين مفتتحها وخاتمتها. فإن التناسب بين مفتتح السور وخواتيمها أمر معلوم ومشهور. ومن ذلك على سبيل المثال سورة النساء.

فقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾[النساء].

وختمت بقوله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ . . . ﴿١٧٦﴾﴾[النساء].

فقد بدأت بخلق الإنسان وبثّ ذريته في الأرض: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾[النساء] وانتهت بهلاكه من دون عقب ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وهي صورة فنية عظيمة لبدء الحياة ونهايتها.

كما ابتدأت بإيتاء الأموال للنشء الجديد من اليتامى من أنصبتهم من المواريث وهم يستقبلون الحياة، واختتمت بتقسيم تركات من ودّع الحياة.

وهذا من أعجب التناسب وأبدعه.

ومن ذلك سورة الأعراف فقد بدأت بقوله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴿٢﴾﴾[الأعراف].

وختمت بقولـه:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴿٢٠٤﴾﴾[الأعراف].

وهل الكتاب المنزل إليه غير القرآن؟

فانظر كيف بدأت السورة بذكر الكتاب وختمت به أيضاً.

ومن ذلك سورة (هود) فقد ابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴿٢﴾﴾[هود] وختمت بقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴿١٢٣﴾﴾[هود].

فانظر كيف ابتدأت السورة بالنهي عن عبادة غير الله وختمت بالأمر بعبادته.

ومن ذلك سورة (المؤمنون) فقد «جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»[1].

ومن ذلك سورة (يونس) فقد قال في أولها:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٢﴾﴾[يونس].

وقال في خواتيمها:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿١٠٨﴾﴾[يونس].

فبدأ بالإنذار والتبشير وختم بهما أيضاً، فبينت الآية الأخيرة كيفية تنفيذ ما طلب منه في الآية الأولى. فقد قال له في الآية الأولى: (أنذر وبشر) ثم علّمه في آيات الختام كيف يفعل ذاك فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ فكأنهما جزء من آية واحدة.

ومن ذلك في سورة ﴿ص﴾ فقد بدأت بقوله:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾[ص].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

وقال في خواتيمها:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[ص].

فأقسم في بدء السورة بالقرآن ذي الذكر، وختمها بالكلام على القرآن أيضاً وقال: إنه ذكر للعالمين. فبيّن ما أجمله في الافتتاح.

ومن ذلك سورة (ق) فقد بدأت بقوله تعالى:

﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾[ق].

وختمت بقوله:

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾[ق].

والتناسب ههنا أظهر من أن يشار إليه.

وغير ذلك كثير. ولانريد أن نطيل في ذلك، فإن فيما مر كفاية فيما أحسب. فاتضح أن التناسب بين مفتتح السور وخواتمها ليس شيئاً عارضاً ولا موافقة عابرة، وإنما هو سمة بارزة من سمات هذا الكتاب الكريم وأمر مقصود في هذا الكلام الرفيع.

ونعود إلى سورة الأنعام.

فقد قال في هذه السورة: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[الأنعام] وقال في البقرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ فوضع كل لفظة منهما في سياقها الذي يقتضيها أولاً. ثم راعى في الأنعام ما ورد في البقرة - وفي البقرة ما ورد في الأنعام من تردد لفظي (الرب) و (الله) كما سبق بيانه.

وقال في الأنعام: ﴿ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ وقال في النساء والأعراف والزمر: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقد راعى في هذا الاختيار السياق الذي وردت فيه الآية كما راعى تردد لفظ (الإنشاء) في الأنعام والنساء والأعراف والزمر فراعى عدة سور في آن واحد.

وقال في الأنعام: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾فزاد اللام في (سريع)،

وذلك أن سياق الأعراف يقتضي هذه الزيادة، إذ هو في مقام تعجيل العقوبات بخلاف الأنعام.

وقال في الأنعام: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقال في الشعراء: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فقد زاد كلمة (الحق) في آية الأنعام وأخلاها منها في الشعراء، وقد راعى في ذلك الجانب اللفظي لبناء السورتين علاوة على الجانب المعنوي، فقد ترددت كلمة (الحق) في الأنعام اثنتي عشرة مرة، ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء، فوضع كل لفظة في المكان الذي هي أليق به.

ثم انظر كيف ذكر (سوف) في الأنعام والسين في الشعراء، فإنه علاوة على السياق الخاص الذي وردت فيه كل آية من الآيتين، والذي يقتضي كل منهما ذكر ما ورد في سورة الأنعام على تأخير العقوبات بخلاف سورة الشعراء. وهذا واضح في بناء كل من السورتين. . وانظر علاقة ذاك بما ذكرناه في (سريع العقاب) و (لسريع العقاب)، وقد سبق أن بينا ذلك بصورة مفصلة.

وقال في الأنعام: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وقال في الإسراء: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ففرق بين التعبيرين بحسب سياق كل من الآيتين وبنائها.

فانظر كيف راعى في سورة واحدة سوراً متعددة، راعى ألفاظها وسياقها وجوها وكل كلمة وردت فيها، فقد راعى البقرة والأعراف والشعراء والإسراء والنساء والزمر وغيرها، بل ربما راعى في الموطن الواحد جميع سور القرآن وجميع آياته من جميع العلائق والاحتمالات.

فانظر الآن أي تعبير هذا الذي بين الدفتين واحكم بنفسك: أيقدر على مثله البشر أو أي مخلوق من مخلوقات الله؟

وهذا غيض من فيض وقطرة من بحر.

ثم نشرع الآن في بيان أمثلة من الحشد الفني.

١ـ قال تعالى في سورة سبأ:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) ﴾.

وقال في سورة يونس:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) ﴾.

لننظر الآن إلى الفروق في التعبير بين الآيتين:

آيـة سبأ	آيـة يونس
لا يعزب	وما يعزب
عنه	عن ربك
مثقال ذرة	من مثقال ذرة
في السماوات ولا في الأرض	في الأرض ولا في السماء
[بتقديم السماوات على الأرض وجمعها]	[بتقديم الأرض على السماء وإفراد السماء]
ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ (بالرفع)	ولا أصغر من ذلك ولا أكبرَ (بالنصب)

*****

أما النفي بـ (لا) في سبأ فلأن الكلام على الساعة، والساعة استقبال فجاء بـ (لا) الدالة على الاستقبال في النفي. وأما النفي بـ (ما) في يونس فلأن الكلام على الحال، و (ما) مختصة بنفي الحال. فجاء بكل حرف في الموضع الذي يليق به. ألا ترى إلى بدء الآية كيف قال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تأتينا

الساعـة) فنفى بـ (لا) لما كان الكلام على الساعة ولم يقل: (ما تأتينا) لأن الساعـة استقبال؟

وقال في آية سبأ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، وقال في آية يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ فجاء بالضمير في سبأ لأنه تقدم ذكر الرب عالم الغيب فيها فأعاد الضمير عليه، فقد قال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾. ولم يتقدم ذكر له في يونس فلذلك ذكره صريحاً.

وأما زيـادة (من) فـي آيـة يونس وعدم ذكرهـا فـي آيـة سبأ، فلأن سيـاق كـل آيـة منهمـا يقتضـي ذلك. وذلك أن الكـلام فـي آيـة يونس على إحاطة علم الله بعلم الغيب وأنه يعلم كل شيء، ويبدأ الآية بقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

وأما في آية (سبأ) فالكلام على الساعة ابتداء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ... ﴿٣﴾﴾[سبأ] فجاء بعلم الغيب تبعاً للساعة، أما في آية يونس فالكلام ابتداء على علم الغيب ومقدار علم الله وإحاطته بكل شيء بحيث لا يندّ عنه شيء، فناسب ذلك زيادة (من) الاستغراقية المؤكدة التي تستغرق كل مذكور.

وأما تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ (مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) فلأن الكلام على الساعة وأمرها يأتي من السماء وهي تبدأ بأهل السماء كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر] وكما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴿٨٧﴾﴾[النمل].

في حين قدم الأرض على السماء في آية يونس لأن الكلام على أهل الأرض وذلك أنه قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿٦١﴾﴾[يونس] فناسب ذلك تقديم الأرض في آية يونس،

وناسب تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ[1]. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: « فإن قلت: لم قدمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴿٣﴾ ﴾[سبأ]؟

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ ﴾ لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء »[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[آل عمران].

وقوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾[إبراهيم].

وقوله: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾[العنكبوت].

فإنه لما كان الكلام على أهل الأرض فيما مر من الآيات قدم الأرض على السماء[3]. وأفرد السماء في آية يونس وجمعها في آية سبأ، وقد يبدو ذلك مخالفاً للسياق لأن السماوات أكثر من السماء، والمناسب لاستغراق علم الله بالغيب الجمع. وبأدنى تأمل يتضح أن كل لفظة في مكانها أنسب وأليق.

فقد بينا في موضع سابق أن (السماء) في القرآن تستعمل على معنيين، فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) انظر بدائع الفوائد ١/ ٧٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٩.

(٣) انظر البرهان للكرماني ٢٢٧.

بِمَصَٰبِيحَ ﴿٥﴾ ﴾[المُلك] وقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجر].

وإمّا أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره. ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من (السماوات) لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع.

وقد وردت في آية يونس بهذا المعنى الشامل العام: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وهو المناسب للدلالة على سعة علم الله وإحاطته بالغيب واستغراق علمه لكل شيء. فهو أوسع من أن يكون في السماوات السبع وأعم. وناسب ذلك أيضاً ذكر (من) الاستغراقية معها في هذه الآية. وجاء بها مجموعة في آية سبأ لأنه ليس المقام مقام استغراق وإحاطة كما ذكرنا. ثم قال في آية سبأ، ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ بالرفع. وقال في آية يونس: ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ بالنصب، فجاء في آية يونس بلا النافية للجنس الدالة على الاستغراق والتأكيد، ليناسب مقام إحاطة علم الله بالغيب واستغراقه لكل شيء، ويناسب الاستغراق الذي جاءت به (من) الاستغراقية والاستغراق الذي أفادته كلمة (السماء)، لأن (لا) النافية للجنس تفيد الاستغراق كما هو معلوم.

وجاء في آية سبأ بـ (لا) النافية التي لا تنص على الاستغراق، وهي أقل توكيداً من (لا) النافية للجنس، لأن المقام لا يقتضيه والسياق ليس عليه، بل ذُكر علم الغيب فيه تبعاً لذكر الساعة كما أوضحنا.

فترى أن كل كلمة بل كل حرف وضع في مكانه اللائق المناسب.

٢ـ وإليك مثلاً آخر:

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾[النحل].

وقــال:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾[الأنعام].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

النحل	الأنعام
ما عبدنا	ما أشركنا
نحن ولا آباؤنا	ولا آباؤنا (بدون نحن)
حرمنا من دونه مِنْ شيء	حرمنا من شيء
فعل الذين من قبلهم	كذب الذين من قبلهم

****

إنّ سياق سورة النحل في الرد على الشرك والنعي على المعبودات الباطلة من دون الله، فالسورة تبدأ بتنزيه الله عن الشرك: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴾ [النحل] ﴿ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) ﴾[النحل]. وتبين أن الذين اتخذوهم شركاء ليسوا إلا مخلوقات، مثلهم بل هي أحط منهم فهي لا تعي ولا تشعر ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ (٢٢) ﴾[النحل].

وتستمر السورة في الكلام على العبادات وبيان أن كل شيء إنما هو خاضع لله عابد له. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾[النحل].

وقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾[النحل].

بينما سياق سورة الأنعام في الكلام على ما زعموه من محرمات الأطعمة، وما يعتقدونه من أمور باطلة في أنصبة الحرث والأنعام، وما افتروه على الله من تحليل وتحريم بغير علم قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ﴿١٣٦﴾ ﴾[الأنعام].

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾[الأنعام].

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا . . . ﴿١٤٨﴾ ﴾[الأنعام].

فلما كان السياق في آيات النحل على الشرك في العبادات وعبادة غير الله ونحو ذلك مما يتعلق بالعبادة قال: (ما عبدنا من دونه).

ومما حسّن ذلك أيضاً قوله تعالى بعد الآية: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل].

فناسب ذلك ذكر العبادة.

ولما كان السياق في الأنعام على الشرك في التحليل والتحريم، ولاسيما في الأطعمة وليس المقصود بالشرك هنا الشرك الخاص بعبادة غير الله لم يصرح بالعبادة. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[الأنعام].

فسماهم مشركين لإطاعتهم أولياء الشيطان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لفظ (الشرك) وما تفرع عنه تردد في الأنعام أكثر مما في النحل. ولفظ العبادة تردد في النحل أكثر مما في الأنعام. فقد تردد لفظ (الشرك) ومشتقاته ثمانياً وعشرين مرة في الأنعام، وتردد في النحل تسع مرات، وترددت العبادة في النحل أربع مرات، وفي الأنعام مرتين، فوضع لفظ العبادة في النحل والشرك في الأنعام جاعلاً كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.

ولما كان السياق في النحل في العبادة والتوحيد وهي أهم من الأطعمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات] زاد (نحن) توكيداً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الكلام في النحل موجه إلى المخاطبين أكثر مما في الأنعام، لذا كان من المناسب زيادة (نحن) في النحل دون الأنعام لأنه جواب منهم.

وقد تردد ذكر من هم دون الله من المعبودات في النحل أكثر مما في الأنعام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٧٣﴾﴾[النحل].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[النحل] لذا زاد: (من دونه) فيها.

هذا علاوة على أن ذكر (من دونه) بعد قوله: (ما عبدنا) يقتضيه المعنى، بخلاف (ما أشركنا) وذلك أنه لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لم يكن المعنى

مستقيماً. وكذلك لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا من شيء). فانه لم ينع عليهم أصل العبادة فان العبادة مطلوبة، ولكن نعى عليهم عبادة غير الله. فلو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لكانت العبادة مرفوضة أصلاً، ولو قال: (ما عبدنا من شيء) لكان الله سبحانه يدخل في جملة المعبودات المرفوضة، وسيكون المعنى أنه لا شيء يصلح للعبادة حتى الله سبحانه. ولذا كان لا بد من ذكر (من دونه من شيء) ليصح المعنى المراد.

وأما قوله: (لو شاء الله ما أشركنا) فإنه واضح القصد تام المعنى، فإن مفهوم الشرك واضح معلوم وهو مذموم بكل صوره وأشكاله. فقوله: (ما أشركنا) معناه: ما أشركنا مع الله أحداً. ولا يقتضي هذا التعبير زيادة شيء لتوضيحه.

جاء في (درة التنزيل) في ذكر (من دونه شيء) بعد قوله: (ما عبدنا) دون (ما أشركنا). «قوله: (ما أشركنا) مُستغنٍ عن ذكر المفعول به وإنْ كان في الأصل متعدياً لقوله: (أن تشركوا به شيئاً) وإنما لم يحتج إلى ذكر المفعول به كما احتاج إليه(عبدنا) لأن الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته. والعبادة لا تدل على إثبات معبود لا يجوز إثباته، لأنها تدل على معبود هو مثبت لا يصح نفيه.

فقوله: (ما عبدنا) غير مستنكر أن يعبدوا، وإنما المستنكر أن يعبدوا غير الله شيئاً فكان تمام المعنى بذكر قوله: (من دونه من شيء). وكذلك: (ولا حرمنا من دونه من شيء) لا بد من (حرمنا) من قوله: (من دونه من شيء). ولم يحتج إليه بعد قولنا: (ما أشركنا) لأن الإشراك دال على أن صاحبه يحرم شيئاً من دون الله، ولا يدل (عبدنا) على ذلك. فوفى اللفظان في سورة النحل حقهما من التمام»[1].

وقال في (الأنعام): ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وفي النحل: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وذلك لما تردد في الأنعام افتراؤهم وكذبهم على الله فقد قال عنهم أنهم: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا

---

(١) درة التنزيل ١٣٣ـ١٣٤.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴿١٣٦﴾﴾ وهذا كذب وافتراء على الله. وقال بعدها: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ وقال بعدها: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقد ذكر من كذبهم الشيء الكثير ـ انظر الآية ١٣٩.

وقد قالوا: إن الله حرم ثمانية أزواج من الأنعام فقال لهم: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

أما السياق في النحل فيقتضي لفظ (فعل) دون (كذب) وذلك أن الآية وقعت في سياق الفعل والعمل دون سياق الافتراء والتكذيب، فقد قال قبلها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾. فقد ذكر فعل الذين من قبلهم وذكر ظلمهم لأنفسهم. والظلم فعل.

وقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فذكر عملهم واستهزاءهم وهذا كله فعل ثم جاء بالآية بعدها.

فأنت ترى أن (الفعل) هو المناسب لسياق النحل، وأن التكذيب هو المناسب لسياق الأنعام.

هذا علاوة على تردد (الكذب) في الأنعام أكثر مما في النحل. فقد تردد ذكر الكذب في الأنعام إحدى وعشرين مرة، في حين تردد في النحل عشر مرات فكان ذكر (كذب) أليق في الأنعام.

وتردد (الفعل) في النحل أكثر مما في الأنعام فقد تردد فيها أربع مرات، وفي الأنعام ثلاث مرات فكان لفظ (فعل) أليق في النحل. وهكذا وضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها.

ثم إن خاتمة كل آية أليق بها من صاحبتها. فقد ختم آية الكذب والافتراء والقول على الله بغير علم بقوبه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام]. فإذا لم يكن عندهم علم لم يكونوا إلا ظانين متخرصين.

وختم آية التبليغ الواقعة في سياق التبليغ بقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النحل] ويأتي بعدها تبليغ الرسل لأممهم دعوة الله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

٣ - وإليك مثلاً آخر وهو قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله في هذه السورة أيضاً:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

والآن انظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين:

الآية ٥٥	الآية ٨٥
أموالهم ولا أولادهم	أموالهم وأولادهم (بدون لا)
ليعذبهم	أن يعذبهم
في الحياة الدنيا	في الدنيا

وسبب ذلك والله أعلم أن السياق في الآية الأولى ذات الرقم ٥٥ يختلف عن السياق في الآية الثانية.

إن الآية الأولى في سياق إنفاق الأموال والخطاب للمنافقين. قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن

تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ . . . الآية﴾.

وبعدها: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وبعدها: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

فالسياق في إنفاق الأموال والكلام على المنافقين وأموالهم، ثم وجه الخطاب إلى الرسول قائلاً: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ فزاد (لا) النافية توكيداً ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ وزاد اللام في (ليعذبهم) لزيادة الاختصاص وتوكيده

في حين أن السياق مختلف في الآية الأخرى. قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا . . .﴾.

فسياق الآيات الأولى في إنفاق الأموال، فأكد ذلك بزيادة (لا) واللام. ولما اختلف السياق في الآيات الأخرى خالف في التعبير فلم يذكر (لا) ولا اللام، لأن المقام لا يقتضي التوكيد هنا.

ولما طال الكلام على الإنفاق والأموال في الآيات الأولى، زاد الكلام في هذه الآية دون الأخرى فقد زاد (لا) و (اللام) و (الحياة). ولما كان المال عصب الحياة كما يقال ومظنّة الوصول إلى الرفاهية والسعادة زاد كلمة (الحياة) ههنا، بخلاف الآية الأخرى فإنها في سياق الجهاد والقتال. والقتال والجهاد مظنّة القتل وفقد الحياة، ولذا لم يأت بالحياة في سياق الجهاد، بخلاف سياق المال، لأن الحرب سبيل فقد الحياة بخلاف المال والله أعلم.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[الأنبياء].

وقوله:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[المؤمنون].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

الأنبياء	المؤمنون
فاعبدون	فاتقون
وتقطعوا	فتقطعوا
—	زبراً
كل إلينا راجعون	كل حزب بما لديهم فرحون

* * *

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: (فاعبدون) وفي سورة المؤمنون: (فاتقون) فإن كل سياق يقتضي ذلك من أكثر من وجه.

فإن آية المؤمنين جاءت في عقب ذكر عقوبات طوائف كثيرة من الأمم ممن عصوا الرسل وإهلاكهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ويستمر التحذير والتهديد بعد هذه الآية وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وغير ذلك وغيره. فأنت ترى أن التحذير والتهديد اكتنف هذه الآية اكتنافاً، بل إن جو السورة مشحون بالتحذير والتهديد.

وأما آية الأنبياء فإنها جاءت بعد ما يدل على الإحسان والتفضل واللطف التام كما في قصة أيوب وزكريا ومريم.

فناسب أن يوضع لفظ: (فاتقون) في آية (المؤمنون) لما فيه من التحذير والتخويف المناسب للعقوبات والإهلاك، ولفظ: (فاعبدون) في آية (الأنبياء) بعد ذكر الإحسان واللطف «فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته»[1].

ثم انظر من ناحية أخرى إلى خاتمة السورتين، فقد ختم سورة الأنبياء فيمن سبقت لهم الحسنى وختم لهم بالسعادة، وختم سورة المؤمنين فيمن كان من أصحاب الشقاء وكان من أصحاب الجحيم.

فناسب من هذا الوجه أن تختم آية المؤمنين بالأمر بالاتقاء ليتقوا عذاب النار ويحذروا هذا المصير الوبيل، كما ناسب أن تختم آية الأنبياء بالأمر بالعبادة لينالوا هذه السعادة ويحظوا بهذا الإحسان والفضل الكبير. وهذا كما ترى مناسب لما تقدم كلاً من الآيتين من عقوبات وتحذير في سورة (المؤمنون) ولطف وتفضل في سورة (الأنبياء).

ثم انظر من الناحية التعبيرية، فإن لفظ الاتقاء والتقوى ومشتقاتها لم ترد في سورة الأنبياء البتة لأن السياق لا يقتضيها، بخلاف سورة (المؤمنون) فإنه ورد فيها ذلك أربع مرات وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ وقوله: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وأما لفظ العبادة ومشتقاتها فقد وردت في سورة الأنبياء ثماني مرات[2]، ووردت في سورة (المؤمنون) مرتين فقط[3].

فيكون على هذا الأمر بالتقوى في آية (المؤمنون) في موطنه ومعدنه، والأمر بالعبادة في آية الأنبياء كذلك.

---

(١) انظر البحر المحيط ٦/٤٠٩، روح المعاني ١٨/٤١، ملاك التأويل ٢/٧٠٨.
(٢) انظر الآيات ١٩، ٢٥، ٥٣، ٧٣، ٨٤، ٩٢، ٩٨، ١٠٦.
(٣) انظر الآيتين ٣٢، ٤٧.

فناسب من كل وجه الأمر بالعبادة في آية الأنبياء والأمر بالاتقاء في آية (المؤمنون).

وأما قوله في الأنبياء: (وتقطعوا) بالواو، وفي سورة (المؤمنون): (فتقطعوا) بالفاء فيقتضي كل سياق ما ورد فيه. فقد جاء في آية (المؤمنون) بالفاء للدلالة على أن التقطّع والافتراق وقع في عقب الأمر بالتقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته، مما يدل على شدة كفرهم وعنادهم، جاء في (روح المعاني): «والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم»[1].

وجاء في الأنبياء بالواو مما يحتمل تأخر تقطعهم عن الأمر بالعبادة[2] لأن الواو لمطلق الجمع وليست كالفاء التي تفيد التعقيب والترتيب. فنص على الأولين بأنهم افترقوا وأنكروا في عقب أمرهم بالتقوى، ولم ينص على هؤلاء بذلك. فورود الفاء في سياق آية (المؤمنون) أنسب لما فيه من عقوبات وإهلاك وتحذير، وورود الواو في سياق آية الأنبياء أنسب.

وقال في آية (المؤمنون): (زُبُراً) توكيداً للتفرق الذي حصل، ومعنى زُبُر: فِرَق جمع فرقة[3]. وهذا التوكيد هو المناسب لهؤلاء الأقوام المبالغين في العناد والكفر، بخلاف آية الأنبياء.

وقال في آية (المؤمنون): ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ وهو المناسب لقوله (زبراً) والزبر: هي الجماعات والأحزاب والفرق كما ذكرنا، فلما أكد التفرق ناسب ذكر الأحزاب لذلك.

وقال في ختام آية الأنبياء: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ وذلك لقوله بعد هذه الآية: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ وعلاوة على ذلك تردد

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٤١.

(٢) انظر البحر المحيط ٦/ ٤٠٩، ملاك التأويل ٢/ ٧١٠-٧١٢.

(٣) انظر روح المعاني ١٨/ ٤١.

الرجوع ومشتقاته في هذه السورة ست مرات، في حين لم يرد في سورة (المؤمنون) إلا ثلاث مرات.

فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه أحسن مناسبة ولاءمه أتم ملاءمة.

٥ - ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾[الحج].

وقوله:

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[السجدة].

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين.

الحج	السجدة
من غمٍّ	–
–	وقيل لهم
عذاب الحريق	عذاب النار
–	الذي كنتم به تكذبون

* * *

أما زيادة قوله (من غمٍّ) في آية الحج فهو المناسب، وذلك أنه ذكر الجزاء مفصلاً في سياق الحج بالنسبة للمؤمنين والكافرين. وقال تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أما في سورة السجدة فقد وقع ذكر الجزاء موجزاً بالنسبة إلى الطرفين: قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فناسب قوله: (من غمٍّ) ذكر التفصيل الوارد في سورة الحج دون السجدة[1]، ثم إنّ العذاب المذكور في آيات الحج أشد مما ورد في السجدة، والعذاب الشديد مدعاة إلى الغمّ كما لا يخفى فناسب ذكر الغمّ لذلك.

وأما ذكر: (وقيل لهم) في آية السجدة دون آية الحج، فقد يظن ظانّ أنه كان ينبغي ذكر هذه العبارة في آية الحج دون آية السجدة، لما في آيات الحج من تفصيل، وفي آية السجدة من إيجاز، ولكن بأدنى تأمل يتضح أنها وقعت في المكان المناسب لها تماماً وأن المقام يقتضيها من أكثر من وجه. ذلك أن مشهد العذاب في آيات السجدة مشهد غائب مخبر عنه وأن التعبير فيها بني على الغيبة. والسياق في كل من المواطنين يوضح هذا الأمر أبين توضيح. قال تعالى في سورة الحج: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ... ﴾.

فقد بدأ المشهد بقوله: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ﴾ فأشار إلى هذين الخصمين باسم الإشارة الدال على المشاهدة والحضور والقرب. فناسب ذلك عدم ذكر: (وقيل لهم) الدال على الغيبة.

وأما في السجدة فالمشهد غائب كما ذكرت، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فناسب ذلك أن يقال: (وقيل لهم) بخلاف آية الحج.

(١) انظر ملاك التأويل ٢/ ٧١٧-٧١٨.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: إن القول ومشتقاته تردد في سورة السجدة أكثر مما تردد في سورة الحج، فقد ورد في سورة السجدة سبع مرات، وورد في سورة الحج ست مرات، مع أن سورة الحج أطول من سورة السجدة بكثير، فإن آيات سورة الحج تبلغ ثمانياً وسبعين آية، في حين تبلغ آيات سورة السجدة ثلاثين آية.

فناسب من هذا الوجه أيضاً أن يذكر القول في السجدة دون الحج.

وأما قوله في آية الحج: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وقوله في آية السجدة: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فإن كلا تعبير مناسب لموطنه الذي ورد فيه. فإن آية الحج قيلت في الكافرين. قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ . . .﴾.

وآية السجدة قيلت في الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾. والفسق قد يطلق على ما دون الكفر وقد يطلق على الكفر، فلما صرح بالكفر في سورة الحج كان ذكر العذاب أشد فقال: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. والحريق هو النار البالغة في الإحراق[1]. فذكر أن للفاسقين النار وللكافر النار البالغة في الإحراق. وهذا يناسب من ناحية أحرى ذكر الغم في آية الحج دون السجدة.

فناسب كل صنف عذابه الذي ذكر معه.

وأما ذكره في آية السجدة التكذيب بعذاب النار وهو قوله: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية الحج، فذلك لأن آية السجدة في الفاسقين، والفسق قد يقال لما دون الكفر، فَبَيَّنَ أن هذا الصنف هم من الكفرة المكذبين بالوعيد لئلا يظن ظان أنهم من عصاة المؤمنين. وأما في سورة الحج فقد أفصح بكفرهم فلا حاجة لذاك. جاء في (ملاك التأويل): «أن آية السجدة لما قيل فيها: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ والفسق: الخروج، وقد يكون إلى معصية دون الكفر، ويكون إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع

---

(1) روح المعاني ١٧/ ١٢٢.

الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر حين كذبوا بالوعد والوعيد الأخروي فقيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

أما آية الحج فتقدم قبلُ ذكرُ الإفصاح بكفرهم في قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلم يحتج إلى التعريف الوارد في سورة السجدة، فجاء كل على ما يجب ويناسب»[1] فأنت ترى أن كل لفظ إنما وضع في مكانه الذي هو أليق به.

٦ - ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾.

وقوله في سورة الإسراء:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ

---

(١) ملاك التأويل ٢/٧١٨.

سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء].

* * *

هاتان الموعظتان متشابهتان تقريباً إلا في الإيجاز أو التفصيل. فقد بنيت آيات الأنعام على الاختصار والإيجاز، وبنيت آيات الإسراء على التوضيح والتفصيل.

إن الأمور المشتركة التي تشتمل عليها كلتا هاتين المجموعتين من الآيات هي:

١ - النهي عن الإشراك بالله.

٢ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

٣ - النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر.

٤ - النهي عن الاقتراب من الفاحشة.

٥ - النهي عن قتل النفس.

٦ - النهي عن التصرف بمال اليتيم.

٧ - الأمر بإيفاء الكيل والميزان.

٨ - الأمر بالإيفاء بالعهد.

إن هذه الآيات وردت في السورتين على نسق واحد مع اختلاف يسير بينهما. وإليك طرفاً من هذا الاختلاف.

١ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وقال في الإسراء: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

٢ - قدّم ضمير الآباء على الأبناء في الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقدّم ضمير الأبناء في الاسراء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

٣ - نهى عن الفواحش عموماً في الأنعام فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. ونهى عن الزنى خاصة في الإسراء فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

٤ - قدّم الإيفاء بالكيل والميزان على الوفاء بالعهد في الأنعام. وقدّم الوفاء بالعهد عليهما في الإسراء.

٥ - زاد الأمر بقول العدل في الأنعام فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾. ولم يذكر ذلك في الإسراء. وزاد في الإسراء إيتاء ذوي القربى والنهي عن التقتير.

٦ - قدّم الجار والمجرور على فعل الإيفاء في الأنعام فقال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾. وقدّم الفعل على الجار والمجرور في الإسراء فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾.

٧ - زاد عبارة ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ في الإسراء، ولم يذكر ذلك في الأنعام.

هذه أهم الاختلافات بين الآيتين في السورتين علاوة على الاختلاف في التفصيل أو الإجمال كما ذكرنا. وسنبين أسباب هذه الاختلافات بصورة موجزة.

١ - قال في الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فنهى عن الشرك.

وقال في الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فنهى عن الشرك، ثم قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فأمر بتخصيص الله بالعبادة. ففصل في الإسراء ما لم يفصل في الأنعام، وذلك متناسب مع سياق كل منهما من حيث التفصيل أو الإيجاز.

٢ - قال في الإسراء والأنعام بعد النهي عن الشرك بالله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وذلك لعظم منزلة الإحسان إلى الأبوين عند الله.

ولما قال في الأنعام: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ كان المظنون أن يقول: (ولا تسيئوا إلى الوالدين) لأنه بسبيل ذكر المحرمات، والإساءة إلى الوالدين من المحرمات، إلا أنه عدل عن ذلك إلى قوله: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لأن عدم الإساءة لا يفي بحق الوالدين. فالمطلوب هو الإحسان إليهما وليس عدم الإساءة إليهما. ولو قال: (ولا تسيئوا إليهما) لفهم من ذلك أن عدم الإساءة كافٍ بحقهما والإحسان تفضل منك عليهما. جاء في تفسير البيضاوي في قوله: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ «أي: وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن تركَ الإساءة في شانهما غير كاف بخلاف غيرهما»[1].

وقد زاد على ذلك في سورة الإسراء فتبسط في ذكر إحسان معاملتهما وعدم الإساءة إليهما فقال: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

وهو المناسب لسياق التفصيل فيها بخلاف سياق آيات الأنعام المبنيّ على الإيجاز والاختصار.

٣ - قال في الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾.

قدّم في الأنعام رزق الآباء على الأبناء فقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وقدّم في الإسراء رزق الأبناء على الآباء فقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وذلك لأنهم في الأنعام يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ فهم محتاجون إلى الرزق العاجل للقيام بتكلفة الأبناء. وأما في الإسراء فهم يقتلون أبناءهم خشية الفقر في المستقبل لا أنهم مفتقرون في الحال، ولذلك قدّم رزق الأبناء على الآباء لإخبارهم أن رزقهم معهم وأنهم لا يشاركونهم في رزقهم. فآية الأنعام في الفقراء، وآية الإسراء في الموسرين. جاء في (البحر المحيط) أن قوله:

---

(١) أنوار التنزيل ١٩٦.

﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ ظاهره «حصول الإملاق للوالد لا توقّعه وخشيته، وإن كان واجداً للمال فبدأ أولاً بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرازق ثم عطف عليهم الأولاد.

وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه، فبدىء فيه بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ إخباراً بتكفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم، وعطف عليهم الآباء، وصارت الآيتان مفيدتين معنيين:

أحدهما: أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم.

والآخر: أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشيته»[1]. وقد سبق أن ذكرنا ذلك في موطن سابق.

ثم إنه وضع كل آية في سياقها المناسب فقد وضع قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ في سياق الموسرين في آيات الإسراء فقد قال قبلها: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، والمأمور بإعطاء حقوق هؤلاء هم الأغنياء الموسرون لا الفقراء. ثم قال ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ والمأمور بعدم التبذير هو الموسر في الأكثر، لأن الفقير ليس عنده شيء في الغالب فيبذّره.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وهذا يقال لمن كان عنده مال ولا يقال للفقير المعدم، فإن الفقير لا يتمكن من بسط يده كل البسط وإنفاق ما عنده. فناسب ذلك أن يقول مخاطباً الموسرين: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

فوضع كل آية في مكانها الذي هو أليق بها.

وقد تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٤٠﴾﴾ ذلك أن الداعي لقتل المفتقرين أبناءهم أقوى من داعي الموسرين فوضعها في سياقها المناسب. ثم بيّن أن هؤلاء خسروا ولم يربحوا كما كانوا يظنون.

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٥١.

وقال في الإسراء: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأنعام، ذلك أن قتل الآباء الموسرين أولادهم خشية الافتقار أعظم جرماً من قتل الآباء المفتقرين الذين ليس عندهم ما يقوم بإعالة أولادهم. ولا شك أن كليهما مرتكب لكبير إلا أن هذا أكبر وأعظم جرماً.

٤ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وقد مرّ في السورة نحو هذا فقال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

فقد عمم في الأنعام فذكر الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وخص الزنى بالذّكر من بين الفواحش في الإسراء. وسبب ذلك والله أعلم أن المفتقر الذي لا يجد شيئاً قد يرتكب سيئات كثيرة ليسدّ خلته، فهو قد يسرق وقد يزني وقد يقتل وقد يفعلُ وقد يفعل وقد نسب إلى الرسول ﷺ أنه قال: (كاد الفقر أن يكون كفراً). وجاء في الأثر: (عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه). و قد أسقط عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرمادة لأن الناس جياع. حتى إنَّ الاشتراكية الحديثة جعلت الفساد كله مسبباً عن الفقر.

فوضع في سياق المفتقرين النهي عن عموم الفواحش، لأن الفقر مدعاة إلى ارتكابها.

وقد خص الزنى بالذّكر في الإسراء لأنه أكبر أو من أكبر ما يبغيه الموسرون، فهم يبذلون له المال الكثير ويلهثون وراءه.

فانظر كيف جمع الفواحش مع المفتقرين وذكر الزنى خصوصاً مع الموسرين، ولم يكتف بذاك بل علل النهي عنه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فنهى بذلك عن سائر الفواحش.

ثم انظر كيف نهى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾. والنهي بـ (لا تقربوا) أشد من النهي بـ (لا تزنوا) أو (لا تفعلوا فاحشة) ونحوها، ذلك أنه نهيٌ عن الاقتراب منه فضلاً عن مباشرته وفعله. جاء في (روح المعاني): «ولا تقربوا الزنى بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلاً عن مباشرته، والنهي عن قربانه

على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه ولأن قربانه داعٍ إلى مباشرته»[1].

وقد وسط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرّمة، ذلك لأن الزنى مدعاة إلى قتل الأولاد غير الشرعيين أو جعلهم في حكم المقتولين برميهم للتخلص منهم. فيكون التعبير قد تدرج من قتل الأولاد بسبب الفقر إلى قتل الأولاد بسبب الفاحشة إلى قتل النفس عموماً.

جاء في (روح المعاني): «وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرّمة مطلقاً. . . باعتبار أنه قتل للأولاد، لما أنه تضييع للأنساب فإن مَنْ لم يثبت نسبه ميت حكماً»[2].

٥ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.

فاكتفى بذكر النهي في الأنعام ولم يكتف بذاك في الإسراء، بل ذكر ذلك وذكر حق الولي في الاقتصاص ونهاه عن الإسراف في القتل.

والنهي عن الإسراف ههنا متناسق مع النهي عن التبذير في الأموال، ثم إن هذا التبسط والإفاضة ملائمان لسياق الإسراء، كما أن ذلك الإيجاز والاختصار ملائمان لسياق الأنعام.

٦ - قال في الأنعام والإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[١٥٢و٣٤] فقد نهاهم عن الاقتراب منه إلا بالتي هي أحسن فكيف بالتصرف فيه ؟ وهذا النهي أبلغ من القول: (ولا تتصرفوا بمال اليتيم) أو نحو ذلك، فقد «نهى عن قربانه لما ذكر سابقاً من المبالغة في التعرض له»[3].

---

(١) روح المعاني ١٥/٦٧.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) روح المعاني ١٥/ ٧٠.

٧ - قدّم الإيفاء بالكيل والميزان على الإيفاء بالعهد في الأنعام، وقدّم الإيفاء بالعهد على الإيفاء بالكيل والميزان في الإسراء، ذلك لأنه مر ذكر المفتقرين في الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾، ومر ذكر الموسرين في الإسراء، والفقراء أدعى إلى التطفيف وعدم الإيفاء بالكيل لحاجة المفتقر إلى المال، فكان وضع كل تعبير في مكانه الذي هو أليق به.

٨ - قال في الأنعام: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾. فزاد (إذا كلتم). وهذه الزيادة متناسبة مع سياق التفصيل في الاسراء. ومعنى: (إذا كلتم) وقت الكيل، فقد أمر بالإيفاء وقت الكيل وعدم تأخير بعض الحق. جاء في (البحر المحيط): «والتقييد بقوله: (إذا كلتم) أي: وقت كيلكم على سبيل التأكيد وأن لا يتأخر الإيفاء بأن يكيل بنقصان ما، ثم يوفيه بعد فلا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل»[1].

وفي هذا التقييد فائدة أخرى فمعنى (إذا كلتم): إذا بعتم، والتطفيف يكون في هذا الموطن فإن البائع هو الذي يطفف وينقص في الكيل أما الذي يكتال فلا حاجة إلى أمره بالإيفاء[2].

٩ - قال في الأنعام بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾.

ومناسبته مع ما قبله أن ما قبله أمر بالعدل في الأمور المادية، وهذا أمر بالعدل في القول.

١٠ - قال في الأنعام: ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ بتقديم الجار والمجرور على الفعل.

وقال في الاسراء: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ﴾ بتقديم الفعل على الجار والمجرور.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٤ - ٣٥.

(٢) انظر روح المعاني ١٥/ ٧١.

وهذا التقديم في آية الأنعام للاهتمام والعناية، ذلك أنه أضاف العهد إلى الله فازداد تفخيماً وكان ذلك أدعى إلى تقديمه.

وقد تقول: ولكن الله سبحانه قال في مكان آخر: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴿٩١﴾ ﴾[النحل] فقدم الفعل على عهد الله.

وأحسب أن الفرق واضح بينهما ففي آية النحل خصص عهد الله بقوله: (إذا عاهدتم) وأطلقه في آية الأنعام. والفرق بينهما أن العهد الذي في النحل يعني به العهد الذي يعقده الشخص باختياره بدليل قوله: (إذا عاهدتم). جاء في (التفسير الكبير): «ولقائل أن يقول: : إنه تعالى قال: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله: (إذا عاهدتم) يدل على هذا المعنى»[1].

وأمّا ما في آية الأنعام فهو عام يشمل جميع العهود ما عهده الله إلى عباده وما تعاهد عليه الخلق فيما بينهم. ولا شك أن عهد الله بالمعنى العام أعظم من عهود العباد فيما بينهم. فقدم المجرور في الأنعام للاهتمام والعناية، وقدّم الفعل في النحل.

وهناك أمور أخرى طريفة في هاتين المجموعتين من الآيات، غير أننا نكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية فيما أحسب.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٠٧ .

الحشد الفني في القصص القرآني

إن القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه. وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

إن قصة موسى مثلاً فيها مواطن عبر كثيرة ومواطن استشهاد متعددة:

منها: بيان أن قدر الله ماضٍ لا محالة وأنه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجئه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل، ويتجلى ذلك في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، إلا أنه ربى في حجره الشخص الذي كان مقدراً له أن يزيل ملكه.

ومنها: بيان عاقبة الظُلم والظالمين، ويتجلى ذلك في نهاية فرعون النهاية الوبيلة.

ومنها: بيان لنفسية الشعوب المستضعفة المستذلة ولتكونها والسبل التي ينبغي أن تسلكها لتتحرر. ويتجلى ذلك في ذكر نفسية وتكوين بني إسرائيل الذين تربوا على الذلة والجبن والخنوع وذكر عنادهم وصلفهم وجبنهم وحبهم للدنيا، ومحاولة سيدنا موسى إعدادهم إعداداً آخر يرفعهم من وهدة الوحل الذي يتمرغون فيه، فلم يستجيبوا له حتى قضى الله عليهم بالتيه أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل وأخرج جيلاً آخر لم يتكون مثل هذا التكوين الذليل ولم ينشَأ تلك النشأة المهينة.

ومنها: بيان أن الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وآمنت به، وأنه ليس بوسع أحد أيّ أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتخذ من وسائل

إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى وفي دخول الحق بيت فرعون أعني إيمان امرأة فرعون.

وفيها وفيها، فذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق منها.

ولذا نراه لا يذكر القصة على صورة واحدة بل، نراه يذكر في موطن ما يطوي ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر. بل تراه أحياناً يغير في التعبيرات ونظم الكلام تغييراً لا يخل بالمعنى. كل ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلبه المقام وذلك في حشد فني عظيم.

وحتى لا نطيل في سرد هذه الأحكام نذكر أمثلة على ذلك في اختيار طرف من القصص القرآني ولنبدأ بقصة سيدنا آدم عليه السلام.

قصة سيدنا آدم عليه السلام

١ ـ قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا

رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾.

* * *

تبدأ هذه القصة في البقرة من أقدم حدث فيها حين أبلغ الرب ملائكته بقراره في أن يجعل في الأرض خليفة وذلك قبل خلق آدم. وفيها ذكر مراجعة الملائكة لربهم في هذا القرار مبدين عدم رغبتهم في هذا الاستخلاف لأسباب ذكروها. فقطع عليهم تخوفهم وظنونهم بعلمه الذي لا يحد. ثم ذكر اختبار المفاضلة الذي أجراه بين آدم والملائكة ففضلهم فيه آدم، وثبت لهم فيه أنهم ليسوا أهلاً للاستخلاف في الأرض بخلاف آدم.

لقد ذكر هذه الأوليات في أول سورة في القرآن تذكر فيها القصة ولم يذكرها في موطن آخر، وذكرُ هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات له أكثر من دلالة، فنية وغير فنية.

ومن بين جوانبها أنها وردت في المكان المناسب لها تماماً، فقد وردت أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن، كما أنها أول قصة افتتح فيها القصص القرآني. في حين ذكرت القصة في سورة الأعراف من مرحلة الخلق والتصوير فهي تبدأ بقوله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) فكأنها كانت استكمالاً لما ورد في البقرة.

ذكر الله قصة آدم في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾.

وهذه الآية التي سبقت بها قصة آدم بدأت بتكريم الإنسان: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وختمت بالعلم: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وجاءت القصة بعدها مبنية على هذين الركنين: تكريم آدم وتكريم العلم.

أما تكريم آدم فيظهر فيما يأتي:

١ ـ ذكر استخلاف آدم في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهذا تكريم، إذ المستخلف ذو منزلة رفيعة ولا شك.

٢ ـ تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها مما لا يعلمه الملائكة.

٣ ـ إسجاد الملائكة له.

وأما العلم في هذه القصة فقد تركز ذكره في ثلاثة مجالات:

١ ـ إثبات العلم الشامل لله.

٢ ـ نفي العلم عن الملائكة إلا ما علمهم إياه رب العزة.

٣ ـ إثبات التعليم لآدم بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم.

ومن هذا يتبين أن القصة وقعت في سياقها أحسن موقع وأجمله. فكأنها جاءت تفصيلاً لما أجمل في الآية قبلها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن ذكر استخلاف آدم في الأرض لم يرد إلا في هذا المكان، ولم يرد في أي مكان آخر من القرآن الكريم. وهو أنسب مكان له أيضاً إذ الاستخلاف الناجح لا بد أن يتم له أمران:

الأول: أن يكون للخليفة حق التصرف والتدبير فيما استخلف فيه.

والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائماً على العلم بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف.

أما الجانب الأول وهو جانب التدبير والتصرف فقد فوضه به ربه بأوسع نطاق بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعاً ما صح أن يكون خليفة لله فيها.

وأما من حيث إمكانياته وقدراته فقد تبين بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة.

وقد ذكرت الآية التي وردت في مقدمة القصة هذين الركنين وهما قوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فتكون الآية أجملت ركني الاستخلاف أيضاً، وبهذا تقع مسألة الاستخلاف هذه في أنسب مكان لها أيضاً.

ويتبين مما مر:

أنّ الآية التي وقعت في مقدمة القصة أجملت قصة آدم من ناحية، وأجملت ركني الاستخلاف المذكور فيها من ناحية أخرى.

فتكون قصة آدم بصورتها هذه وقعت في أنسب سياق لها وأعجبه.

هذا من حيث التفصيل السياقي للقصة، وأما من حيث الإجمال فإننا يمكننا القول: إنّ القصة في هذا الموطن في كل حلقاتها ومجالاتها مبنية في الحقيقة على تكريم آدم، وكل الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنما تخدم هذا التكريم. فتكريم العلم إنما ظهر في العلم الذي يحمله آدم، ومسألة الاستخلاف إنما تدور على استخلاف آدم. فهي تدور أساساً على تكريم آدم. وكل ما فيها من ألفاظ ومواقف إنما هي مبنية على هذا التكريم.

في حين أن القصة في الأعراف ليست مبنية على هذا الأمر بل لها غرض آخر، وقد وقع فيها التكريم ثانوياً. ونظرة واحدة إلى السياق الذي وقعت فيه القصة والتعبيرات التي وردت فيها تريك مصداق هذا الأمر.

لقد بدأت القصة في الأعراف بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

وأنت ترى الفرق واضحاً من حيث التكريم بين قوله: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾. وغني عن القول إنّ التعبير الأول يدل على تكريم أكبر من الثاني. ثم انظر كيف ختم الآية بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فهي في مقام العتاب على بني آدم ومؤاخذتهم على قلة شكرهم وليست في مقام تكريمهم. وقبلها قال ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فأنت ترى أن المقدمتين تختلفان، وكل قصة إنما جاءت منسجمة مع مقدمتها.

أما من حيث السياق فإن القصة وقعت في الأعراف في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم، وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ ﴾

فقد ذكر أنه عاقب قسماً كثيراً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم، فالفرق واضح بين السياقين. ولذا بنيت كل قصة على ما جاء في سياقها. وإليك إيضاح ذلك:

١ - لقد ذكر معصية إبليس في البقرة بقوله: ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فقد جمع لإبليس الإباء والاستكبار والكفر للدلالة على شناعة معصيته بحق آدم الذي أكرمه الله وعلّمه. ولم يقل مثل ذلك في أي مكان آخر من القرآن بل هو إما أن يقول: (أبى) وإما أن يقول: (استكبر) كما سنرى ذاك، ولم يجمعهما إلا في هذا الموطن. وأما في الأعراف فقد قال: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين. فقد ذكرت كل عبارة بحسب موقف التكريم.

٢ - قال في البقرة: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ۝٣٥ ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ۝١٩ ﴾.

وأنت تلاحظ الفروق بين التعبيرين في هاتين الآيتين. فقد قال:

في البقرة	في الأعراف
وقلنا يا آدم اسكن	ويا آدم اسكن
وكلا منها	فكلا
رغداً	ـ
حيثُ شئتما	من حيث شئتما

فقد أسند القول في البقرة إلى نفسه (وقلنا يا آدم) وهذا يقوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم، فإن الله سبحانه يظهر نفسه في مقام التفضل والتكريم، في حين جمع بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد في الأعراف وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغائب: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا . . . . وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلم يفرد آدم بقول.

وناسب التكريم والتعظيم أن يذكر (رغداً) في البقرة دون الأعراف لأن المقامين، مختلفان جاء في (البرهان) للكرماني: «وزاد في البقرة (رغداً) لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله: (وقلنا) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها: قال»[1].

وقال في البقرة: (وكلا) وقال في الأعراف: (فكلا) فجاء بالواو في البقرة وجاء بالفاء في الأعراف. والواو لمطلق الجمع والفاء تفيد التعقيب والترتيب. فالواو أوسع من الفاء لأن من جملة معانيها معنى الفاء، فيصح أن يكون معطوفها مفيداً للتعقيب ولغيره. جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: (وكلا منها رغداً) بالواو وقال ههنا: (فكلا) فما السبب فيه؟.

وجوابه من وجهين:

الأول: أن الواو تفيد الجمع المطلق، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو. ولا منافاة بين النوع والجنس »[2].

فالواو صالحة لجميع الأزمان بما فيها معنى الفاء. أما الفاء فتفيد التعقيب، أي: أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة. فجاء بالواو في سورة البقرة للدلالة على السعة في الاختيار، وهو المناسب لمقام التكريم. ألا ترى لو قلت لشخص ما: (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شاء على حسب رغبته، فمتى أكل كان موافقاً للأمر.

---

(١) البرهان ٨٦.

(٢) التفسير الكبير ١٤/٤٥.

ولو قلت: (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول ولو تأخر لكان مخالفاً للأمر ويحق لك أن تمنعه منه. فالواو أرحب زمناً من الفاء. فذكر كل حرف في المكان الذي هو أليق به.

وقال في البقرة: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾.

فقد أعاد ضمير الجنة في البقرة مع الأكل فقال: (منها) ولم يعده في الأعراف. فأنت ترى أنه ذكر الجنة وضميرها في البقرة. وهو المناسب لمقام التكريم فيها، ولم يفعل مثل ذلك في الأعراف.

ثم إنّ الظرف (حيث شئتما) في البقرة يحتمل أن يكون للسكن والأكل جميعاً والمعنى: (اسكنا حيث شئتما وكلا حيث شئتما) فالسكن حيث يشاءان والأكل حيث يشاءان أيضاً.

وأما التعبير في الأعراف فلا يحتمل إلا أن يكون للأكل (فكلا من حيث شئتما) ولا يصح تعليقه بالسكن، فلا يصح أن يقال: (اسكنا من حيث شئتما) فالمشيئة والتخيير في البقرة أوسع لأنها تشمل السكن والأكل بخلاف الأعراف، وهو المناسب لمقام التكريم في البقرة كما هو ظاهر.

٣ - قال في البقرة: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

والإزلال غير التَّدْلِيَةِ فإن الزلة قد تكون في الموضع نفسه، وأما التدلية فلا تكون إلا إلى أسفل، ذلك أنها من التدلية في البئر فإذا دلّيت أحداً فقد أنزلته إلى أسفل، بخلاف الزلة فقد لا تكون إلى أسفل. ومعنى (دلّاهما): أنزلهما من مكان إلى مكان أحط منه. فخفف المعصية في البقرة وسماها زلة مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف. فاستعمل كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

٤ - لم يذكر في البقرة معاتبة الرب أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف فقد ذكر أنه عاتبهما عليها فقال: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ولا شك أن مرتبة العتاب أدنى من عدمه.

ثم انظر كيف ناسب هذا العتاب لأبوي البشر في الجنة عتاب أبنائهما في الدنيا في الآية التي سبقت هذه القصة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وكيف وقعا موقعاً متناسقاً واحداً؟

٥ - طوى في البقرة تصريح آدم عن نفسه بالمعصية ولم يذكرها إكراماً له في حين ذكرها في الأعراف فقال: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وانظر بعد هذا كيف يتسق ندم آدم ههنا مع ما ذكره قبل القصة من ندم المعاقبين من بني آدم ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾[الأعراف].

ثم انظر كيف اتفق الندمان على أمر واحد وهو الظلم فقال آدم: ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ وقال أبناؤه: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم ارجع النظر مرة أخرى وانظر كيف كانت العقوبة على قدر الظلم، فقد قال آدم: (ظلمنا) بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والطروء للدلالة على أنها زلّةٌ طارئة وليست معصية إصرار. وقال أبناؤه: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالصيغة الإسمية الدالة على الثبات على الظلم والإصرار فتاب على الأولين وأهلك الآخرين.

فانظر يا رعاك الله أيّ كلام هذا وأية لوحة فنية هذه!

٦ - ذكر في البقرة أن آدم تلقّى من ربه كلمات فتاب عليه ولم يذكر ذلك في الأعراف، وإنما ذكر فيها أنّ آدم طلب من ربه المغفرة، والرحمة ولم يذكر أنه تاب عليه.

فانظر الفرق بين المقامين:

مقام البقرة الذي لم يذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة وذكر أنه تاب عليه مع ذلك.

ومقام الأعراف الذي ذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة ولم يذكر أنه تاب عليه. وانظر تناسب سياق البقرة مع مقام التكريم وسياق الأعراف مع مقام العتاب والمؤاخذة وقل: جلّ قائلُ هذا الكلام.

٧ - قال في البقرة: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف. والتكريم واضح في هذه الآية إذ فيها وعد لمن تبع الهدى بالعودة إلى الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

ثم انظر كيف قال: (تبع) بالتخفيف ولم يقل: (اتّبع) بالتشديد كما فعل في (طه) فقد قال فيها: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ذلك أن الفعل بالتشديد يفيد المبالغة فاكتفى في البقرة بالأخفّ من الحدث ولم يشدّد عليهم تخفيفاً على البشر مراعاة لمقام التكريم.

هذا علاوة على أن في وضع كل فعل من هذين الفعلين في موضعه أسرار وأسرار.

منها: أن الفعل (تبع) تردد في سورة البقرة أكثر من أية سورة أخرى في القرآن الكريم، فوضعه في مكانه الذي هو أليق به. وقد مر بنا نظائر هذا الاستعمال.

ومنها: أن التخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه، وأن التشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال) وقد ذكرنا أن الله سبحانه يظهر نفسه في موقف التلطف والتكريم. فوضع كل فعل في موضعه الذي هو أليق به.

ومنها: أن نهاية الآية في البقرة تتعلق بالآخرة وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: في الآخرة. ونهاية الآية في (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة وهو قوله: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فقوله: (فلا يضل) متعلق بالدنيا لأن الضلال إنما يكون فيها: وأما في الآخرة فينكشف الغطاء ويصبح الناس كلهم على بصيرة. وقوله: (ولا يشقى) متعلق بالآخرة لأن الدنيا لا تخلو من الشقاء بدليل قوله تعالى لآدم قبيل هذه الآية: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أي: إذا خرجت من الجنة شقيت، وقد أخرجهما من الجنة فلا بد من الشقاء إذن.

ولما كانت آية (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة بخلاف آية البقرة زاد في بناء الفعل إشارة إلى زيادة متعلقه.

ثم إن كل آية من الآيتين تقتضي الفعل الذي اختير لها من جهة أخرى، ذلك أن آية (طه) تتضمن أمرين: مجاهدة الضلال في الدنيا والفوز في الآخرة. وآية البقرة تتضمن الفوز في الآخرة. والحالة الأولى تتطلب عملاً أكثر وأشق فجاء بالفعل الدال على المبالغة والتكلف للأمر الشاق، وجاء بالفعل الخفيف للعمل الخفيف.

وقد تقول: أفلا يتطلب الفوز في الآخرة مجاهدة الضلال في الدنيا؟ فأقول: إنَّ الفوز في الآخرة على مراتب بعضها أعلى من بعض. وليس كل الناجين في الآخرة ممن كانوا يجاهدون الضلال في الدنيا أو لم يضلوا في أمر من الأمور. فمجاهدة الضلال والتحري لعدم الوقوع فيه مرتبة عالية تتطلب جهداً كبيراً ومشقة في العمل. فوضع كل فعل في المكان الذي يقتضيه تماماً.

فانظر كيف يراعي في اختيار اللفظة أوجهاً متعددة، كل وجه يقتضيها من ناحية وينادي عليها بحيث تكون اللفظة كأنها مصوغة لهذا الموضع، أو أن الموضع كأنما أعد إعداداً لتحل فيه.

ثم انظر هداك الله أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟!.

٨ - قال في الأعراف: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وقال فيها أيضاً: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾

وقال في خاتمة السورة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ فناسب بين القصة وخاتمة السورة، ذلك أنه نفى عن ملائكته التكبر وأثبت لهم السجود، بخلاف إبليس الذي أثبت له التكبر ونفى عنه السجود.

وقال في البقرة في إبليس: ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وقال في خاتمة السورة: ﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فلاءم بين القصة وخاتمة السورة كما فعل في الأعراف.

ونحو ذلك قوله تعالى على لسان إبليس في قصة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ وقوله تعالى في مقدمة القصة: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فقد لاءم بين الآيتين أجمل ملاءمة، فقد قطع إبليس عهداً على نفسه بأنه سيحول بين بني آدم والشكر. وظاهر أن بني آدم وقعوا في شَرَك إبليس الذي نصبه لهم لئلا يشكروا فكانوا كما أراد (قليلاً ما يشكرون). وصدق قول الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾[سبأ]. فقد استجابوا لوسوسته كما استجاب أبوهم لها من قبل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٩ - قال تعالى في الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴿٢٠﴾﴾ فذكر أن الغرض من الوسوسة هو أن يبدي لهما السوءات المخفية. وقد وقع ذلك فعلاً: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴿٢٢﴾﴾ بغية سترها.

وعقب على ذلك بقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ ﴿٢٦﴾﴾.

وهذا التعقيب هو المناسب لظهور السوءات وانكشافها في الجنة. ثم انظر كيف ذكر ههنا كلمة (لباس) مع التقوى فقال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ مناسبة لما مر من السياق. فالتقوى لباس يواري السوءات الباطنة، واللباس والرياش يواري السوءات الظاهرة. فانظر هذا التناسب الجميل. جاء في (التفسير الكبير):

«إنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها أتبعه بأن بيّن أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عوراتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر»[1].

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٥١ .

ثم انظر إلى تحذير الله لذرية آدم كيف يتناسب وما مر فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأعراف].

وانظر بعد ذلك كيف أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد فقال: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الأعراف]. والزينة هي الرياش واللباس[1].

وعقب بعد ذلك بقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف].

ثم انظر بعد ذلك كيف قال في عذاب أهل جهنم: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴿٤١﴾ ﴾ وكيف ناسب كل ذلك ما مر في قصة آدم.

فأنت ترى أن الشيطان نزع عن أبوينا اللباس في الجنة، وهو في هذه الدار حريص على أن يفتننا لنتعرى من اللباس الظاهر والباطن، ولا يرضى في الآخرة إلا بأن نتسربل من سرابيل جهنم أعاذنا الله منها وأن يكون لنا منها مهاد وغواشٍ نسأل الله العافية.

فانظر أي تناسق هذا وأي فن عجيب.

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٥٤٦ .

٢ ـ قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ۖ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾.

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ

أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

بيّنا في موطن سابق علاقة قصة آدم بالآية التي تقدمتها في سورة الأعراف مما يغني عن إعادة ذكره.

أما القصة في سورة (ص) فقد وردت بعد ذكر الخصومة في الملأ الأعلى ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾. وهذا هو الموطن الوحيد الذي ورد فيه ذكر لهذه الخصومة، ولم يرد مثل ذلك في أي موطن آخر من القرآن الكريم. وهذا هو المقام المناسب لذكرها، ذلك أن جو السورة مشحون بالخصومات فقد افتتحت السورة بالخصومة والشقاق: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ وهل الشقاق إلا خصومة؟

ووردت فيها قصة الخصومة التي فصل فيها نبي الله داود قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وخصومة نبي الله أيوب مع زوجه حتى إنه حلف لَيَضْرِبَنّها مائة جلدة، فأفتاه الله بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ ﴿٤٤﴾﴾.

وخصومة أهل النار في النار وتبادل الشتائم فيما بينهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ختم هذه الخصومة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾. وخصومة الملأ الأعلى في أمر آدم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾. فانظر كيف جاء ذكر الخصومة ههنا مناسباً لجو السورة تماماً.

مما مر يتبين أن القصة وقعت ههُنا في سياق الخصومات وما تقتضيه من أخذ ورد ومحاجّة، بخلاف القصة في سورة الأعراف. فقد ذكرنا فيما سبق أن القصة فيها وقعت في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا

﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝﴾[الأعراف].

فقد ذكر أنه عاقب قسماً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم. فمقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر مما هو في (ص). وقد بُنيت كلّ قصة على ما جاء في سياقها، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۝﴾.

وقال في (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۝﴾.

فقد زاد (لا) في الأعراف لتوكيد السجود وهو قوله: (ألاّ تسجد) دون ما ورد في (ص) وذلك لأسباب عدة اقتضت الزيادة فيها. منها:

أن التوكيد في قصة الأعراف أشد فاقتضى ذلك أن يؤتى بـ (لا) الزائدة المؤكدة. يدل على ذلك بدؤه القصة في الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾. و(لقد) مؤكدان هما اللام وقد. وهي ـ أعني لقد ـ قسم مقدر عند النحاة. والقسم توكيد بخلاف القصة في (ص) فإنها تبدأ بقوله: ﴿وإذ قلنا﴾. وأن المؤكدات فيها أكثر (لقد، زيادة (لا)، إنك من الصاغرين، إنك من المنظرين، لأقعدنّ، لآتينهم، لأملأنّ جهنم منكم أجمعين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فناسب ذلك المجيء بـ (لا) الزائدة المؤكدة.

ومما حسّن التأكيد واقتضاه في الأعراف قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ومخالفة هذا الأمر كبيرة ولم يقل مثل ذلك في (ص) بل قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فكان الحساب على مخالفة الأمر أشد واللفظ أعنف وأغلظ.

وهناك جانب فنيّ آخر حسّن زيادة (لا) في الأعراف دون (ص) وهو أن سورة الأعراف تبدأ بـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ وقد انتبه القدامى إلى أن الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور يكثر ترددها في السورة بصورة أكثر وأوضح من غيرها[1].

---

(١) انظر بدائع الفوائد ٣/ ١٧٣ .

فناسبَ ذلك زيادة (لا) وهي لام وألف في السورة التي تبدأ بألف ولام دون التي لم تبدأ بهما.

ثم إن جو السورة في الأعراف يختلف عنه في (ص) مما حسّن تأكيد السجود في الأعراف دون (ص)، ذلك أن مشتقات السجود كالسجود والساجدين ونحوها ترددت في سورة الأعراف تسع مرات[1] بخلاف سورة (ص) فإنها لم تذكر فيها إلا ثلاث مرات[2]. وختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾[الأعراف] في حين لم ترد مشتقات السجود في سورة (ص) إلا في هذه القصة في الآيات ٧٢،٧٣،٧٥.

لقد ترددت مشتقات السجود في الأعراف في هذه القصة وحدها أربع مرات، وفي سورة (ص) جميعها ثلاث مرات، فناسب ذلك أن يؤكد السجود في الأعراف دون (ص) والله أعلم. ثم إن مقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر كما ذكرنا، فناسب ذلك الزيادة في التوكيد والغلظة في القول، ويدل على ذلك أمور منها:

أنه طوى اسم إبليس فلم يذكره في الأعراف فقال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴿١٢﴾﴾ في حين ذكر اسمه في (ص) فقال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾﴾.

ويدل على ذلك صيغة الطرد في الأعراف قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ فقد كرر الطرد مرتين وهما قوله: (فاهبط) وقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾. وكرر الطرد مرة أخرى في الآية الثامنة عشرة قائلاً: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وليس الأمر كذلك في سورة (ص) فإنه قال: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ ولم يكرر الطرد مرة أخرى.

---

(١) انظر الآيات ١١ (ثلاث مرات)، ١٢، ٢٩، ٣١، ١٢٠، ١٦١، ٢٠٦.
(٢) انظر الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد طرده في الأعراف كما طرده في (ص) ثم زاد عليه فقال في الأعراف: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وقال أيضاً: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾، وقال في (ص): ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فكرر الطرد بصيغة الخروج مرتين في الأعراف ومرة في (ص). وزاد على ذلك في الأعراف فقال: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ والهبوط أشد طرداً من الخروج إذ الهبوط لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، بخلاف الخروج فقد لا يكون كذلك. فهو أخرجه أولاً ثم أهبطه مما يدل على شدة الغضب في الأعراف.

ومما يدل أيضاً على أن مقام السخط في قصة الأعراف أكبر: عدم التبسط مع إبليس في الكلام بخلاف ما ورد في (ص). وأن عدم التبسط في الكلام مما يدل على السخط الكبير يدل على ذلك أنه قال في (الأعراف): ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ والتبسط واضح في القول الأخير.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)﴾ فزاد (رب) والفاء.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)﴾.

فزاد الفاء وزاد ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

ثم انظر من الناحية الفنية كيف أنه في (ص) لما ذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ كان الجواب بالفاء كذلك: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، ولما لم يذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ كان الجواب بدون فاء كذلك: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

فانظر كيف أنه لما رأى أن الله تبسّط معه في الكلام تبسّط هو أيضاً، بخلاف ما في الأعراف فإنه لما رأى السخط الكبير لم يجرؤ أن يتبسّط في الكلام بل جعله على أوجز صورة وأقصر تعبير، ولكل مقام مقال.

فانظر يا رعاك الله علو هذا الكلام وفخامته والبصير يرى.

٣ ـ قصة آدم في الحجر و (ص)

قال تعالى في سورة الحجر:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

* * *

عرض القرآن الكريم في سورتي الحجر و (ص) جانباً واحداً من القصة وهو ذكر معصية إبليس وعداوته للإنسان، ولم يذكر فيهما ما يتعلق بآدم، بل لم يرد

فيهما اسم آدم أصلاً، بخلاف ما مر في سورتي البقرة والأعراف فإنه ورد فيهما ذكر جانبي القصة: ما يتعلق بآدم وما يتعلق بإبليس.

فكأن الغرض من ذكر القصة في الحجر و (ص) تحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية.

ومع أن الجانب المذكور من القصة يكاد يكون واحداً في السورتين غير أنهما لم تتطابقا. فثمة أمور عرضت لها القصة في الحجر تختلف عما في (ص)، وهذا نظير ما مر بنا من اختلاف القصتين، في البقرة والأعراف.

إن كثيراً من الألفاظ والعبارات متطابقة في القصتين غير أن هناك اختلافاً بينهما أيضاً يتناسب وسياق كل قصة.

وإليك بيان ذلك وإيضاح طرف من الأسباب الداعية لهذا الاختلاف:

في (الحجر)	في (ص)
ـ خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون	خالق بشراً من طين
ـ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين	إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين
ـ مالك ألاّ تكون مع الساجدين	ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين.
ـ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون.	قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين
(ذكر إبليس أصل آدم ولم يذكر أصله هو)	(ذكر إبليس أصله وأصل آدم وذكر أنه خير منه).
ـ وأن عليك اللعنة	وأن عليك لعنتي
ـ قال ربِّ بما أغويتني	قال فبعزتك
ـ لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين	لأغوينهم أجمعين (من دون ذكر التزيين).
ـ إلاّ من اتبعك	وممن تبعك.

١ - ذكر في سورة الحجر أنه خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون، وذكر في (ص) أنه خلقه من طين. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقال في (ص): ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾.

وكلمة (صلصال) متكونة من (صاد) وهو مفتتح سورة (ص) ومن (ألف ولام) وهما في مفتتح سورة الحجر، وقد تكررت هذه الكلمة في القصة مرتين، فتكون اللام تكررت أربع مرات والألف مرتين والصاد أربع مرات. وعلى هذا يكون وضع الكلمة في السورة المبدوءة بالألف واللام أنسب، لأن مجموع ترددهما أكثر من الصاد.

ومن ناحية أخرى إن القصة في سورة الحجر وردت بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ فكان المناسب أن ترد هذه اللفظة في صلب القصة أيضاً.

٢ ـ ذكر في الحجر أن إبليس (أبى).

وذكر في (ص) أنه استكبر.

قال تعالى في الحجر: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾.

وقال في ص: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.

ومعنى (أبى) غير معنى (استكبر) فإن معنى (أبى): رفض وامتنع. ومعنى (استكبر): رأى نفسه خيراً من الآخرين. والرفض والامتناع قد يكونان لغير الاستكبار. وقد بنيت كلُّ قصة على ما ذكر فيها. فقد بنيت قصة الحجر على الإباء والرفض، وبنيت قصة (ص) على الاستكبار، يدلك على ذلك أمور منها:

أنه لما قال في (ص): (استكبر) كان سؤال رب العزة له: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ وهذا هو المناسب للاستكبار. ولم يقل مثل ذلك في الحجر.

ثم انظر إلى جواب إبليس في (ص) كيف كان مناسباً للاستكبار، ذلك أنه قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ وهو تكبر واضح يدلك على ذلك أنه لما قال ذلك في قصة الأعراف قال له رب العزة: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ١٣﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولكن قال: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ وهذا هو المناسب لكلمة (أبى) ذلك أن هذا القول يدل على الرفض والامتناع لا على الاستكبار. فإنك إذا قلت: (لم أكن لأفعل هذا) لم يفد قولك الاستكبار عن فعله، ولكن يفيد الامتناع عنه.

هذا علاوة على أن جوّ سورة الحجر عموماً هو الامتناع والرفض، وجوّ سورة (ص) هو الاستكبار والعلو.

فقد ذكر في الحجر أن قسماً من الكفار يرفضون الهداية ولو جئتهم بكل أسبابها قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾.

وذكر فيها أن قوم لوط رفضوا عرض نبيهم لهم حين طلب منهم الكف عن التعرض لضيفه، قال تعالى على لسان نبيه لوط: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩﴾ فأجابوه قائلين: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾.

وذكر فيها أن أصحاب الحجر رفضوا الآيات التي جاء بها نبيهم وأعرضوا عنها، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١﴾.

في حين أن جوّ سورة (ص) يشيع فيه الاستكبار والعلو ـ كما أسلفنا ـ.

فقد ذكر في أول السورة أن الذين كفروا في عزة وشقاق. والمراد بالعزة ههنا «الاستكبار عن الحق»[1] وعدم الانقياد له. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ ۝٢٠٦﴾[البقرة].

ثم ذكر قصة الخصمين اللذين بغى أحدهما على صاحبه واستكبر عليه. والباغي مستعلٍ ظالم مستكبر[2].

وذكر الطاغين وعذابهم قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾[ص].

والطاغية: هو الأحمق المستكبر الظالم الذي لا يبالي ما أتى[3].

وذكر الذين اتخذوا غيرهم سخرياً، والذي يسخر من الناس مستكبر عليهم يراهم دونه. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٦٣﴾.

ومن هذا نرى أن كل قصة وضعت في مكانها أحسن موضع وأجمله، وأن الجانب الذي عرضت له متلائم أحسن ملاءمة مع جوّ السورة الذي وردت فيه.

---

(١) روح المعاني ٢٤/ ١٦٣ وانظر التفسير الكبير ٢٦ / ١٧٥ .
(٢) انظر لسان العرب وتاج العروس مادة (بغى).
(٣) لسان العرب وتاج العروس: (طغى).

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما جاء في البقرة بالقصة كاملة ما يتعلق منها بآدم وما يتعلق بإبليس جمع فيها ما تفرق في الحجر و (ص) فقال:

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة]. في حين قال في الحجر (أبى) وقال في (ص) ﴿ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

٣ - قال في الحجر: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وقال في (ص): ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

فذكر السجود في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أن جو السجود شائع في قصة الحجر وسورتها أكثر مما في (ص). فقد ورد السجود في قصة الحجر ست مرات، في حين ورد في قصة (ص) ثلاث مرات. وقد ختمت السورة بالسجود أيضاً فقال تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

وهذا بخلاف ما في (ص) فإنه حتى إنَّ نبي الله داود لما تاب لم يذكر أنه سجد بل قال: ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فوضع كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في إبليس: ﴿ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أمر رسوله بأن يكون من الساجدين فقال له: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾. وهذا تناسق في التعبير جميل ومخالفة أصيلة لإبليس.

٤ - أضاف اللعنة إلى نفسه في قصة (ص) فقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ولم يفعل مثل ذلك في الحجر بل قال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذلك أنه لما قال في (ص): ﴿ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ فأضاف الخلق إلى ذاته وإلى يديه العليتين قال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ ﴾ فأضاف اللعنة إلى نفسه. ولما لم يكن كذلك في الحجر قال: (اللعنة).

ثم إنه في قصة (ص) ذكر نفسه أكثر مما في الحجر، فإنه ذكر نفسه في (ص) ست مرات وفي الحجر ثلاث مرات.

قال في الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقال في (ص): مثل ذلك وزاد عليه قوله:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴿٧٥﴾﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ فكان كل تعبير مناسباً لجو القصة التي ورد فيها. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: إذا كان المراد باللعنة وبلعنتي شيئاً واحداً فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام وفي سورة (ص) مضافاً ؟ وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟

الجواب أن يقال: إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدئت في المعتمد بالذكر وهو خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[الحجر] ثم قال: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾[الحجر] وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدئت بمثله القصة، وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام.

وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك لأن أول الآية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فلم تفتتح بذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر.

ولما كان موضع ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جاء بدلالة ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ فجعل بدل (الساجدين): ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله، أجرى لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال: (بيديّ) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾

فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ الذي افتتحت به الآية واستمرت إلى آخرها هذا»[1].

٥ - قال في (ص): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال في الحجر: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٣٩﴾﴾.

فأقسم في (ص) بعزته، وأقسم في الحجر بإغوائه[2]، وذلك لما تقدم في (ص) ذكر اسمه العزيز قال تعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ وقال: ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾. وقد بدئت السورة بالعزة أيضاً فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾[ص] فناسب أن يقسم بعزته سبحانه.

في حين أقسم في الحجر بإغوائه لما تردد من ذكر الإغواء، قال تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

فناسب أن يضع كل تعبير في مكانه الذي هو أنسب له.

٦ - قال في الحجر: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وقال في (ص): ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

فذكر التزيين في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أنه ورد ذكر الزينة في الحجر ولم يرد في (ص)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال في موطن آخر من السورة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴿٨٨﴾﴾.

وهذا من التزيين في الأرض.

فناسب ذلك ذكر التزيين في قصة الحجر دون (ص).

---

(١) درة التنزيل ٢٥١-٢٥٢.

(٢) وقد قيل أيضاً: إنّ الباء في (بما أغويتني) للسبب لا للقسم وعلى أية حال فإن الجواب واحد.

٧ - قال في الحجر: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) ﴾.

وقال في (ص): ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾.

فذكر الاتّباع بالتشديد في الحجر وذكر اتْباعه بالتخفيف في (ص) وذلك أنه لما جاء بعد القصة في الحجر قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ ناسب ذلك أن يخفف على عباده ويرحمهم بأن لا يدخل النار إلا من بالغ في اتباع إبليس، ولما لم يرد مثل ذلك في (ص) كان التحذير أشد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ان قصة آدم في الحجر وردت بعد ذكر نعم الله على البشر: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ (٢٢) ﴾.

في حين وردت قصة آدم في (ص) بعد ذكر عقوبات أهل النار في النار فناسب السياق في الحجر التخفيف على عباده والتفضل عليهم، بخلاف السياق في (ص). وبهذا ناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

وهذا التعبير مشابه لما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى في البقرة: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ وقوله في طه: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ غير أن هذا في التحذير والترهيب وذلك في الإطماع والترغيب، فجمع الترغيب والترهيب في هذه القصة على أتم وجه وأكمل صورة، والحمد لله رب العالمين.

قصة سيدنا موسى (عليه السلام)

١ ـ في البقرة والأعراف

إن قصة سيدنا موسى في البقرة والأعراف تشتركان في قسم من المواطن وتختلفان في الكثير. ففي سورة الأعراف يذكر أموراً لا يذكرها في البقرة، كما يذكر أموراً في البقرة لا يذكرها في الأعراف.

وقد اخترنا نموذجاً من المواقف المتشابهة لنبين الحشد الفني فيه.

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾.

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾.

والآن انظر الفروق التعبيرية بين الموطنين:

في البقرة	في الأعراف
وإذ قلنا	وإذ قيل لهم
ادخلوا	اسكنوا
فكلوا	وكلوا
رغداً	—
وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة	وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً
نغفر لكم خطاياكم	نغفر لكم خطيئاتكم
وسنزيد	سنزيد
الذين ظلموا	الذين ظلموا منهم
فأنزلنا	فأرسلنا
على الذين ظلموا	عليهم
يفسقون	يظلمون
وإذ استسقى موسى لقومه	إذ استسقاه قومه
فقلنا اضرب	وأوحينا إلى موسى. . . أن اضرب
فانفجرت	فانبجست
كلوا واشربوا من رزق الله	—

فما سر هذا الاختلاف؟

إن سر الاختلاف يتضح من الاطلاع على سياق الآيات في السورتين، فسياق هذه الآيات في سورة البقرة هو تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، ويبدأ الكلام معهم بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[البقرة]. ثم يأخذ بسرد النعم عليهم ويذكرهم بها.

أما في سورة الأعراف فالمقام مقام تقريع وتأنيب فإن بني اسرائيل قوم لا يتعظون فإنهم بعد ما أنجاهم من البحر وأغرق آل فرعون طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها. وعندما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل. وإنهم كانوا ينتهكون محارم الله فقد طلب الله منهم أن يعظموا حرمة السبت فانتهكوها وأخذوا يصطادون الحيتان فيه إلى غير ذلك.

فالفرق واضح بين السياقين فناسب بين كل تعبير والمقام الذي ورد فيه وانظر إلى توضيح ذلك.

قال تعالى في سورة البقرة: (واذ قلنا) فأسند الرب القول إلى نفسه وقال في سورة الأعراف: (واذ قيل لهم) ببناء الفعل للمجهول.

والقرآن الكريم يسند الفعل إلى الله سبحانه في مقام التشريف والتكريم ومقام الخير العام والتفضل بخلاف الشر والسوء فإنه لا يذكر فيه نفسه تنزيهاً له عن فعل الشر وإرادة السوء. فإنه مثلاً عندما يذكر النعم ينسبها إليه لأن النعمة خير وتفضل منه. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴿٣﴾ ﴾[المائدة]. وقال: ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ ﴿٧٢﴾ ﴾[النساء] وقال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴿٦٩﴾ ﴾[النساء] وقال: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾[الاسراء]. ففي النعمة أظهر نفسه فقال: (أنعمنا) وفي الشر قال: (وإذا مسه الشر) ولم يقل (مسسناه بالشر) أو (أصبناه بالشر). وقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة] وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴿٥٩﴾ ﴾[الزخرف] وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء]. فأنت ترى أنه نسب الخير إلى ربه فقال: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ونسب السوء إلى نفسه فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ولم يقل (وإذا أمرضني) فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى.

وقال: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾[الجن] فبنى إرادة الشر للمجهول (أشر أريد) ونسب الخير والرشد إلى الرب (أراد بهم ربهم رشداً).

ومن ذلك ما جاء فيه في قصة موسى والرجل الصالح، قال:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف].

فقال في خرق السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقال في قتل الغلام: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ وقال في إقامة الجدار: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾. فإنه في خرق السفينة نسب العيب إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله تعالى تنزيهاً له فقال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[1]. أما في قتل الغلام فجاء بالضمير مشتركاً لأن العمل مشترك، فإن فيه قتل غلام وهو في ظاهر الأمر سوء، وإبدال خير منه وهو خير، فجاء بالضمير المشترك للعمل المشترك ثم قال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ فأسند الإبدال إلى الله وحده.

وأما إقامة الجدار فعمل كله خير فأسنده إلى الله سبحانه فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجرات] فأسند تزيين الايمان في القلوب إلى ذاته سبحانه. وقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] فبنى تزيين حب الشهوات للمجهول ولم ينسبه إلى نفسه. وقال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ [الصافات] وقال: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك] وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجر] فأسند هذا التزيين الحسن إلى ذاته.

---

(١) انظر بدائع الفوائد ٢/١٨-١٩، التفسير القيم ١٢-١٣، ٥٥٥-٥٥٦.

وقال: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[البقرة]. وقال: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾[الرعد]. وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام]. وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[فاطر] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾[غافر] وقال: ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴾[التوبة] وقال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾[الفتح].

فأنت ترى أنه ينسب تزيين الخير إلى نفسه بخلاف تزيين السوء. إنك قد تجد مثل قوله: ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[النمل] ولكن لا تجد: (زينا لهم سوء أعمالهم) فإن الله لا ينسب السوء إلى نفسه.

ومن هذا الباب ما تراه في القرآن الكريم في الكلام على الذين أوتوا الكتاب، فإنه على العموم إذا كان المقام مقامَ مدح وثناء، أظهر ذاته ونسب إيتاء الكتاب إلى نفسه: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ ﴾ وإذا كان المقام مقام ذم وتقريع قال: (أوتوا الكتاب). ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[البقرة] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴾[الجاثية] وقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾[البقرة] وقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[البقرة، الأنعام ٢٠] وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾[الأنعام] وقوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾[الأنعام] وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[الرعد]. وقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾[القصص] وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾[العنكبوت] وقوله: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[النساء].

فأنت ترى أنه أسند الإيتاء إلى نفسه في مقام المدح والثناء، في حين قال: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾[البقرة] وقال:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴿١٤٥﴾ ﴾[البقرة]. فهو في مقام ذم لهم لأنهم يعلمون الحق ثم يروغون عنه.

وقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ ﴿١٩﴾ ﴾[آل عمران].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[آل عمران].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[آل عمران].

وقال: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ ﴿١٨٦﴾ ﴾[آل عمران].

وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ ﴿١٨٧﴾ ﴾[آل عمران].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النساء].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ ﴿٤٧﴾ ﴾[النساء].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾[النساء].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ ﴿٥٧﴾ ﴾[المائدة].

وقال: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[التوبة].

وقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿١٦﴾﴾[الحديد]. وغير ذلك من الآيات.

فأنت ترى أنه في مقام الذم يبني فعل الإيتاء للمجهول.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ ﴿١٣٧﴾﴾[الأعراف].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ﴿٣٢﴾﴾[فاطر].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾[غافر].

بإسناد الفعل إلى ذاته في مقام المدح في حين قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾[الشورى].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ ﴿٥﴾﴾[الجمعة] في مقام الذم[1].

فأنت ترى أن الله سبحانه يذكر ذاته في الخير العام وينسبه إلى نفسه، بخلاف الشر والسوء[2].

فبنى القول للمجهول في الأعراف ولم يظهر الرب نفسه لأنهم هنا لا يستحقون هذا التشريف، وهو نحو قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ و(أوتوا الكتاب).

---

(١) انظر التفسير القيم ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٢) ليس معنى هذا القول: إنّ الله سبحانه لا ينسب إلى نفسه عقوبة أو غضباً أو نحو ذلك، بل إنه ليفعل ذلك لأنه من الخير العام ولكنه لا ينسب إلى نفسه سوءاً فإنه من أكبر الخير أن يهلك الطغاة الظالمين ويستأصل شأفتهم، ولذا ترى في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾[إبراهيم] وقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾[فاطر].

وقال في سورة البقرة: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ﴾ أي: أن الأكل يكون عقب الدخول، لأن الفاء تفيد التعقيب، أي: بمجرد دخولكم تأكلون توّاً. وأما في سورة الأعراف فقال: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ﴾ فالأكل لا يكون إلا بعد السكن والاستقرار وليس بعد الدخول.

ثم لاحظ الفرق أيضاً فقد قال في سورة البقرة: (فكلوا) أي: أن الأكل يكون بعد الدخول توّاً: ولم يأت بالفاء في الأعراف وإنما جاء بالواو ليفيد أنه ليس هناك من تعقيب، وأن الأكل سيحصل مع السكن ليس موقوتاً بزمن.

وفرق كبير بين الأمرين فهما كما تقول لشخص: أنت بمجرد دخولك يجيئك الأكل، أو تقول له: اذهب واسكن وإن الأكل يأتيك (غير محدد بزمن).

وقد تقول: إنك جعلت الواو مع السكن أكرم من الفاء في قصة آدم في البقرة والأعراف، فلماذا جعلت الفاء ههنا أكرم؟

والجواب: أن الأمر مختلف، ذلك أن قصة آدم ذكرت السكن في السورتين. قال تعالى في البقرة: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا ﴿٣٥﴾﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا ﴿١٩﴾﴾.

أما في قصة موسى فقد ذكرت الفاء مع الدخول والواو مع السكن. قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا ﴿٥٨﴾﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا ﴿١٦١﴾﴾. فالأمر مختلف وذلك أن الأكل في الأولى بعد الدخول، وفي الثانية مع السكن، فقال في البقرة: إنّ الأكل واقع في عقب الدخول فإذا دخلتم أكلتم فوراً من كل مكان شئتم رغداً. وقد جعله في الأعراف مع السكن والاستقرار ولم يحدد لهم الوقت. والدخول غير السكن لأن السكن لا يكون إلا بعد الدخول، فجعل الطعام في البقرة مهيّأً قبل السكن والاستقرار. وفي الأعراف مع السكن بلا تعقيب، فقد يطول الزمن وقد يقصر، فكان الموقف في البقرة أكرم وأفضل.

وقال في سورة البقرة: (رغداً) لأنه مناسب لتعداد النعم ولم يقل: (رغداً) في سورة الأعراف لأن المقام تقريع وتأنيب وأنهم لا يستحقون رغد العيش.

ثم انظر إلى تناظر هذه القصة مع قصة آدم فقد قال في قصة آدم: (رغداً) في البقرة دون الأعراف، نظير ما فعل في قصة موسى، لأن جو البقرة جو تكريم لآدم وتكريم لذريته من بني اسرائيل، في حين كان الجو في الأعراف جو عقوبات وتأنيب فلم يذكر الرغد في القصتين.

فانظر هذه الدقة في مراعاة جو السورة.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قدّم (الرغد) في الجنة وأخره في الدنيا، فقال في الجنة: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ وقال في الدنيا: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴿٥٨﴾ ﴾[البقرة] . لأن الرغد في الدنيا قليل.

ومن ناحية أخرى انه لو وضعهما موضعاً واحداً لكان المعنى أنهما متساويان في الرغد، وهذا بعيد فإنه ليس من المعقول أن تتساوى الجنة والدنيا الدنيّة في الرغد. كما أن فيه إشارة إلى أن رغد الجنة مقدم على رغد الدنيا، فليعمل العاملون لنيل ذلك الرغد أولاً. فانظر هذا التأليف العجيب.

وقدّم السجود في سورة البقرة على القول فقال: ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ لسببين والله أعلم:

الأول: لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فناسب مقام التكريم.

الثاني: لأن السياق يقتضي ذلك، فقد جاءت هذه القصة في عقب الأمر بالصلاة قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

فناسب ههنا تقديم السجود لاتصاله بالصلاة والركوع، وكلا الأمرين مرفوع في سورة الأعراف فأخّر السجود.

وقال في سورة البقرة: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ بجمع الكثرة لأن الخطايا جمع كثرة، وهو مناسب لمقام تعداد النعم والتكريم، أي: مهما كانت خطاياكم كثيرة فإنا نغفرها لكم. وقال في سورة الأعراف: (خطيئاتكم) بجمع القلة لأن الجمع السالم يفيد القلة، أي: يغفر لهم خطيئات قليلة، وهو مناسب لمقام التقريع والتأنيب.

وقال في سورة البقرة: (وسنزيد) فجاء بالواو الدالة على الاهتمام والتنويع، ولم يجيء بها في سورة الأعراف والسبب واضح.

وقال في سورة البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ وذلك لأنه سبق هذا القول في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

أي: ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة من السوء، فناسب هذا التبعيض التبعيض في الآية السابقة. جاء في (التفسير الكبير): «قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا ﴾ وفي الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا ﴾ فما الفائدة في زيادة كلمة (منهم) في الأعراف؟

الجواب: سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ (من) لأنه تعالى قال: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ فذكر أن منهم من يفعل ذلك، ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم. فلما انتهت القصة قال الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ فذكر لفظة (منهم) في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله، فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم، فهناك ذكرَ أمةً عادلة وههنا ذكر أمة جائرة... وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق»[1].

---

(١) التفسير الكبير ٣/ ٩٣ - ٩٤ .

ومن ناحية أخرى إن في ذكر (منهم) تصريحاً بأن الظالمين كانوا من بني إسرائيل، ولم يذكر في البقرة (منهم) فلم يصرح بأنهم منهم تكريماً لهم. وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه كما هو ظاهر.

وقال في سورة البقرة: (فأنزلنا). وقال في سورة الأعراف: (فأرسلنا).

ذلك لأن الإرسال أشد في العقوبة من الإنزال، قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾[الفيل]. وكل منهما يناسب موطنه.

جاء في (التفسير الكبير): «لم قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا ۝﴾ وقال في الأعراف: (فأرسلنا)؟

الجواب: الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية وذلك إنما يحدث بالآخرة»[1].

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن لفظ الإرسال كثر في الأعراف دون البقرة. فقد ورد لفظ الإرسال ومشتقاته في الأعراف ثلاثين مرة، وفي البقرة سبع عشرة مرة، فوضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها. جاء في (البرهان) للكرماني أنه عبر بالإرسال في الأعراف دون البقرة «لأن لفظ الرسول والرسالة كثرت في الأعراف، فجاء ذلك وفقاً لما قبله، وليس كذلك في سورة البقرة»[2].

وقال في سورة البقرة: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وقال في سورة الأعراف: (عليهم) وهو أعم من الأول. أي: أن العقوبة أعم وأشمل وهو المناسب لمقام التقريع.

وقال في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝﴾.

---

(1) التفسير الكبير ٣/ ٩٤ .

(2) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السبيل للبكري.

وقال في الأعراف: ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ لأن الظلم أشد من الفسق، وهو المناسب لـ (إرسال) العذاب فذكر في كل سياق ما يناسبه.

وقال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ فموسى ههنا هو الذي استسقى ربه لقومه.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ﴾: أي أن قوم موسى استسقوا موسى، والحالة الأولى أكمل وأبلغ في النعمة.

وقال في سورة البقرة: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ... أَنِ اضْرِب ﴾.

فإن القول المباشر من الله أكمل وأشرف من الإيحاء.

وقال في سورة البقرة: ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ فَانبَجَسَتْ ﴾.

وثمة فرق بين الانفجار والانبجاس فإن الانفجار للماء الكثير، والانبجاس للماء القليل. وكل تعبير يناسب موطنه. فإنه المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم كما ذكرنا. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إجابته بانفجار الماء. ومن ناحية ثالثة: إن الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولم يوح إليه وحياً، فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس[1] والله أعلم.

وثمة سبب آخر دعا إلى ذكر الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف علاوة على ما سبق، ذلك أنه قال في البقرة: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب فناسب ذلك

---

(١) انظر معترك الاقران ١/ ٨٧ - ٨٨ .

أن يبالغ في ذكر الماء في البقرة. جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله: (فانفجرت) وفي الأعراف: (فانبجست) لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهور الماء وكان في هذه السورة: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ فذكر بلفظ بليغ. وفي الأعراف ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ وليس فيه: (واشربوا) فلم يبالغ فيه»[1].

وقيل: إن الماء أول ما انفجر كان كثيراً ثم قلّ بعصيانهم، فعبر في مقام المدح بالانفجار وفي حالة الذم بالانبجاس.

ومن مقام التكريم في البقرة أنه جمع لهم بين الأكل والشرب فقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأعراف بل قال: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾. وقد قال مثل هذا القول في البقرة: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧ ﴾. وزاد عليه الجمع بين الأكل والشرب.

ومقام التكريم واضح بيّن، جاء في (معترك الاقران): «إن آية البقرة في معرض ذكر النعم عليهم حيث قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُوا نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ۝٤٧ ﴾ فناسب نسبة القول إليه تعالى، وناسب قوله: (رغداً) لأن النعم به أتم. وناسب تقديم: ﴿ وَٱدۡخُلُوا ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ۝٥٨ ﴾ وناسب: (خطاياكم) لأنه جمع كثرة. وناسب الواو في: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لدلالتها على الجمع بينهما، وناسب الفاء في (فكلوا) لأن الأكل قريب من الدخول.

وآية الأعراف افتتحت بما به توبيخهم وهو قوله: ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾ ثم اتخاذهم العجل فناسب ذلك: (وإذ قيل لهم) وناسب ترك (رغداً) والسكن يجامع الأكل فقال: (وكلوا) وناسب تقديم مغفرة الخطايا وترك الواو في (سنزيد). ولما كان في الأعراف تبعيض الهادين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنۡهُمۡ ﴾

---

(1) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السبيل.

ولم يتقدم في البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا، لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم. والإرسال أشد وقعاً من الإنزال، فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة. وختم آية البقرة بـ : (يفسقون)، لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق فناسب كل لفظ . . .

كذا في البقرة: (فانفجرت) وفي الأعراف: (انبجست) لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء»[1].

فانظر جمال هذا التعبير وقدّر أيكون هذا من كلام البشر؟

(١) معترك الأقران ١/ ٨٧ - ٨٩ وانظر درة التنزيل ١٤ - ٢٠ والبرهان للكرماني ٨٨ - ٩٠.

١ ـ قصة موسى في الأعراف والشعراء

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾.

* * *

وقال في سورة الشعراء:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم

مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

* * *

إن موضوع القصة في سورة الأعراف هو تاريخ بني اسرائيل، بدءاً من قصة موسى مع فرعون إلى ما بعد ذلك من أحداث. أما موضوعها في الشعراء فهو ذكر قصة موسى مع فرعون بالتفصيل إلى غرق فرعون وقومه. ومعنى ذلك أن ما في سورة الشعراء إنما هو جانب مما في الأعراف. ونحن يعنينا هنا ذكر الجانبين المتشابهين، اللذين يتضح فيهما الحشد الفني من النظر في أوجه التشابه والاختلاف بين النصوص في الموطنين.

إن القصة في سورة الشعراء تتسم بسمتين بارزتين هما:

١ - التفصيل في سرد الأحداث.

٢ - قوة المواجهة والتحدي.

وقد بنيت القصة على هذين الركنين، وجاءت كل ألفاظها وعباراتها لتحقق هذين الأمرين.

أما القصة في سورة الأعراف فقد بنيت على الاختصار من ناحية، كما أنها ليس فيها قوة المواجهة التي في الشعراء. وبملاحظة النصوص الواردة في كلا الموطنين يتجلى ما ذكرناه واضحاً.

تبدأ القصة في الأعراف بدعوة موسى فرعون إلى الهدى بأقصر كلام: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أما في الشعراء فقد بدأت بالأحداث السابقة لذلك، فقد بدأت بأمر الرب لموسى أن يذهب إلى فرعون ليبلغه دعوة ربه وليرسل معه بني إسرائيل. فأظهر موسى خوفه من أن يكذبه وأن لا ينطلق لسانه. وذكر أن لهم عليه ذنباً خاف أن يقتلوه به وطلب أن يعينه بهرون. فطمأنه ربه بأنه معهما.

ثم ذكر المحاورة بينه وبين فرعون، وقد ذكر فرعون منّته عليه بتربيته في بيته وأنه فعل ما فعل من قتل المصري، فأقرّ بذلك موسى وذكر من أمر فراره منهم ما ذكر.

ثم ذكر المحاجّة بينهما في أمر الألوهية والربوبية. فقد سأل فرعون موسى قائلاً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فأجابه موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء]. فلا يرد عليه فرعون بالحجة ولكن حاول أن يؤلّب عليه من حوله ليسخروا منه. ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فيمضي موسى قائلاً: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فيضيق فرعون بموسى ويرميه بالجنون قائلاً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾.

فيمضي موسى يعرض دعوته من دون أن يلتفت إلى ما رماه به من الجنون. فقد أدرك موسى أن فرعون حاول أن يصرفه عن الكلام في العقيدة إلى الانتصار لنفسه، ففوّت الفرصة عليه ومضى فيما هو فيه فقال معرّضاً بعقولهم: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فما ملكك من هذا؟!

فانظر كيف ناسب قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما رماه به من الجنون وعدم العقل. ولما أعيته الحيلة وأعوزه المنطق توعده وتهدّده بالسجن قائلاً: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ولم يشر إلى هذه المحاجّة في الأعراف لأن القصة بنيت هناك على الاختصار وعدم التفصيل كما ذكرنا. كما أنها ليس فيها مثل هذه القوة في المواجهة.

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين القصة في السورتين لتبيّن كيف بنيت كل قصة بحسب السياق الذي وردت فيه:

في الأعراف	في الشعراء
قال الملأ من قوم فرعون	قال للملأ حوله
يريد أن يخرجكم من أرضكم	يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره
وأرسل في المدائن	وابعث في المدائن
بكل ساحر	بكل سحار
قالوا	قالوا لفرعون
إن لنا لأجراً	أإن لنا لأجراً
وإنكم لمن المقربين	وإنكم إذن لمن المقربين
وألقي السحرة ساجدين	فألقي السحرة ساجدين
قال فرعون آمنتم به	قال آمنتم له
فسوف تعلمون	فلسوف تعلمون
ثم لأصلبنكم أجمعين	ولأصلبنكم أجمعين
قالوا إنا إلى ربنا منقلبون	قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون

وإليك إيضاح ذلك:

١ - قال في الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ ﴾.

وقال في الشعراء: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ ﴾.

فالقائلون في آية الأعراف هم ملأ فرعون. في حين أن الذي قال في آية الشعراء هو فرعون نفسه. وذلك أن المحاجّة كانت معه. ففي الآية الأولى كان فرعون في مقام غطرسة الملك والترفع عن الكلام. وأما في آية الشعراء فإن انقطاعه أمام موسى أنساه غطرسة الملك وكبرياءه ودفعه إلى أن يقول هو وأن يتكلم هو وأن يستعين بملئه.

وزاد كلمة (بسحره) لمناسبة مقام التفصيل في الشعراء وللتأكيد على السحر فيها.

٢ - جاء في الأعراف: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ ﴾ وجاء في الشعراء: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ ﴾ فقال في الأعراف: (وأرسل) وقال في الشعراء: (وابعث) وذلك لكثرة تردد فعل الإرسال في الأعراف كما سبق أن ذكرنا، فقد تردد فعل الإرسال ومشتقاته ثلاثين مرة في الأعراف، وتردد في الشعراء سبع عشرة مرة، فناسب ذلك ذكر الإرسال في الأعراف دون الشعراء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المقام في الشعراء يقتضي ذكر الفعل (ابعث) دون (أرسل) ذلك أن البعث فيه معنى الإرسال وزيادة، فإن فيه معنى الإثارة والإنهاض والتهييج.

جاء في (لسان العرب) أن « البعث في كلام العرب على وجهين:

أحدهما: الإرسال كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ۝ ﴾[الأعراف] معناه: أرسلنا. والبعث إثارة بارك أو قاعد تقول. . . بعث البعير فانبعث، حل عقاله

فأرسله أو كان باركاً فهاجه. وفي حديث حذيفة: أن للفتنة بَعَثات ... قوله: (بعثات) أي: إثارات وتهييجات »[1].

وفي (مفردات الراغب) أن « أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث »[2].

والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر بل يكون بإنهاض شخص من المجتمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ وهذا إنما يكون يوم القيامة، ومعناه: يوم ننهض ونقيم، وليس معناه: يوم نرسل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٤٦﴾ ﴾[البقرة].

ومعناه: «أنهِض للقتال منا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه ونتنهي إلى أمره»[3].

فأجاب الله طلبهم قائلاً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴿٢٤٧﴾ ﴾ ومعناه: أنهضه فيهم، وليس معناه: أنه أرسله إليهم.

فالبعث قد يكـون فيه معنى الإرسال وقـد يكون فيه معنى الإنهاض. فلما كان المقام في الشعراء مقام زيادة تحدٍّ وقوة مواجهة قال ملأ فرعون: ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ فلم يكتفوا بالإرسال بل أرادوا أن يُنهضوا من المجتمع حاشرين علاوة على الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإثارة وتهييج الناس على موسى. وهذا المعنى لا يؤديه لفظ (أرسل). فاقتضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

(1) لسان العرب (بعث).
(2) مفردات الراغب ٥٢ .
(3) الكشاف ١/ ٢٨٧، البحر المحيط ٢/ ٢٥٥ .

٣ - قال في الأعراف: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ وقال في الشعراء: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

فقد جاء في الأعراف بصيغة اسم الفاعل (ساحر)، وجاء في الشعراء بصيغة المبالغة (سحّار)، وهذه الصيغة في الشعراء تتناسب مع المبالغة في قوة التحدي وشدة المواجهة بين فرعون وموسى، وتتناسب مع غضب فرعون البليغ واندفاعه للنيل من موسى. فهم أرادوا سحاراً بليغاً في السحر لا مجرد ساحر. وهذا يتناسب أيضاً مع مقام التأكيد على السحر، فإن السحر أكد وكرر في الشعراء أكثر مما في الأعراف، فقد ذكر في الأعراف سبع مرات وفي الشعراء عشر مرات. فانظر كيف اقتضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

٤ - زاد في الشعراء قوله: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ وهو المناسب لمقام التفصيل ومقام التأكيد على السحر.

٥ - جاء في الأعراف: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وجاء في الشعراء: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

فانظر إلى الفرق بين التعبيرين، وكيف أن كل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه.

أ ـ قال في الأعراف: (قالوا) وقال في الشعراء: (قالوا لفرعون).

فذكر في الشعراء أنهم قالوا لفرعون، ولم يذكر في آية الأعراف أنهم قالوا له، وكل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه، وذلك أنه ذكر في الأعراف أن ملأ فرعون هم الذين قالوا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾. وذكر في الشعراء أن فرعون هو الذي قال ذلك وأنه هو الذي تولى هذه المهمة بنفسه، فناسب ذلك أن يواجهوا فرعون بالقول، بخلاف ما في الأعراف.

ولا يفهم من هذا أن ثمة تناقضاً بين الموقفين، فقد قال فرعون هذا القول وردده ملؤه، فذكر القول عنه مرة وذكره عن الملأ مرة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق.

ب ـ قال في الأعراف: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾. وقال في الشعراء: ﴿ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾.

فقد حذف همزة الاستفهام في الأعراف وذكرها في الشعراء، وذلك أنه لما كان المقام مقام إطالة ومبالغة في المحاجّة جيء بهمزة الاستفهام لتشترك في الدلالة على قوة الاستفهام والتصريح به.

ففي الآية الأولى أضمر المقول له وأضمر همزة الاستفهام، وفي الثانية صرح بالمقول له وبهمزة الاستفهام.

جـ ـ قال في الأعراف: ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾. وقال في الشعراء: ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾.

فزاد كلمة (إذن) في الشعراء لتدل على قوة الوعد وتوكيده وربط تقريبهم بالغلبة، وذلك أن (إذن) حرف جواب وجزاء، وذكرها يدل على أن ما بعدها مشروط حصوله بحصول ما قبلها. وذلك نحو أن يقول لك شخص: (سأزورك) فتقول له: إذن أكرمك.

فـ (إذن) تدل على أن إكرامك له مشروط بالزيارة. والمعنى: إن زرتني أكرمتك وإلا فلا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ﴾[المؤمنون]. والمعنى: إنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق. فـ (إذن) أفادت معنى الشرط. والمجيء بها في آية الشعراء أكد اشتراط تقريب السحرة بالغلبة. وذلك أنهم سألوا فرعون: أإن غلبنا أُعطينا أجراً؟ فقال لهم: نعم وإنكم إذن لمن المقربين؟ فذكر الشرط في السؤال وفي الجواب. وأما في الأعراف فكان الجواب ما يأتي: ﴿ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾.

فلم يُعد الشرط في الجواب، وإنما اكتفى بالشرط الذي في السؤال. ولا شك أن إعادة الشرط في الجواب تفيد التوكيد وزيادة الاهتمام. وهذا نظير أن يقول لك شخص: أإن فعلت ذاك أكرمتني ؟ فتقول له: نعم أو تقول له: نعم إنْ فعلت ذاك.

فأنت كررت الشرط في جوابك الثاني للاهتمام به وتوكيده، بخلاف الجواب الأول. وهذا التكرار يدل على لهفة فرعون على غلبة موسى من ناحية، ومن ناحية أخرى إن مقام التحدي وقوة المواجهة في الشعراء اقتضى ذكرها فيها بخلاف الأعراف.

ثم إنهم لما أكدوا السؤال بزيادة الهمزة في الشعراء أكد لهم الجواب بذكر (إذن).

وعلاوة على ذلك كله فإن ذكرها مناسب لمقام التفصيل في الشعراء دون مقام الأعراف المبني على الإيجاز والاختصار.

٦ - أقسم السحرة بعزة فرعون في الشعراء. قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف، ذلك أن المقام ههنا مقام الانتصار لعزة فرعون التي نال منها موسى في مواجهته ومحاجتّه له. وهم في مقام التزلف إليه والحظوة برضاه.

ثم انظر كيف ذكر الحبال والعصيّ في الشعراء وهو المناسب لمقام التفصيل فيها، ولم يذكر ذلك في الأعراف لأن المقام مقام إجمال.

٧ - ثم انظر بعد تأكيد الوعود وتمنية السحرة بالقربى منه والقسم بعزته كيف انقلب الأمر فجأة من دون مهلة: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الشعراء].

هكذا بالترتيب والتعقيب من دون فاصل زمني بين اللقف والسجود: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وهذا المشهد هو المناسب لقوة التحدي، فإن سرعة النصر الحاسم بعد قوة التحدي هو المناسب لمثل هذا المقام.

في حين لا تجد مثل هذا التعقيب في الأعراف. قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

ولا ندري كم مضى من الوقت بين انقلابهم صاغرين وسجودهم، فإنه جاء بالواو، والواو لا تفيد التعقيب كما هو معلوم، ولم يأت بالفاء كما فعل في الشعراء، وذلك لأن الموقف ليس فيه تلك المواجهة وذلك التحدي، فجعل كل تعبير في الموطن اللائق به.

وليس ثمة تناقض بين القولين فإن الفاء لا تناقض الواو وإنما هي واقعة في أحد أزمنتها المحتملة.

فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الألفاظ والحروف.

٨ - قال في الأعراف: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴿١٢٣﴾ ﴾ وقال في الشعراء: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴿٤٩﴾ ﴾ ومعنى (آمنتم به): آمنتم بالله. ومعنى (آمنتم له): انقدتم لموسى وصدّقتم به.

فالضمير في (به) يعود على الله وفي (له) يعود على موسى. وذلك أن موسى أغضبه في الشعراء أكثر مما في الأعراف، فقد نال منه بالقول وأفحمه بالحجة، ولذا كان تصديقهم به أكثر إغاظة له، فذكره في الشعراء ولم يذكره في الأعراف.

٩ - قال في الشعراء: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأعراف، ذلك لأن الكلام في الشعراء كان على موسى فإنه قال: (آمنتم له). أي لموسى، والكلام في الأعراف كان على الله، فإنه قال: (آمنتم به) وواضح أنه لا يصح أن يقال مثل هذا القول في الأعراف، فإنه لا يصح أن يقال في الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴿٤٩﴾ ﴾. وهو يدل أيضاً على شدة غضبه من موسى.

١٠- قال في الأعراف: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾. وقال في الشعراء: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ فأكد تهديده باللام، وذلك لأن الموقف موقف غضب زائد وتميز من الغيظ.

١١- قال في الأعراف: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

وقال في الشعراء: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
فأعطاهم مهلة في الأعراف ذلك أنه قال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
و(ثم) تفيد التراخي، ولم يعطهم مهلة في الشعراء وذلك لزيادة غضبه واحتراق قلبه من الغيظ.

١٢- قال في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وقال في الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. فزاد (لا ضير) في الشعراء وهو المناسب لمقام التفصيل من ناحية، ثم إنه المناسب لمقام التهديد الشديد والوعيد المؤكد. فإن تهديده في الشعراء أشد وآكد مما في الأعراف، فلو أنهم قالوا في الأعراف: (لا ضير) دون الشعراء لظَن أنهم هابوا التهديد الشديد فلم ينطقوا بما يدل على عدم الاكتراث، إذ من المعتاد أن يرهب الانسان التهديد الكبير دون الصغير، أما إذا استهانوا بالتهديد الكبير ولم يكترثوا به فإن ذلك يدل ـ ولا شك ـ على أنهم أقل اكتراثاً بالتهديد الأدنى وأقل رهبة له. فناسب هذا أن يقولوه في موطن التهديد الشديد دون الأدنى.

وقد تقول: ولماذا لم يذكروه في الموطنين ؟

والجواب: إن ذكره في موطن التهديد الكبير يغني عن ذكره في الموطن الأدنى، وذلك من باب الأولى فيكون كأنهم ذكروه في الموطنين.

ثم إن ذكره في الموطنين مخل بالإيجاز، إذ إن ذلك مفهوم من الموطن الأول. ثم إن بناء القصة في الشعراء قائم على التفصيل، وبناءها في الأعراف قائم على الاختصار، وذلك يقتضي أن يفصّل ما يقتضي التفصيل، ويختصر ما هو معلوم وما لا حاجة لذكره ؟ فاقتضى ذلك أن يذكر القول في الشعراء الذي هو مقام الرهبة الشديدة ومقام التفصيل دون الأعراف الذي هو مقام التهديد الأدنى ومقام الاختصار.

ثم إن ذكره في الموطنين على السواء معناه أن المقامين متشابهان ولا فرق بينهما، ومن المعلوم أنهما ليسا متشابهين، فاقتضى أن يذكر في كل موطن ما يتناسب معه من الأمور، فوضع كل تعبير في مكانه اللائق به تماماً.

ثم يمضي في الشعراء في غير الوجهة التي يمضي بها في الأعراف، فيمضي في الأعراف لذكره أحوال بني اسرائيل وتاريخهم والآيات التي أروها ومعاصيهم واستهانتهم بالنعم والآيات.

ويمضي في الشعراء لنهاية فرعون ونجاة بني إسرائيل..

وغني عن القول أن اختيار الألفاظ والعبارات كان مقصوداً لخدمة الناحية الفنية في أدق معانيها وأكمل صورها.

تفسير سورة (التين)

ولنضرب مثلاً في تفسير سورة من قصار السور ونبين طرفاً مما فيها من أمور فنية ولتكن هذه السورة سورة التين.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

ابتدأت السورة بالقسم بالتين والزيتون. والتين والزيتون قد يكون قصد بهما الشجران المعروفان، وقد ذكر المفسرون لاختيار هذين الشجرين للقسم بهما أسباباً عدة، فقد ذكروا أنه أقسم بنوعين من الشجر، نوع ثمره ليس فيه عجم، ونوع فيه عجم، وأنه ورد في الأثر أن التين من شجر الجنة، فقد روي أنه أُهديَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبقٌ من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلتُ هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم».. وقد ذكر أن آدم خصف من ورقه ليستر عورته حين انكشفت في الجنة.

وأما الزيتون فإنه شجرة مباركة كما جاء في التنزيل العزيز.

وقد ذكروا أموراً أخرى لا داعي لسردها ههنا.

ولا ندري هل لبدء السورة بالقسم بالشجر الذي يذكر أن له أصلاً في الجنة أعني التين له علاقة بعدد آيات هذه السورة أو لا ؟ فإن عدد آيات هذه السورة ثمانية وهن بعدد أبواب الجنة. قد يكون هذا القول خرصاً محضاً وأنا أميلُ إلى ذلك، ولكنا قد وجدنا شيئاً من أنواع هذه العلاقات في القرآن. فقد تكرر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن] عند الكلام في وصف الجنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة، وحصل ذلك مرتين في السورة، وتكرر في الوعيد سبع مرات بعدد أبواب جهنم ابتداء من قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١﴾[1][الرحمن].

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٨٨٨.

وقالوا: إن سورة القدر ثلاثون كلمة بعدد أيام شهر رمضان، وإن قوله: (هي) في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون، وهي إشارة إلى أن هذه الليلة هي الليلةُ السابعة والعشرون من رمضان.

وعلى أي حال فإن كثيراً من هذه العلاقات ربما كانت موافقات والله أعلم.

وقيل: إن المقصود بالتين والزيتون جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لأنهما منبتا التين والزيتون[1].

والعلاقة بين التين والزيتون وما بعدهما ليست ظاهرة على هذا إلا بتكلف.

وقيل: «هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار. فالأول: محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة وهو البلد الأمين الذي مَنْ دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم»[2].

وجاء في (التبيان في أقسام القرآن): «فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة. فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس... وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم. كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه. ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى: (جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران).

فمجيئه من طور سيناء بعثه لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع، ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم»[3].

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ٩، روح المعاني ٣٠/ ١٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٦ .

(٣) التبيان ٥٣ - ٥٥.

وهذا هو الراجح فيما أرى لأن المناسبة بين هذه المحالّ المُقْسَمِ بها ظاهرة على هذا.

ثم لننظر إلى ترتيب هذه الأشياء المقسم بها.

فقد بدأ بالتين فالزيتون. والزيتون أشرف وأفضل من التين فقد شهد الله له أنه شجرة مباركة قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ ﴿٣٥﴾﴾[النور] وهي فاكهة من وجه وإدامٌ من وجه وزيتها يُستعمَلُ في إنارة المصابيح والسُّرُج.

ثم أقسم بطور سينين وهو أفضل مما ذكر قبله، فإنه الجبل الذي كلم الرب عليه موسى وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف وضع طور سينين بجوار الزيتون لا بجوار التين، وقد ورد ذكر الزيتون بجوار الطور في موطن آخر من التنزيل العزيز[1].

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٍ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون] وهذه الشجرة هي شجرة الزيتون بإجماع المفسرين. قال الواحدي: «والمفسرون كلهم يقولون إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون»[2].

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة: مكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين[3]. وهو أفضل البقاع عند الله وأحبها إليه كما جاء في الحديث الشريف، فتدرَّجَ من الفاضل إلى الأفضل ومن الشريف إلى الأشرف.

فأنت ترى. أنه تدرّج من التين إلى الزيتون إلى طور سينين إلى بلد الله الأمين. فختم بموطن الرسالة الخاتمة أشرف الرسالات.

وقد وصف الله هذا البلد بصفة (الأمين) وهي صفة اختيرت هنا اختياراً مقصوداً لا يَسدُّ مَسدَّها وصفٌ آخر.

فالأمين وصف يحتمل أن يكون من الأمانة، كما يحتمل أن يكون من الأمن. وكلا المعنيين مراد.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٠/ ١٩٣ .

(٢) انظر فتح القدير ٣/ ٤٦٣، روح المعاني ١٨/ ٢٢ - ٢٣ .

(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٧٣ .

فمن حيث الأمانة وُصِفَ بالأمين لأنه مكانُ أداء الأمانة وهي الرسالة. والأمانة ينبغي أن تؤدى في مكان أمين. فالرسالة أمانة نزل بها الروح الأمين وهو جبريل، وأداها إلى الصادق الأمين وهو محمد، في البلد الأمين وهو مكة. فانظر كيف اختير الوصف ههنا أحسنَ اختيار وأنسبه.

فالأمانة حملها رسولٌ موصوف بالأمانة فأداها إلى شخص موصوف بالأمانة في بلد موصوف بالأمانة. جاء في (روح المعاني): «وأمانته أن يحفظ مَنْ دخله كما يحفظ الأمين ما يُؤتَمَنُ عليه»[1].

وأما من حيث الأمن فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، دعا له سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأمن قبل أن يكون بلداً وبعد أن صار بلداً فقال أولاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[البقرة] وقال فيما بعد: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[إبراهيم] فهو مدعو له بالأمن من أبي الأنبياء. وقد استجاب الله سبحانه هذه الدعوة قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران]. وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[البقرة].

فـ (الأمين) على هذا (فعيل) للمبالغة بمعنى الآمن. ويحتمل أن تكون (الأمين) فعيلاً بمعنى مفعول، مثل: جريح بمعنى مجروح وأسير بمعنى مأسور، أي: المأمون، وذلك لأنه مأمون الغوائل[2].

جاء في (روح المعاني): «الأمين فعيل بمعنى فاعل أي الآمن من أمُن الرجل بضم الميم أمانةً فهو أمين... وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه... وأما بمعنى مفعول أي: المأمون من (أمنه) أي: لم يَخَفْهُ، ونسبته إلى البلد مجازية. والمأمون حقيقةً الناسُ أي: لا تخاف غوائلهم فيه، أو الكلام على الحذف والإيصال أي: المأمون فيه من الغوائل»[3].

وجاء في (البحر المحيط): «وأمين للمبالغة أي: آمنٌ مَنْ فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان، أو من أمُن الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين كما يحفظ

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر روح المعاني ٣٠/ ١٧٣، البحر المحيط ٨/ ٤٩٠، الكشاف ٣/ ٣٤٨ .

(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٧٣ .

الأمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل »[1].

وقد تقول: ولم اختار لفظ (الأمين) على (الآمن) الذي تردد في مواطن أخرى من القرآن الكريم ؟ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

والجواب: أنه باختياره لفظ (الأمين) جمع معنيي الأمن والأمانة، وجمع معنى اسم الفاعل واسم المفعول، وجمع الحقيقة والمجاز، فهو أمينٌ وآمن ومأمون، وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة.

ثم انظر إلى جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين] كيف تناسب مع المُقْسَم به تناسباً لطيفاً ولاءمه ملاءمة بديعة. فإنه أقسم بالرسالات على بداية الإنسان ونهايته[2] فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهذه بدايته، ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[التين] وهذه نهايته.

« ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم مَنْ أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين »[3] والآخرين وهم المؤمنون الذين لهم أجر غير ممنون.

ولما كانت الرسالات إنما هي منهج للإنسان وشريعة له، كان الجواب يتعلق بالإنسان طبيعة ومنهجاً، فذكر طبيعة الإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وذكر المنهج في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[التين].

وفي هذه إشارة إلى أن المنهج لا بد أن يكون متلائماً مع الطبيعة البشرية غير مناقض لها وإلا فشل.

فكان الجواب كما ترى أوفى جوابٍ وأكمله وأنسب شيء لما قبله وما بعده.

---

(1) البحر المحيط ٨/ ٤٩٠ وانظر الكشاف ٣/ ٣٤٨ .

(2) التبيان في أقسام القرآن ٥٥ .

(3) التبيان ٥٦ .

ثم انظر من ناحية أخرى إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ فإنه أسند الخلق إلى نفسه ولم يَبْنِهِ للمجهول، وذلك أنه في موطن بيانِ عظيمِ قدرتهِ وحسن فعله وبديع صنعه فأسند ذلك إلى نفسه، وهذا في القرآن خط واضح، فإنه في مثل هذا المقام وفي مقام النعمة والتفضل يسند الأمر إلى نفسه قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٨١﴾[الأعراف]

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾[يس].

فانظر كيف أسند الخلق في مقام النعمة والتفضّل إلى ذاته في حين قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾[النساء] ببناء الفعل للمجهول لما كان القصد بيان نقص الإنسان وضعفه. وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۝٣٧﴾[الأنبياء] وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾[المعارج].

فانظر إلى الفرق بين المقامين. وقد مر شيء من هذا في موطن سابق.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه أسند الخلق إلى نفسه لأن المقام مقام بيان منهج للإنسان، فأراد أن يبين أن واضع المنهج للإنسان هو خالق الإنسان ولا أحد غيره أعلم بما يَصلحُ له وما هو أنسب له، ولو بني الفعل للمجهول لم يفهم ذلك صراحة.

فأنت ترى أن إسناد الخلق إلى ذات الله العلية أنسب شيء في هذا المقام. وقد تقول: ولِمَ أسند الرد أسفل سافلين إلى نفسه فقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾[التين] وهذا ليس مقام تفضّل ولا بيان نعمة ؟

فنقول: إن هذا الإسناد أنسب شيء ههنا ولا يليق غيره، وذلك أنه أراد أن يذكر أن بيده البداية والنهاية، وأنه القادر أولاً وأخيراً لا معقب لحكمه يفعل ما يشاء في البداية والختام، وهذا لا يكون إلا بإسناد الأمر إلى ذاته العلية.

الا ترى أنه لو قال: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رُدّ أسفل سافلين) لكان يفهم ذاك أن هناك راداً غيره يفسدُ خلقته ويهدم ما بناه ؟

ومعنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنه صيّرهُ على أحسن ما يكون في الصورة والمعنى والإدراك وفي كل ما هوَ أحسن[1] من الأمور المادية والمعنوية.

---

(١) انظر روح المعاني ٣٠/ ١٧٥، البحر المحيط ٨/ ٤٩٠ .

وقال بعدها: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ ﴾ فجاء بـ (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، لأن كونه أسفل سافلين لايعاقب خلقه بل يتراخى عنه في الزمن، فهي من حيث الوقت تفيد التراخي، كما أنها من حيث الرتبة تفيد التراخي، فرتبة كونه في أحسن تقويم تتراخى وتبعد عن رتبة كونه في أسفل سافلين، فثمة بَوْنٌ بعيد بين الرتبتين فأفادت (ثم) ههنا التراخي الزماني والتراخي في الرتبة.

واختلف في معنى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ فذهب قسم من المفسرين إلى أن المقصود به أرذل العمر، والمراد بذلك: الهرم وضَعْف القُوى الظاهرة والباطنة وذهول العقل حتى يصير لا يعلم شيئاً[1].

ومعنى الاستثناء على هذا أن الصالحين من الهرمى لهم ثواب دائم غير منقطع[2] يُكْتَبُ لهم في وقت شيخوختهم كما كان يكتب لهم في وقت صِحَّتِهِم وقوتهم. وفي الحديث: «إنَّ المؤمن إذا رُدّ لأرذل العمر كُتِبَ له ما كان يعمل في قوته» وذلك أجر غير ممنون[3]. أي: غير منقطع.

وذهب آخرون إلى أن المقصود به أسفل الأماكن السافلة وهو جهنم أو الدرك الأسفل من النار.

ومعنى الاستثناء على هذا ظاهرٌ، فالصالحون مستثنون من الرد إلى ذلك.

وركز بعضهم على الخصائص الروحية. جاء في (ظلال القرآن): «والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرفُ عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها. فهو مهيأ لأن يبلغ من الرِّفعةِ مدى يفوق مقام الملائكة المقربين... بينما هذا الإنسان مهيأ حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. حيث تصبح البهائمُ أرفعَ وأقوم لاستقامتها على فطرتها...

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح. ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها»[4].

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٧٦، البحر المحيط ٨/ ٤٩٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٨ .

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٩٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٠/ ١٩٤ .

وظاهر أن معنى الآية يتسع لكل ما ذكروه، وهي تفيد أيضاً أن حياة غير المؤمن نكد وغم، وعيشة ضنك وشقاء قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[طه] وقال: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الحج].

فحياة هؤلاء هابطة سافلة بل هم في أسفل سافلين. ثم لننظر إلى الاستثناء وهو قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٦﴾ ﴾[التين] فإنه استثنى من الرد أسفل سافلين مَنْ آمن وعمل صالحاً ولم يزد على ذلك، فلم يقل مثل ما قال في سورة العصر: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ وذلك لاختلاف الموطنين، فإن سورة العصر في بيان الخسران الذي يصيب الإنسان، وسورة التين فيما ينجي من دركات النار، قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ فبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الرد أسفل سافلين. ولكن لا يمنعه من الخسران الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق وبالصبر فإنَّ كل من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله، فانظر الفرق بين الموطنين وبين الاستثناءين.

جاء في (التبيان): « وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ فإنه ضَيَّقَ الاستثناء وخصصه فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ ولما قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾[التين] وَسَّعَ الاستثناء وعممه فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٦﴾ ﴾ ولم يقل: (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضاً على الأعيان. وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يُستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يُستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب

عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به. وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء »[1].

ثم قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾[التين] قيل: ومعنى غير ممنون غير منقوص ولا منقطع، وقيل: معناه غير مكدر بالمنّ عليهم[2]. والحق أن كل ذلك مراد وهو من صفات الثواب، لأنه يجب أن يكون غير منقطع ولا منغصاً بالمنة[3].

فقال: (غير ممنون) ليجمع هذه المعاني كلها، ولم يقل: غير مقطوع ولا نحو ذلك فيفيد معنى دون آخر.

ثم انظر كيف زاد الفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ولم يفعل مثل ذلك في آية شبيهة بها وهي قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾[الإنشقاق] بدون فاء. وذلك لأن السياقين مختلفان. فسياق سورة الإنشقاق أكثره في ذكر الكافرين، وقد أطال في ذكرهم ووصف عذابهم فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۝١٤ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥﴾[الإنشقاق] ثم قال مقرعاً للكافرين مؤنباً لهم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾[الإنشقاق].

في حين لم يزد في الكلام على المؤمنين عن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾[الإنشقاق].

فانظر كيف أطال في وصف الكافرين وأعمالهم وعقابهم، وأوجز في الكلام على المؤمنين، ولذا حذف الفاء من جزاء المؤمنين في سورة الإنشقاق مناسبة للإيجاز. في حين لم يذكر الكافرين في سورة التين ولم يزد على أن قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يعني الإنسان، وهو غير صريح في أن المقصود به الكافرون أو غيرهم كما أسلفنا.

---

(١) التبيان ٩١ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٩٠، روح المعاني ٣٠/ ١٧٦ .

(٣) التفسير الكبير ٣٢/ ١١ .

ثم انظر إلى كل من السورتين كيف تناولت الكلام على الإنسان. فقد بدأت سورة الإنشقاق بذكر كدح الإنسان ومشقته ونصبه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾ وتوعّده ربُّه بركوب الأهوال والشدائد المتتابعة التي يفوق بعضها بعضاً في الشدة فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾.

في حين بدأ في سورة التين بتكريم الإنسان فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ فناسب ذلك تأكيد استمرار أجره وعدم تنغيصه، وذلك بزيادة الفاء في التين دون الإنشقاق.

ثم قال بعدها: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾. والمعنى: أي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذّباً بالجزاء بعد هذا الدليل الواضح ؟ والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي مع تحويله من حال إلى حال، أوضح دليل على قدرة الخالق على الحشر والنشر[1] فإن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه خلقك الأول[2].

فانظر جلالة ارتباط هذا الكلام بما قبله.

ثم انظر كيف استدل على الجزاء بالأدلة النقلية والعقلية. فالدليل النقلي هو ما أخبرت به الرسالات السماوية، وقد ذكر من هذه الرسالات كبراها وهي رسالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والدليل العقلي هو الاستدلال بخلق الإنسان في أحسن تقويم وتدريجه في مراتب الزيادة والنقص.

ثم انظر كيف اختار كلمة (الدين) ولم يختر كلمة الجزاء أو الحساب أو النشور نحوها، وذلك لما تقدم ذكر مواطن الرسالات ناسب ذلك ذكر الدين، لأن هذه [illegible]يان، ولأنه قد يراد بذلك معنى (الدين) علاوة على معنى الجزاء. والمعنى أي شيء يجعلك مكذباً بصحة الدين بعد هذه الأدلة المتقدمة ؟ فالذي خلقك

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٩، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢ .

(٢) التبيان ٦١.

في أحسن تقويم يرسم لك أحسن منهج تسعد به في الدنيا وفي الآخرة. فجمعت كلمة (الدين) معنى الدين ومعنى الجزاء في آن واحد، ولو قال: فما الذي يكذبك بالجزاء لم يجمع هذين المعنيين.

فأنت ترى أنه اختار كلمة (الدين) لتقع في موقعها المناسب لها تماماً. ثم قال بعدها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾. و(أحكم الحاكمين) يحتمل أن يكون معناه: أعظم ذوي الحكمة وأحسنهم تدبيراً، ويحتمل أن يكون معناه، أقضى القاضين، لأن (حكم) يحتمل أن يكون من الحكمة، ويحتمل أن يكون من القضاء وهو الفصل في المحاكم.

وعلى الوجه الأول يكون المعنى: أليس الذي فعل ذلك بأحكم الحاكمين صُنعاً وتدبيراً وأن حكمته بالغة لا حدود لها. وإذا تبين أن الله سبحانه أحكم الحاكمين ـ وهو بَيِّنٌ ـ تعيَّنت الإعادة والجزاء لأن حكمته تأبى أن يترك الإنسان سدى ولا يحاسب على أعماله، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته[1] ؟.

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: أليس الله بأقضى القاضين[2] فيحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، كما قال تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾[الزمر].

فانظر قوة ارتباط هذه الآية بما قبلها على كلا الوجهين، فإن حكمته تقتضي الإعادة والجزاء. والجزاء والفصل بين الخلائق يقتضي وجود قاضٍ، بل يقتضي وجود أقضى القاضين.

فجمع بهذه العبارة معنيين: القضاء والحكمة، بل لقد جمع معاني عدة بهذا التعبير، إذ كل لفظ من (أحكم الحاكمين) يحتمل أن يكون بمعنى القضاء والحكمة فيكون قد جمع أربعة معان كلها مرادة وهي (أحكم الحاكمين) بمعنى: أكثرهم حكمة و (أقضى الحكماء) و (أقضى القضاة) و (أحكم القضاة).

فانظر كيف جمع أربعة معان تؤدى بأربع عبارات في عبارة واحدة موجزة. ولو قال: (أقضى القاضين) لدلت على معنى واحد.

---

(١) انظر التبيان ٣٣ وما بعدها، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢ .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٧٧، مجمع البيان ١٠/ ٥١٢ .

ثم انظر كيف جعل ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري ولم يجعله بالأسلوب الخبري فهو لم يقل: (إن الله أحكم الحاكمين) ولا نحو ذلك، وإنما قرر المخاطب ليقوله بنفسه وليشترك في إصدار الحكم فيقول: بلى ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

ثم انظر إلى ارتباط خاتمة السورة بفاتحتها، فإن فاتحة السورة في ذكر مواطن الرسالات العظمى وارتباطها بخاتمتها واضحٌ بيّنٌ، فإن الذي أنزل هذه الشرائع العظيمة وما تضمنته من أحكام سامية هو أحكم الحاكمين.

ثم انظر إلى التنسيق الجميل في اختيار خواتم الآي، فإن خاتمة كل آية اختيرت لتجمع عدة معان في آن واحد. فاختيرت (الأمين) لتجمع معنيي الأمن والأمانـة، و(أسفل سافلين) لتجمع معنى أرذل العمـر ودركات جهنم السفلى. و(غير ممنون) لتجمع معنى غير مُنْقَطِعٍ ولا مُنَغَّصٍ بالمِنَّة عليهم، وكلمة (الدين) لتجمع الجزاء والدين ـ و(أحكم الحاكمين) لتجمع الحكمة والقضاء.

فانظر هذه الدقة في الاختيار وهذا الحُسْنَ في التنسيق. أليس الذي قال ذلك بأحكم الحاكمين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

المراجع

ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ ط٣/ ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

ـ الإعجاز العددي للقرآن الكريم ـ عبدالرزاق نوفل ط٣.

ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعي ط٦/ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، مطبعة الاستقامة في القاهرة.

ـ أنوار التنزيل ـ القاضي البيضاوي ـ المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ.

ـ الإيضاح للقزويني ـ تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ـ مطبعة السنة المحمدية.

ـ البحر المحيط لأبي حيان ط١ سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة بمصر.

ـ بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ـ الطباعة المنيرية.

ـ بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تحقيق حفني شرف ط١ مكتبة نهضة مصر.

ـ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١/ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية.

ـ البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ـ محمد بن حمزة الكرماني. رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية حققها الطالب ناصر بن سليمان العمر ـ مكتوب بالآلة الكاتبة.

ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ الزملكاني. تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب ـ مطبعة العاني ـ بغداد ط١/ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هرون ط٢ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتب الهلال ببيروت.

ـ تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت، تصوير، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ.

ـ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ـ بتحقيق عصام فارس الحرستاني.

ـ تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري تحقيق حفني شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة.

ـ تسهيل السبيل في فهم معاني التنزيل لمحمد تاج الدين أبي الحسن البكري مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٢٣٢٠.

ـ التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب.

ـ التعبير الفني في القرآن ـ الدكتور بكري شيخ أمين ـ دار الشروق، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ التفسير القيم لابن القيم ـ جمع محمد أويس الندوي ـ مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ـ المطبعة البهية ـ مصر.

ـ تفسير ابن كثير طبع بدار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ حاشية الصبان على شرح التصريح للشيخ يس بن زيد الدين العليمي الحمصي طبعت مع شرح التصريح ـ دار إحياء الكتب العربية.

ـ حاشية ابن المنير على الكشاف طبعت مع الكشاف.

ـ دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي ـ مطبعة العاني ـ بغداد سنة ١٩٦١م.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط١/ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي، إدارة الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي.

ـ سيرة النبي ﷺ لمحمد بن إسحاق هذبها ابن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ نشر محمد علي صبيح وأولاده، مطبعة المدني ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

ـ شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبدالله الأزهري ـ دار إحياء الكتب العربية.

ـ شرح الدماميني على مغني اللبيب طبع بهامش حاشية الشمني على مغني اللبيب ـ المطبعة البهية بمصر.

ـ الطراز ليحيى بن حمزة العلوي ـ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.

ـ فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ط١ ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ الطبعة الأولى.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ لجارالله الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

ـ لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري ـ مصور على طبعة بولاق.

ـ مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ـ كتا بفروشي إسلامية ـ طهران.

ـ معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل صالح السامرائي ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م الشركة المتحدة للتوزيع ـ بيروت.

ـ معاني النحو ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ

ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السّيوطي تحقيق محمد علي البجاوي ـ دار الثقافة العربية للطباعة.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

ـ المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسيني بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ـ طهران.

ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ ببيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ من بلاغة القرآن ـ أحمد أحمد بدوي ـ مطبعة لجنة البيان العربي.

ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السّيوطي ط١ سنة ١٣٢٧هـ مطبعة السعادة بمصر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
التعبير القرآني	٧
البنية في التعبير القرآني	٢٢
التقديم والتأخير	٤٩
الذكر والحذف	٧٤
التوكيد في القرآن الكريم	١٢٥
التشابه والاختلاف	١٧٣
فواصل الآي	٢١٧
السمة التعبيرية للسياق	٢٣٧
الحشد الفني	٢٥٢
الحشد الفني في القصص القرآني	٢٨٣
قصة سيدنا آدم عليه السلام	٢٨٥
١ - قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف	٢٨٥
٢ - قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)	٢٩٧
٣ - قصة آدم في الحِجْر و (ص)	٣٠٢
قصة سيدنا موسى عليه السلام	٣١١
١ - في البقرة والأعراف	٣١١
٢ - في الأعراف والشعراء	٣٢٥
تفسير سورة التين	٣٣٧
المراجع	٣٤٩

